روايات تاريخ الإسلام

فتاة القيروان

جرجي زيدان

دار الهلال

تصدر عن مؤسسة
دار الهلال
أسسها جورجي زيدان
سنة ١٨٩٢
* * *
رئيس مجلس الإدارة
مكرم محمد أحمد

روايات تاريخ الإسلام

فتاة القيروان

جرجي زيدان

تقديم ودراسة
د. محمد حسن عبد الله

١٩٨٤

الغلاف بريشة
الفنان
جمال كامل

رقم الايداع : ٥٦٧٨ - ١٩٨٤
الترقيم الدولى: ٩٧٧- ١١ ٨ - ١٢٥٠

مقدمة

قبل أن أتوقف عند ((فتاة القيروان)) محاولا تنوير بعض جوانبها الفنية والفكرية ، أستعيد بعض الذكريات القديمة التى تتعلق بسلسلة روايات تاريخ الاسلام ، فلقد تعرفت على هذه الروايات ،وقرأت أكثرها وأنا فى منتصف المرحلة الثانوية، على النظام القديم بالطبع ، وكنت حوالى الخامسة عشرة من العمر ، والصيف فى القرية هادىء رتيب بطىء ، ونحن الطلبة لم يكن بين أيدينا غير الراديو والكتاب والثرثرة ، وكان الكتاب طريقى الى الخلاص ، ولا أشك فى أنها مجرد مصادفة أن يكون الكتاب احدى روايات جورجى زيدان ، الذى نقلنى الى عالم جديد فى ((عروس فرغانة)) ، فقد كان التاريخ الذى نتعلمه فى المدارس يدور فى معظمه حول الملوك والحروب والمعاهدات ، وينقسم الى أسباب ونتائج ، لا مجال فيه لخيال أو عاطفة ، ولا مكان فيه لحركة الحياة العريضة المتشابكة أو المتداخلة بطول الدنيا وعرضها ، وهكذا قادتنى عروس فرغانة ، الى فتاة غسان ، والمملوك الشارد ، وغادة كربلاء .. فاكتسبت من ثمراتها النفس الطويل فى القراءة ، وهذه حسنة أفادتنى كثيرا بعد ذلك ، فضلا عن تنمية الخيال وترقية الاسلوب والخبرة بأهم خصائص العصور وطبائع الشخصيات التاريخية ، والموضوعية أيضا ، أى غير التاريخية ، وقد كان جورجى زيدان يجيد تصوير هذه الشخصيات التى يبتدعها خياله أكثر مما يجيد تصوير الشخصيات التاريخية ، على الرغم من اعتماده على المصادر ، وتوثيق المعلومات ، وربما كان حرصه على التوثيق التاريخى سببا فى محدودية خياله ومقدرته على تحليل ، ومن ثم تصوير ، الشخصيات التاريخية كما سنرى . ومهما يكن من أمر

فقد بقي لهذا الكاتب دين كبير في عنقي ، هو ديني لكل من ترك في عقلي وضميري وسلوكي أثرا نافعا ٠

هذه أوغل ذكرياتي عن روايات الهلال ـ كما ندعوها ـ فقد علمتني الصبر على الكتاب ، وهذبت لغتي ، وجعلتني ((أعيش)) احداث التاريخ أكثر مما ((أعرف)) عنها ٠

وتمضي السنون ، واستعد لاختيار موضوع لدرجة الدكتوراه في الادب ، بعد أن حصلت على الماجستير ، وقد اقترحت ((فن الرواية التاريخية عند جورجي زيدان)) ، ولكن استاذا فاضلا كان من المتوقع أن يكون المشرف على اطروحتي ، قال : أنا لا أوافق على دراسة هذه الروايات أو تسليط الضوء عليها ، لقد مات جورجي زيدان ، وخير ما نصنعه له ان نتركه هادئا في قبره !!

كان هذا ايماء ذكيا الى ما يثار حول ((بعض)) روايات عن تاريخ الاسلام ، من أنه يكتبه من وجهة نظر خاصة لا تحرص على النظرة الموضوعية للتاريخ ، وأنه يسند بعض الحوادث ذات الآثار الخطيرة الى أسباب شخصية مخترعة أو مظنونة ، ولم يثبت لها وجود تاريخي ٠٠ الخ ٠ ويبدو أن هذا ((القلق)) تسرب الى نفسي ، فانصرفت الى موضوع آخر ، وظلت القضية معلقة ، ولعل العودة الى ((فتاة القيروان)) تساعد على توضيح هذا الجانب ٠

الرواية التاريخية : علم أم فن ؟

ونقطة البدء في القضية ان نعترف بالفرق بين التاريخ والرواية ، فالتاريخ علم ، والرواية فن ، واذا كان المؤرخ يلجأ الى الحدس او الخيال ليربط بين الحوادث الجزئية أو المقدمات والنتائج ، فان الروائي يتوسع ويضيف ليسبغ على هذه الحوادث الجزئية قدرا من الواقعية أو مشابهة الواقع ، من جانب ، وقدرا من الاثارة والتشويق ، من جانب آخر ، وهذا يعني أنه من غير الممكن أن يظل

الروائى ـ أو الكاتب المسرحي ـ حبيس الاطار التاريخي للحوادث ، مطالبا بذكر ((كل)) الحقائق التى سجلتها كتب التاريخ عن شخصيات عمله الفني ، انه لو فعل لن يستطيع تشكيل عمل فنى مقنع ، فضلا عن أن ما يسمى بالحقيقة التاريخية يظل مجرد احتمال ، أو احتمال راجح ، ولا يأخذ صفة ((المؤكد)) الا فيما لا خلاف عليه ، مثل تاريخ معركة ، أو سنة وفاة ، أما ((كيف)) و ((لماذا)) فالجواب عليهما محل اجتهاد واختلاف بين المؤرخين ، فليس من حقنا أن نحظر ذلك على كاتب الرواية ، وهو ـ على اية حال ـ لم يقل لنا انه يضع كتابا فى التاريخ ، وليست الرواية أو المسرحية مصدرا تاريخيا ، ولا يصح أن تكون ، انها ((رؤية)) اى وجهة نظر فى حدث عظيم ، أو حقبة او شخصية .

ونضيف هنا : ان جورجى زيدان لم يحاول أن يقدم ((وجهة نظر)) فى التاريخ الاسلامى عبر رواياته المتعددة ، فمجال ذلك فى كتاباته عن الادب العربى والتمدن الاسلامى ، أما رواياته فهدفها بين التعليم والترفيه ، وطبيعى أن التعليم يتوجه به القارىء العام الذى لا يعرف التفاصيل ولا يسعى اليها ، انه ـ عادة ـ يكتفى بمعرفة عامة بأهم الشخصيات ، وادراك عام لتسلسل الحوادث وظروفها اجمالا .

وجورجى زيدان يقوى عنصر الترفيه بوسائل شتى ـ كما سنرى ـ لكى يسوق الى قارئه هذا القدر الاساسى من الحقائق وهنا نقترب خطوة أخرى من ((فتـــاة القيروان)) ـ وهى التى نعنى بها الآن ، والمؤلف يصفها أو يجمل الهدف منها فى كلمات قليلة تتصدرها ، فهى تتضمن ظهور دولة الفاطميين فى أفريقية ، ومناقب المعز وقائده جوهر الى فتح مصر واخراجها من الدولة الاخشيدية ، و ((تتخلل ذلك)) وصف البربر وعاداتهم ، وبيان الاسباب الاجتماعية التى انتصروا بها على الاخشيديين ، واهمها : الترف والاستبداد والانقسام عند الاخشيديين ، والاتحاد والحفاظ على منـــاقب البـــادية عند

الفاطميين • هنا نوشك أن نكون أمام « رؤية » لتفســـير الصراع الحضارى والحربى بين الشعوب ، وقد تكررت الاشارة الى هـــذا المعنى على لسان المعز الذى كان يعيش ـ فى رأى المؤلف ـ حياة هى فى غاية البساطة ، والبعد عن الترف ، وهذا التصـــور ليس من ابتكار جورجى زيدان ، انه قول ابن خلدون ، وله بقية ، فاذا كانت الشعوب المبتدية تغلب فى ميدان القتال ، فان الشعوب المتحضرة تتغلب فى النهاية وتترك أثرها القوى على الغـالبين • وقد اكتفى المؤلف بالنصف الاول من مقولة ابن خلدون ، ومن حقه هذا مادامت الحقبة التى يصورها تساعد على هذا الانطباع ، ولكن ما يخـدش هذه ((الرؤية)) أنها تظل سردية تقريرية لم تنشر أثرها على أخلاق الشخصيات وسلوكها بوجه عام ، كما أنهـا تقع فى تنـاقض حين تصور البربر من كتامة صنهاجة وهوارة أهل ترف وحضارة ، وان كان حكامهم يقلدون فيها أهل الاندلس ، وتصور المعز بأنه الرجل الحريص على الزهد فى المظاهر ، وايثار الخشونة ، وقد يختلف هذا الرأى مع الصورة الشائعة فى المصادر التاريخية ، ولكن الاهم من ذلك أنه يصدم حقيقة مقررة ، وهى أن الدعوة الفاطمية انما انتصرت فى أفريقية بهذه القبائل ذاتها !! وهذا ما يجعلنا نقول ان هـــذه الرواية ـ وربما كان القول ذاته صادقا بدرجة أو بأخرى على غيرها من روايات تاريخ الاســـلام ـ لا تعبر عن ((رؤية)) فى التـــاريخ الاسلامى بقدر ما تهدف الى تعليمه •

رواية لكل القراء

لقد اختلف المنظرون قديما وحديثا حول الاجابة على سـؤال : لماذا يكتب الاديب ؟ وقد يتحول الى : لمن يكتب الاديب ؟ ولســـنا بسبيل مناقشة هذه القضية الفنية المهمة ، وبخاصة أننا نرى أن زيدان كان يهدف الى التعليم والترفيه ، أو ـ بصفة معدلة : كان يتخذ الترفيه طريقا الى تعليم التاريخ ، ويظل هذا القول بحاجة الى

تفصيل ، فتحديد الهدف لا يتضمن بالضرورة اتفاق الوسيلة أو وحدة الاسلوب ، وما دام زيدان يكتب الرواية ليعلم ، فانه لابد أن يتوجه الى متعلم ، لابد أن يملك تصورا محددا أو قريبا من التحدد للمخاطب ، وعلى رأى البلاغيين القدماء ، اعمالا لمبدأ : مراعاة مقتضى الحال ، وهو نفسه ، أو يكاد أن يكون مبدأ : الصدق الفنى ، فى لغة النقد الحديث ٠

فمن هو القارىء الذى توجه اليه زيدان بروايته ؟ لا نغامر اذا قلنا انه كان يكتب لمستويات مختلفة في درجة ثقافتها ، وقدرتها على التذوق الجمالي لبناء الرواية ، ولصياغة اللغة ، وهذا واضح بدرجة كبيرة في ((فتاة القيروان)) ٠ ولا نشك فى أن محاولة ارجاع كل عنصر فنى أوخاصية أسلوبية الى مستوى معين من القراء عمل ينطوى على تعسف ومصادرة ، فليس ثمة ما يمنع ، بل ينبغي أن يقوم العنصر بأكثر من وظيفة ، وأن تصدر الخاصية الواحدة عن مستويات مختلفة من الادراك الفنى ، فغاية ما نطمح اليه أن نرصد الخصائص الفنية المميزة لاسلوب المؤلف فى هذه الرواية ، وأن نقرب هذه الخصائص الى مستويات القراء ، لنؤكد ما نراه من أن جورجى زيدان كان يهدف الى كتابة رواية لجميع الراغبين فى التعامل مع هذا الفن ٠٠ فن الرواية ٠

يبدأ المؤلف روايته بمقدمات طويلة عن نشأة التشيع فى المغرب، ويستدعي منه هذا أن يعود الى نشأة التشيع أصلا ، وما عاناه الشيعة في العصرين الاموى والعباسي ، ويرصد جوانب من تاريخ الدويلات التى انسلخت عن دولة الخلافة ، ثم يذهب الى القيروان والمنصورية ، كما يذهب فى أثناء روايته الى الفسطاط ، ويتكلم عن ظروف استقلال الاخشيد بمصر ، وكيف آل الامر الى كافور ، ومفترق الطريق الذى انتهت اليه أوضاع مصر بمرضه ، وكيف ساعد الصراع الداخلى على انتصار جوهر ودخول مصر في حوزة الفاطميين ٠ ان هذه المعلومات التاريخية المباشرة المجددة ليس لها

فائدة فنية ، بل هي ضد لغة الفن أصلا ، وقد جاءت لتزود المتعلم ـ المعنى العام ـ بالقدر الاساسي من المعرفة الذي يساعده على تصور الحقبة التي تجري فيها أحداث الرواية ، وتجعله قادرا على تقبل ما يستجد ـ بناء على هذه المعرفة ـ من أحداث • غير أنه يتوجه ـ في مستوى آخر ـ الى القاريء الذي يمكن أن نسميه « المثقف » وهو يملك هذا القدر الاساسي من المعرفة ، ولديه بصر بمرامي القول ، وكان جورجي زيدان يحرص على ارضاء هذا القاريء المثقف ، أو على الاقل ، عدم اغضابه واثارة شكوكه في بعض النعوت التي تطلق على بعض الشخصيات ، أو بعض الحوادث التي تنسب اليها ، فلأنه وضع هذا القاريء في اعتباره نجده يحرص على ذكر المصادر التاريخية التي نقل عنها بعض ما يجد حرجا في نسبته اليه • وفي صدر هذه الرواية « فتاة القيروان » ذكر أنه اعتمد على ستة مصادر او مراجع ، أكثر ما اعتمد عليها في وصف الدول ورجالها ، ثم الامور التي أشرنا اليها ، مثل تنزيه المعز عن شرب الخمر مثل أرباب الدنيا ، أو تصوير اضطهاد الشيعة في مصر اضطهادا مبالغا فيه ، أو وصف نفوذ الوزير اليهودي يعقوب بن كلس على شخصية كافور ، فالمؤلف يسارع الى ابراء ذمته بذكر المصدر التاريخي ، لكنه لم يحاول أن ينقد هذه المصادر ويحدد درجة نزاهتها ، وهذا بالطبع ينافي أسلوب الكتابة الفنية في الرواية وغير الرواية ، وهو ليس مطلوبا من الروائي ، لكن مجرد ذكر المصدر ليس مطلوبا منه ايضا بنفس الدرجة ، وهذا يعني أنه ورط نفسه بذكر المصادر ، وهي مصادر ليست فوق الشبهات فيما يتعلق بالصراع المذهبي بين السنة والشيعة ونفوذ بعض الطوائف حول رجال الحكم • ويلتقي المتعلمون والمثقفون في احترام المؤلف لطبائع الشخصيات ، والتتابع التاريخي للاحداث ، وربط النتائج الى أسبابها بطريقة مباشرة • غير أن الطابع العام الغالب يبقى شعبيا في صميمه ، وسنتوقف عنده بعد أن نستوفي القول حول الجانب التعليمي •

الجانب التعليمي

قلنا ان جورجي زيدان أراد أن يعلم القراء تاريخهم من خلال الترفيه عنهم • والحق أن آثار هذه النزعة الراغبة في التعليم طاغية جدا على جو الرواية ، بدرجة دفعت بالجوانب الفنية الخالصة الى الهامش ، فيما عدا اللغة ، التي ظلت عربية نقية الى حد بعيد • ان هذه المقدمات التاريخية ، والاسراف في النقل عن المصادر من اهم معالم النزعة التعليمية ولكنها ليست أشدها اضرارا بالجوانب الفنية ، أما الضرر فيتجلى في أن المؤلف لم يستطع أن يندمج فى العصر التاريخى ويعيشه كواحد من أفراده،لقد ظل شديد الاحساس بذاته ، شديد الشعور بالفاصل الزمني بين عصره والعصر الذى يكتب عنه ، فحين يصف مغارة الكاهنة البربرية يقول : ((ولو زار أحد علماء الآثار اليوم لتحقق أن تلك المغارة من بقايا الابنية القديمة فى العصور الغابرة ، لانها محفورة فى الصخر)) ، أما تأثير أبى حامد على نفسه سالم وعقله فهو « من قبيل ما يعرف اليوم بالتنويم المغناطيسى)) ، وقد جاء أعيان القبائل المغربية ((وعلى اكتافهم البرانس الواسعة مثلما يلبس أهل تلك البلاد الى اليوم)) ، أما البستان الكافورى فهو ((فى محل الازهر والسكة الجديدة من أبنية القاهرة اليوم)) ، وفى الفسطاط كان المنادون يرفعون عقيرتهم فى الشوارع للاعلان عن الاخبار المهمة ((مما يعلن عنه فى الصحف أو يدون فى المنشورات الرسمية فى هذه الايام)) • ان هذه العبارات المقتبسة منتشرة على مساحة الرواية ، وهى تؤكد أن المؤلف لم يكن حريصا على مغادرة الرواية أو مغادرة وظيفته ، فلا هو صورها فى اطار عصرها وحده ، ولا هو صاغها بضمير المتكلم ، وكأنه ((رحالة)) قطع رحلة متخيلة فى زمان مضى ، لقد ظل فى مكتبه بدار الهلال ، مرتبطا بواقعه العصرى ومشاهداته اليومية ، يكتب رواية عن عصر فائت من خلال ارتباطه بهذا الواقع الحى ، وقد أدى ذلك الى جرح

الايهام بشكل مستمر ، مما أثر في قوة الايحاء ، وقدرة القارىء على الاندماج بالعصر الذى تتعرض له هذه الرواية • وهكذا ظل جورجي زيدان موجودا في صميم السياق الروائي ، يفرض نفسه عليه كل حين ، لدرجة أنه يحيل القارىء على رواية سابقة ، فالقطائع عاصمة احمد بن طولون ((كما ذكر في رواية أحمد بن طولون)) ، بل انه يفرض هذا الحضور على القارىء أيضا ، فيوجه اليه الخطاب بصيغ مختلفة : « كما علمت » ، « فقد علمت)) ((لامر لا يخفى على القارىء)) وان يكن هذا أقل انتشارا فانه من الاسباب المؤدية الى اضعاف عنصر الايهام في الرواية • وتكتمل النزعة التعليمية بحرص المؤلف على توجيه النصائح واستخلاص العظات من الحوادث ، فلم يكن هذا مما تقوله احدى شخصيات الرواية لغيرها ، ولكنه من وعى المؤلف بالموضوع ورغبته في اضفاء روح الحكمة والمعرفة على روايته ونقديم هذه الخدمة الاضافية مجانا الى القارىء ، فيستخلص من افشاء سالم لبعض أسراره الى لمياء ان ((المحب لا يؤتمن على سر لا يبوح به الى حبيبه • فاذا شئت أن يبقى سرك مكتوبا فاحذر أن تستودعه محبا)) ، وحين تخاذل سالم في صدامه مع الحسين بن جوهر ، راح يلتمس لنفسه المعاذير ((وكذلك الانسان قد يصدق المحال تبريرا لعمله وردا لكرامته وحفظا لمنزلته عند نفسه)) ،وفي الموازنة بين طبائع المحبين ، يقول : ((ومن قواعد الحب وطبائع المحبين أن المتفاني في حب شخص يحتمل منه ما شاء من التجني والدلال والاعراض ، ولا يزداد الا شغفا وتفانيا •• لكنه لا يحتمل الخيانة)) ، و •• ((الحياء من أجمل ما تزدان به المرأة ، بل هو أجمل أثواب زينتها الحقيقية)) ، وفي أسباب الصراع بين الاخشيدية والكافورية •• ((لان انقسامهم انما وقع بسبب خوفهم من الفشل ، وهذا طبيعي في كل زمان ومكان ـ لا يختصم شريكان الا اذا خسرت تجارتهما)) !!

لا نزعم أن هذه الاقوال الحكيمة زائدة عن الحاجة بالضرورة ،

ولكن وضعها بهذه الصياغة التقـريرية ، معزولة عن مشـاعر الشخصيات وحديثها مع نفسها أو مع الآخرين ، يجعلها أشـبه بالنتوء في طريق مستوية ، كان من الخير أن يزال حتى لا يعـوق السياق .

فتاة القيروان رواية شعبية

وملامح الرواية الشعبية واضحة تماما ، لا يصرفنا عن رعايتها وتبنيها أن الرواية مكتوبة بلغة عربية سليمة ، وليس بالعامية ، وأنها استندت الى مصادر تاريخية أخذت منها بعض شـخصياتها وأهم حوادثها ، ذلك أن الوصف بالشعبية لا يرجع في صميمه الى اللغة أو الحوادث ، بل الى بناء الحوادث ، أى تركيبها ، والى الجو العام ، والنزعة الشعبية واضحة تماما فى هذين الجانبين . ويمكن أن نتقصى هذه الجوانب :

أولا : الاحتفاظ بأسرار والوعد بالكشف عنها فيما بعد ، وليس هذا من سمات الرواية الفنية ، بل الرواية الشعبية التى تسرف فى اضفاء عنصر التشويق والايحاء الى أن القارىء سيعرف سر ما يجرى الآن فيما بعد . في مفتتح ((فتاة القيروان)) نعرف أن « سـالم » غائب ، هو مجهول المصير عند لمياء ، مجهول المكان والهـدف عند أبيها ، وبعد صفحات يظهر سالم متنكرا ، ويحتـاج الى عشرات الصفحات ليكشف عن المنزلة الحقيقية التى تحتلها لمياء فى نفسه ، ويتكرر فى سياق الرواية الاشارة الى أسرار يعرفها شـخص ، ولا يفصح عنها ، وينتظر شخصا آخر ، أو موعدا ملائما ليظهر ما خفى. فلمياء تعرف أشياء عن سالم لا يعلم أبو حامد أنها تعرفهـا ، وهى تنتظر لقاء حبيبها لتناقشه ـ أو لتفضى الينا في الحقيقة ـ بهـذه الاشياء ، ويشير أبو حامد الى « فج الاخيار » دون أن نعرف بالضبط ماذا به .. الخ .

ثانيا : وصف الاماكن الغريبة ، اما باثارة الخيال اجمالا مثل الاشارة الى ما يحتمل وجوده فى فج الاخيار ، أو تفصيلا مثل وصف المغارة التى تعيش فيها كاهنة بربرية ، تقرأ الطالع وتدبر المؤامرات وهى على صلة بأبى حامد ، وتعرف عنه كل ما يخفى ، ويعينه على ما يدبر • ان وصف المغارة بدهاليزها وحرسها الغريب ، وحيوانها وافاعيها ، ووصف الكاهنة ، وجلستها وطريقة حوارها مع أبى حامد هو من صميم الادب الشعبى الذى نجد نماذجه فى ألف ليلة ، وما يعرف بالملاحم الشعبية ، بل نجد له اشباها فى الحواديت المنتشرة فى الريف •

ثالثا : المفاجأة والمصادفة • ومعروف أن الرواية الفنية ترفض المصادفة تماما ، الا بتبريرات قوية ترفع بها الى مستوى الاحتمال ، وتركب الحوادث الجزئية حسب منطق السبب والنتيجة فى سياق مستمر هو الذى يصنع الحبكة ، فيظل الرابط العقلى هو الاساس ، أما الرواية الشعبية فان المنطق فيها يخلى مكانه للمصادفة ، والتطور التدريجى يفسح مساحة للمفاجأة ، دون أن يشعر المؤلف بأنه يلغى الواقع أو يضعف الاقناع ، انه يكتفى بالتشويق والابهار واثارة الخيال ، وهكذا نكتشف أن لابى حامد اسما آخر تناديه به الكاهنة هو مسعود ، ونفاجأ بأن الغلام الذى مسح على وجه الفرس من أتباع أبى حامد وانه خدره بغية قتل لمياء ، ونفاجأ بأن الكأس مسمومة وان حمدون ـ والد لمياء ـ هو الضحية ، فقد ساقته المصادفة ـ وان تكن مبررة ـ الى افتداء من سعى من قبل الى قتله ، ويتصادف أن تسقط لمياء عن جوادها ولا تموت ، ويأتى هذا السقوط فى مكان تستطيع أن تسمع فيه ابا حامد وهو يحدث رجاله باخطر أسراره ، ونفاجأ بأنها ـ رغم اصابتها ـ تستطيع أن تنهض ، وأن تقتل فارسا ، وأن تفر بنفسها ، وقد حملت رسالة الى المعز ما كان لها أن تبلغه ، وتسعى الى أن تدخل بيت بنت الاخشيد ، فتنال ثقتها فى

اقل من يوم وليلة فنفاجأ بأنها تحضر معها اجتماعها بأبي حامد ، كماتصادف أن حضرت مجلس كافور وراته وسالما ، الخ ..

هذه المفاجآت والمصادفات بمثابة رفض لتحكيم المنطق والالتزام بالواقع الموضوعى ، وهذا الرفض يترك آثاره فى مواقف وحوادث مختلفة ، مثل طريقة خروج لمياء من قصر الامارة ، وتخفيها فى ثياب غلام صقلبى والسماح لها بمغادرة الاسوار دون أن يرتاب بها أحد، ومثل أن تجد فى رسالة يعقوب بن كلسى الى المعز اشارة الى سالم وخداعه العاطفى لها وسخريته من حبها ، وبالقطع ليس هـذا مما يكتب به الى الملوك والخلفاء ، ولكن المؤلف ــ اعمالا لعنصر الاثارة والتشويق ــ أراد أن يضع مبررا قويا لتحول عاطفة لمياء ، ومثـل السذاجة التى تعاملت بها بنتالاخشيد مع لمياء ، فقد دخلت فى حوزتها متخفية فى شخص جارية ، ولكن هذه الجارية تظهـر مع الوقت ــ وهو لا يزيد عن يوم وبعض يوم ــ أنها تعرف الكثير ، حتى تسألها بنت الاخشيد : « هل تعرفين المعز وقائده ؟ » وكأنها عما أعدت من طعام ، ولا تجد حــرجا فى الاخذ بنصـــحها ، بل الاستعانة بها ، مع أن جيش المعز يحاصر المدينة ، ودون هذا السؤال والجواب عليه تطير آلاف الرقاب !!

سنذكر ــ مرة أخرى ــ بألف ليلة وغيرها من القصص الشعبية، وان كانت فتاة القيروان لا تبلغ مبلغها بالطبع فى المبالغة والاعراب والاحالة ، ولكنها تقاربها فى « سذاجة » التصور للسلوك والحوادث وفى الاعتماد على المفاجأة والمصادفة .

رابعا : التنكر . وهو من أهم الحيل التى يلجأ اليها القـاص الشعبى ، فالتنكر هو الطريقة المفضلة للجمع بين الاعداء فى مكان واحد ، وكشف الاسرار ، وتجنيد العملاء ، وباستثناء موقف وحيد أنكر فيه سالم شخصه حين التقى بالحسين بن جوهر أوأوشـكت الحقيقة أن تنكشف ، وان كان الحسين تغافل عنه عامدا اكـراما

للمياء ، فان هذه الفتاة الفارسة الجميلة قامت بكل أنواع التنكر المكنة ، بل كانت تخرج من تنكر الى تنكر • فقد تنكرت فى ثياب غلام صقلبى لتغادر قصر المعز الى سرادق أبيها دون رقابة ، ولجأت الى الحيلة نفسها حين حملت رسالة المعز الى يعقوب بن كلس فى مصر ، فنزلت الخان على انها رجل ، وساعدها الطبيب اليهودى شالوم فتنكرت فى زى مساعدة ليتاح لها رؤية سالم وهو يفضى بأسراره فى مجلس كافور ، وتنكرت فى شخص جارية ، أطلقت على نفسها اسم ((سلامة)) لتدخل بيت بنت الاخشيد وتصير من جواريها ، وخرجت من هذا التنكر الى ارتداء ثياب الجند المصريين لتتمكن من الدخول الى الحسين بن جوهر فى محبسه ، ثم تنكرت اخيرا فى ثياب رسول من الفسطاط لتتمكن من مقابلة قائد جيش المعز ابان حصاره للفسطاط •

خامسا : انتصار ارادة الخير ، فالادب الشعبى حريص على أن يتضمن درسا اخلاقيا ، فلا ينتصر الشر فى النهاية مهما أبدى من ضروب الشراسة والتحايل ، ولا ينهزم الاخيار مهما أصابهم الوهن او انفض عنهم الانصار • والمغزى الاخلاقى سمة مستقرة فى أعماق الآداب الشرقية بشكل عام ، ولكنها أساسية فى المستوى الشعبى• من هنا يبدأ حمدان صاحب سجلماسة متآمرا على المعز ، ثم يتراجع ويندم ، ويفتدى المعز فى النهاية ، وتتنازع لمياء الاهواء ، ولكنها تستقر على الوفاء ، فلا تتورط فى الخيانة أو القتل ، ويظهر المؤلف سوء أحوال مصر وفقر شعبها وترف حكامها فى ظل الاخشيد وكافور ، ليبدو الفتح الفاطمى انتصارا للحق ، وللعدالة ، وبهذا الانتصار يقضى على أبى حامد ، وابن أخيه المزعوم سالم ، ولا يلوث الاخيار أيديهم بدم هذين الشريرين ، بل يتولى الشر تدمير نفسه ، فيطعن ابو حامد سالما ، ثم يطعن نفسه ، فى يوم انتصار جوهر ودخول الفسطاط ، وهو يوم تبدأ فيه لمياء والحسين الاستعداد لاتمام الزفاف وانتصار الحب •

ان الطابع الشعبي هو اشد ملامح هذه الرواية ظهورا ، بل لعله القاسم المشترك لروايات جورجي زيدان ، ولا يفهم منه أننا ننتقص به من قيمتها الفنية ، وربما كان الامر بعكس ذلك ، ونحن نعيش عصر الشعوب ، ونرفع شعار التنوير العام حق لكل الناس ، وتعليم التاريخ وتنويره هدف نبيل ، وكتابته بهذا الاسلوب الشـــائق يكتسب له آلافا من القراء يمثلون القاعدة العريضة التي ينبغي أن نحرص على تنمية معارفها وبخاصة في مجال التاريخ ، وترقية ذوقها وبخاصة في تذوق اللغة ، وهذا كله متوفر في روايات المؤلف .

الابداع في فتاة القيروان

اذا كان الناقد في كتابته عن عمل فني معـين ، أو عن فن كاتب ما ، ينبغي أن يحتكم الى الاصول الفنية والقيم الجمالية وحدها ، فانه مضطر — في بعض الحالات أو مطالب بأن يضع في اعتبــاره عامل الوقت ، أو السياق الفني الذي أبدعت فيه الاعمال التي يتعرض لتحليلها ، فالكاتب السابق زمنيا ، أو الرائد ، له فضل السبق أو الريادة ، على الذين جاءوا من بعده ، سواء أفادوا من تجربته أو رفضوها ، حتى وان كانوا أتقن منه فنا . وعامل السبق الزمني ، والاستمرار أيضا حق لتجربة جورجي زيدان ، وبرغم اتجاهه الى التاريخ فان موهبة الكـاتب الابداعي متوفـرة في رواياته بدرجة تطغى أحيانا على المادة التاريخية ، أو تزاحمها ، وسنتوقف عند هذا الجانب في فتاة القيروان .

لقد كان الهدف من الرواية تصوير نشأة الدولة الفـاطمية في المغرب ونجاحها في ضم مصر وانتزاعها من المتغلبين عليها ، الذين استأثروا بها من قبل وأخرجوها من حوزة العباسيين . وقد أشار الكاتب الى وجود صراع عباسي فاطمي، ولكنه لم يفد منه في تطوير أحداث الرواية ، كما أشار الى وجود وزير منافس لابن كلس ، لعله

الذى يمثل الوجدان المصرى الخالص وهو ابن الفرات ، ولكن هـذا الوزير لم يظهر بشخصه على الاطلاق ، واكتفى المؤلف بذكر اسمه وبعض مواقفه من الجيوش الفاطمية ، وخصـــمه ابن كلس ، كما أشار الكاتب الى العلاقة بين ترف الحكام وضائقة الشعب وفقره ، ولكنه ظل فى موقع التقرير ، وظل الشعب المصرى فى حالة غياب كامل ، يتحدث عنه المؤلف ولا يتيح له الفرصة أن يتحـــدث عن نفسه ، وبهذا لم يشارك فى صنع الاحداث ، بل لعله لم يشاهدها.

هذه مآخذ اساسية توجه الى طريقة استخدام التاريخ يضاف اليها اظهار الوزير اليهودى يعقوب بن كلس بمظهر المنقذ لحياة المعز والحريص على انتصاره ، واذ نطلع فى أثناء الرواية على المنزلة الرفيعة التى يحتلها هذا الوزير لدى كافور حتى أنه كان لا يوقع ورقة الا بعد توقيعه ، لا يظهر هذا الرجل فى صورة الخائن أو العميل المزدوج، بل يضم المؤلف اليه طبيبا يهوديا ليـدور الحوار بينهمـا ، ويعبر يعقوب من خلاله عن مخاوفه من احتمالات التغيير بعد موت كافور ، وكيف أنه اقتنع بأن مساعدة المعز على ضم مصر هو من مصـــلحة مصر قبل ان يكون من مصلحته الشخصية !!

وليس ثمة ما يمنع من تصوير الشخصية على هذا النحو ، ولا من سماع دفاعها عما هو اخلاقيا خيانة صريحة ، ولكن هذه الفرصة لم يتح جزء منها لابن الفرات ، أو لاى شخصية تمثـل الشـــعب المصرى ، ونحن لا ننطلق هنا من زاية وطنية أو قومية ، ــ وان كنا لا نجد فى ذلك مانعتذر عنه ــ و انما ننطلق من اساس فنى صريح فما دام من أهداف هذه الرواية أن تصور المجتمع والحضارة ، وأن ترصد صراع الدول ، وغلبة البداوة على الترف أو على الحضارة ، فان الفرصة كانت تستوجب أن نرى أحوال مصر ،وليس الاخشيدين فى مصر ، ولو أن ابن الفرات قد ظهر فى الرواية بالدرجة التى ظهر بها يعقوب بن كلس فان هذا كان يعلى من درجة الصراع ، وينـوع فيه ، ويكشف عن وجدان الشعب المصرى ونظرته الى ما يجرى بين

المتصارعين على ارضه ، ونوع مساهمته في هذا الصراع • لقد اهمل المؤلف هذا كله ، وان لم يهمل أكثر من مرة الاشارة الى ما يعيشه هذا الشعب من بؤس وما يخضع له من قهر ، ولكن ليجعل من المعز ـ البدوى المتقشف ـ رجل الإنقاذ الموعود !!

ونحن نتناسى عبارة : ((لقد مات جورجي زيدان ، وخير ما نصنعه له أن نتركه هادئا فى قبره)) لانها تصدر عن اقتناع بوجود ((شبهات)) معنية ، لاننا لم نقتنع بوجود هذه الشبهات ، ونعلل منحى المؤلف باهتمامه بالشخصيات التى ابتدعها اهتماما يطغى على الشخصيات التاريخية ، فلمياء هى الشخصية الاولى التى تتحرك، وتتحدث ، وتقابل، وتتنكر، وما ناله ابو حامد يضاهى ما ناله المعز نفسه ـ بل أن تصويره اكثر اتقانا على المستويين العضوى والنفسى ، بل ان ام الا مراء ـ زواج المعز ـ اكثر ظهورا وتأثيرا من جوهر قائد المعز ••

ان هذا الاهتمام بالشخصيات الموضوعة له مبرراته لدى مؤلف شعبى النزعة ، يعنى بالمفاجآت والمصادفات والغرائب ، مما لا يمكن تحقيقه من خلال الوجود التاريخى لشخصيات الرواية • ومع هذا فان هذه الشخصيات القوية بوجودها الانسانى فى الرواية لم تكن صانعة الاحداث فيها ، فالاحداث تاريخية ، وصانعوها فى الرواية هم صانعوها فى التاريخ ، وهذه نقطة شديدة الحساسية فى الرواية التاريخية ، وقد نجح فيها المؤلف نجاحا ملحوظا ، اذ تمكن من حفظ التوازن بين صدق التاريخ ، وصدق الفن ، كما حفظ التوازن بين كمية الابداع في الحوادث والشخصيات ، وكمية النقل عن المصادر فيهما •

وهكذا ترتب على اعطاء لمياء الدور الاساسى ـ وهى الوجه الابداعى لشخصية المعز التاريخية ، الطامح لضم مصر ـ أن تتصل بالذين يشاركونها ميولها ، وعلى رأسهم ابن كلس ، الذى اخذ حجما يفوق ما هو مطلوب لتصوير القلق والنزعات السائدة ، ودفع بالشعب المصرى وممثله الى منطقة الظل •

لن نجادل المؤلف فى تصويره للمعز كرجل خشن بسيط ، ولكن : هل كان يرى ضرورة اكتفاء الرجل بزوجة واحدة ؟! وهل كان هذا مما يشغله فى حواره مع قائده ؟ وهل كانت مصر تنطوى على عداء للشيعة فى اى عصورها ، حتى تضع على أبواب المساجد من ينادى : ((معاوية خالى)) !! لقد كانت مصر دائما ملاذا لآل على ، محبة لهم ، وفى عصر الرواية بالذات ورغم أنها لم تكن عباسية تماما ، فانها لا يمكن أن تكون أموية بهذه الدرجة ، ولا فى عصر بنى امية نفسه ، ولا يغنى المؤلف أن يسجل مصدره التاريخى فهذا قصور فى قراءة العصر بشكل شامل ، وكم فى المصادر من غايات وتزييف يستدعى الحذر فى النقل ، كما أنه ذكر شخصية زعيم مصرى شيعى مهاب له احترامه ، مما يناقض ما ذكره •

مع هذا كله ، استطاع جورجى زيدان أن يكتب رواية فنية ، فيها قدر مناسب من الابداع ، تمتزج فيها الحس الرومانسى بالروح الشعبية ، هدفت الى تعليم التاريخ الاسلامى فى خطوطه العريضة ، اتجهت به الى القارىء العادى وان تطلعت الى مخاطبة سائر القراء ، وظلت ـ مع هذا ـ محافظة على نقاء اللغة ، وطبيعية الحوار ، وصدق التحليل • وهذه جميعا جوانب اضاءة تضاف اليها ، وتستحق التنويه ، فضلا عن دينها القديم فى عنقى ، وهذا ما لا أنساه !!

د. محمد حسن عبد الله

فتاة القيروان

رواية تاريخية

تتضمن ظهور دولة العبيديين أو الفاطميين فى افريقية ، ومناقب المعز لدين الله وقائده جوهر الى فتح مصر واخراجها من الدولة الاخشيدية سنة ٣٥٨ هـ · ويتخلل ذلك وصف برابرة افريقية وعاداتهم وأخلاقهم ، وبيان الاسباب الاجتماعية التى ساعدت على ذلك الفتح ، ولا سيما انهماك الاخشيديين فى الترف واستبدادهم وانقسامهم ، واتحاد جند الفاطميين ومحافظتهم على مناقب البادية

تاليف

جرجي زيدان

دار الهلال

أبطال الرواية

* المعز لدين الله	:	الخليفة الفاطمى
* جوهر الصقلى	:	قائد المعز
* الامير حمدون	:	حاكم سجلماسة
* لمياء (فتاة القيروان)	:	ابنة حمدون
* أم الامراء	:	زوجة المعز
* الحسين	:	ابن القائد جوهر
* سالم	:	خطيب لمياء
* ابو حامد	:	داعية ضد المعز
* كافور الاخشيدى	:	ملك مصر
* زينب بنت الاخشيد	:	بنت ملك مصر السابق
* جعفر بن الفرات	:	وزير كافور
* مسلم بن عبيد الله	:	شريف شيعى بمصر
* يعقوب بن كلس	:	يهودى من رجال الدولة

مراجع هذه الرواية

هذه هى المراجع التى اعتمد عليها المؤلف فى تاليف الرواية ووقائعها التاريخية :

* تاريخ المقدسى
* معجم ياقوت
* تاريخ ابن خلدون
* تاريخ اليعقوبى
* تاريخ المقريزى
* تاريخ ابن خلكان

الشيعة العلوية فى المغرب

قاسى الشيعة فى زمن بني أمية فى الشام عذابا شديدا من القتل والصلب .. وكذلك فى الدولة العباسية ، ولا سيما فى أيام المنصور والرشيد والمتوكل ، فحملهم ذلك على الفرار الى أطراف المملكة الاسلامية ، فهاموا على وجوههم شرقا وغربا ، وكان بين مَن جاء منهم نحو المغرب ادريس بن عبد الله بن الحسن المثني ، أخو محمد بن عبد الله الذى بايعه المنصور ثم نكث بيعته .. فأتى ادريس الى مصر وهي يومئذ فى حوزة العباسيين ، فاختفى فى مكان حضر اليه بعض الشيعة سرا ، ومنهم صاحب البريد ، فحمله الى المغرب فى أيام الرشيد ، فتلقاه الشيعة هناك وبايعوه ، فأنشأ دولة فى مراكش عرفت بالدولة الادريسية من سنة ١٧٢ ــ ٣٧٥ هـ ، على أن هؤلاء لم يسموا أنفسهم خلفاء ..

أما ظهور الشيعة وتغلبهم وارتفاع شأنهم حقيقة ، فالفضل فيه للدولة الفاطمية نسبة الى بنت النبى ، لأن أصحابها ينتسبون اليها ، وتسمى أيضا الدولة العبيدية نسبة الى مؤسسها عبيد الله المهدى . وكان شأن الشيعة قد بدأ فى الظهور فى المشرق على يد بنى بويه ، فى أواسط القرن الرابع للهجرة

ولما تغلب البويهيون على بغداد كانت الدولة الفاطمية قد

اشتد ساعدها فى المغرب وهمت بفتح مصر . وكان آل بويه يغالون فى التشيع ويعتقدون أن العباسيين قد اغتصبوا الخلافة من مستحقيها ، فأشار بعضهم على معز الدولة البويهى أن ينقل الخلافة الى العبيديين أو الى غيرهم من العلويين ، فاعترض على ذلك بعض خاصته قائلا : « ليس هذا برأى فانك اليوم مع خليفة تعتقد أنت وأصحابك انه ليس من أهل الخلافة ولو أمرتهم بقتله لقتلوه مستحلين دمه ، ومتى أجلست أحد العلويين خليفة كان معك من تعتقد أنت وأصحابك صحة خلافته ، فلو أمرهم بقتلك لقتلوك » فرجع معز الدولة عن عزمه

على ان ظهور الشيعة فى الشرق هوّن على الدولة العبيدية فتح مصر والانتقال اليها ، وكانت عاصمتها أولا المهدية بافريقية ، وخلفاؤها ينتسبون الى الحسين بن علي ، وللمؤرخين فى انتسابهم اليه أقوال متناقضة ، فالذين يتعصبون للعباسيين ينكرون ذلك عليهم . ويغلب فى اعتقادنا صحة انتسابهم اليه ، وان السبب فى وقوع الشبهة انكار العباسيين لهذا الانتساب تصغيرا لشأنهم

وكان المصريون يحبون عليًا منذ صدر الاسلام ، وكانوا من حزبه يوم مقتل عثمان ، ولكن قلما كان لهم شأن فى الشيعة العلوية لأن العلويين استنصروا أولا أهل العراق وفارس . فلما قامت الدولة العباسية وتعقّبهم المنصور بالقتل والحبس ، وقتل محمد بن عبد الله الحسنى وبعض أهله من بنى حسن ، وفرّ سائر العلويين من وجه الدولة العباسية ، كان فى جملتهم على ابن محمد بن عبد الله ، وقد جاء الى مصر بدعوة من بعض رجال

الشيعة ، لكنه ما لبث أن حُمِل الى المنصور واختفى

وكان حال الشيعة العلوية بمصر يتقلب بين الشدة والرخاء بتقلب أحوال الخلفاء فى بغداد ، فان تولى خليفة يكره العلويين ضيّق على الشيعة واضطهدهم والعكس بالعكس . فلما تولى المتوكل واضطهد الشيعة العلوية كتب الى عامله بمصر ، باخراج آل أبى طالب الى العراق .. فأخرجهم سنة ٢٣٦ هـ ، ولما وصلوا الى العراق أرسلوهم الى المدينة واستتر من بقى فى مصر على رأى العلوية .. لأن عمال المتوكل كانوا يبالغون فى اظهار الكره للشيعة تزلفا الى الخليفة .. يحكى ان رجلا من الجند اقترف ذنبا أوجب جلده ، فأمر يزيد بن عبد الله عامل مصر يومئذ بجَلده ، فتوسّل اليه بحق الحسن والحسين أن يعفو عنه ، فما كان منه الا أن زاده ثلاثين ضربة . ورفع صاحب البريد الى المتوكل ذلك الخبر ، فورد كتابه الى العامل أن يضرب الجندى المذكور مائة سوط فضربه . وتتبع يزيد المشار اليه آثار العلويين فعلم برجل منهم له دعاة وأنصار ، فقبض عليه وأرسله الى العراق مع أهله وضرب الذين بايعوه ..

ولما تولى المنتصر بن المتوكل سنة ٢٤٧ هـ ، كتب الى عامله بمصر أن لايضمن علوى ضيعة ، ولا يركب فرسا ، ولا يسافر من الفسطاط الى طرف من أطراف مصر ، وأن يمنعوهم من اتخاذ العبيد الا العبد الواحد . واذا كان بينهم وبين أحد الناس خصومة قُبِل قول خصمهم فيهم بغير أن يطالب ببينة .. فقاسى العلويون بسبب ذلك عذابا شديدا ..

ولما استقل أحمد بن طولون بامارة مصر سنة ٢٥٤ هـ ، اضطهد الشيعة لأنه تركي ، ولأنه على رأى الخليفة العباسي ، فاقتص آثار العلويين وحاربهم مرارا .. حتى اذا ضعف أمر بنى طولون بمصر واختلت أحوال الدولة العباسية فى بغداد ، وتغلب آل بويه عليها فى القرن الرابع للهجرة ، أخذ حزب الشيعة ينتعش ويتقوى ، فلما جاءهم جند المعز لدين الله الفاطمي سنة ٣٥٨ هـ ، بقيادة جوهر الصقلى ، كانت الأذهان متأهبة لقبول تلك الدعوة ، ففتح جوهر مصر فى سهولة ويسر .

— ٢ —
القيروان والمنصورية

القيروان من المدن الاسلامية التى اختطها العرب بعد الفتح ، كالبصرة ، والكوفة ، والفسطاط .. اختطها عقبة بن نافع الفهرى سنة ٦٠ للهجرة فى موقع قريب من تونس ، وهو الذى افتتح أكثر المغرب . وكانت القيروان فى زمن روايتنا هذه — فى أواسط القرن الرابع للهجرة — عاصمة بلاد المغرب ، وقد تقاطر الناس من أنحاء العالم لتعميرها ، فأقام بها العرب من قريش وسائر البطون فى مصر ، وربيعة ، وقحطان ، وألوان من العجم من أهل خراسان ، وألوان من البربر ، والروم وأشباه ذلك . وكانوا يشربون من ماء المطر ينصب من الأودية الى برك عظام يقال لها المؤاجل ، فمنها يشرب السقاة .. ولهم واد يسمى وادى السراويل فى قبلة المدينة

وكان بنو الأغلب حين نزلوا الى القيروان فى القرن الثالث ، قد ابتنوا على بعد ميلين قصورا لأنفسهم ، ثم ابتنوا محلة على بعد ثمانية أميال منها سموها رقادة .. فلما نزح اليها الفاطميون فى أول القرن الرابع للهجرة ، ابتنوا لأنفسهم حصنا مستديرا بالقرب منها ، سموه صبرة ويسمى أيضا المنصورية ، جعلوه مستقرا لهم ولأهليهم ..كما فعل المنصور ببناء بغداد قبل ذلك بقرنين . فالمنصورية بلدة مستديرة الشكل قرب القيروان ، بناها اسماعيل بن القاسم بن عبد الله المهدى سنة ٣٣٧ هـ ، واستوطنها ، وجعل قصره فى وسطها ، والماء يجرى فيها ، وأنشأ بها أسواقا جميلة ، وجامعا ، وكان سمك سورها اثنى عشر ذراعا .. وهى منفصلة عن القيروان بعرض الطريق . ومن أبوابها باب الفتوح ، وباب زويلة ، وباب وادى القصارين ، وكلها مصفحة بالحديد(١)

وأول الخلفاء الفاطميين عبيد الله المهدى بن محمد الحبيب بن جعفر الصادق ، من نسل الحسين بن فاطمة الزهراء . قام له بالدعوة رجل شيعى اسمه أبو عبد الله الشيعى بمساعدة قبائل البربر ، وخصوصا كتامة وصنهاجة ، كما قام أبو مسلم الخراسانى فى المشرق بالدعوة للعباسيين بمساعدة الخراسانيين .. ولما استقر لعبيد الله المهدى الملك قتل أبا عبد الله الشيعى كما قتل المنصور أبا مسلم (٢)

وكان عبيد الله فى أول الدعوة يقيم فى المهدية على ساحل تونس ، ثم نقل الى القيروان ، وتوفى سنة ٣٢٢ هـ ، فخلفه

(١) ياقوت — الجزء الثالث ، والمقدسى ، واليعقوبى
(٢) ابن خلدون — الجزء الرابع

ابنه القاسم ولقب القائم بأمر الله ، وتوفى سنة ٣٣٤ هـ ، فخلفه ابنه المنصـــور أبو طاهر ، وتوفى سنة ٣٤١ هـ ، فخلفه المعز لدين الله ، وعلى عهـــده فتحت مصر على يد قائده جوهر الصقلى . وفى أيامهما جرت حوادث هذه الرواية

— ٣ —

المعز لدين الله وقائده جوهر

خرج المعز فى ليلة مقمرة ، من ليالى سنة ٣٥٧ هـ الى حديقة قصره فى المنصورية قرب القيروان ، وفى الحديقة بركة واسعة يصب فيها الماء من نبع ، مهّد المعز وصول مائه اليها من جبل بقرب المنصورية .. وفرقه بأنابيب الرصاص الى قصور المدينة ومسجدها وأسواقها . وينصرف ما بقى من ذلك المـــاء الى القيروان . وقد علمت ان المنصورية خاصـــة بالخليفة وأهله ، وحاشيته وأعوانه لايشاركهم فيها أحد .. وقد أحاطوها بسور ضخم عال ، فهى أشبه بالحصون منها بالمدن . وهو هناك فى مأمن من غدر الغادرين لأنها محاطة بسور منيع ، أبوابه مصفحة بالحديد تقفل وتفتح عند الحاجة

خرج المعز فى تلك الليلة وهو مطمئن الخاطر لايخشى غدرا .. حتى اذا توغل فى الحديقة ، ولا شيء فيها من زخارف المدنية ، أشرف على تلك البركة .. وهى ليست مما يجتذب الأنظار أو يستلفت الانتباه ، لكن ' ؛ حديثا يطرب له المعز ولا يطرب له سواه الا قائده جوهر ؛بطل الصـ ـ ، . وكان قد أسكنه فى مدينته

واختصه بقصر من قصورها ، وبالغ فى اكرامه ورفع منزلته

وصل الى البركة والقمر قد تكبّد السماء ، فأسرع البستانى الى مقعد معد لجلوس الخليفة .. وكان أهل القصر فى تلك الساعة نياما حتى الخدم .. وانما أرّقه أمر شغل خاطره وأخذ بمجامع قلبه لم يكاشف به أحدا من أعوانه ، لأنه كان حريصا على سرّه لايطلع عليه أحدا الا اذا نضج وآن اخراجه الى حيز الفعل .. شأن رجال العمل وأهل الحزم .. على انه ضاق ذرعا فى تلك الليلة عن الاحتفاظ بذلك السر، فخطر له أن يكاشف به قائده جوهر

وكان المعز عالى الهمة ، عظيم الهيبة ، واسع المطامع ، بلغ الأربعين من عمره .. وقد لبس فى تلك الليلة رداء بسيطا أبيض اللون ، والتف بالعباءة ، وجعل على رأسه عمامة صغيرة . فلما جلس على المقعد ، صفّق ونادى «خفيف» وهو غلام صقلبى كان قد اختصه بخدمته فحضر ، فقال : « ادع قائدنا جوهرا »

فمضى « خفيف » ، وما لبث أن عاد ومعه جوهر .. وهو كهل فى السادسة والخمسين من عمره ، وقد وخطه الشيب ، وكان طويل القامة ثابت الجأش عظيم الهيبة . وكان حين ذهب اليه رسول المعز قد أوى الى فراشـــه ، فنهض وارتدى ثيابه وبادر الى لقاء مولاه . فلما شعر المعز بقدومه تحفز للنهوض ، ورحب به وبشّ له . . . فخجل جوهر من ذلك الاكرام فأكبّ على يدى الخليفة فقبلهما وقبّل ركبتيه ، وأوشـك أن يقبّل قدميه ، فأنهضه المعز ودعاه للجلوس بجانبه ، فجلس متـأدبا فبادره المعز قائلا : « مرحبا بقائدنا الحازم وحبيبنا الباسل »

فتأدب جوهر وقال : « اني عبد مولانا أمير المؤمنين ضارب بسيفه ، وأفديه بروحي »

قال المعز : « بل أنت سيفنا المسلول ، وحامي دولتنا .. واني لا أجلس بجوار هذه البركة وأرى السمك يسبح فيها الا ذكرت بلاءك فى سبيل الحق . ان هذا السمك يشهد بما لك من الأفضال على هذه الدولة . أليست هذه الأسماك من نسل ما حملته الينا من سمك البحر المحيط فى القلل يوم فتحت افريقيا وأخضعت قبائلها . اني لا أنسى يوم جئتنا بتلك القلل وفيها السمك من ذلك البحر العظيم اشارة الي ما أدركته من تلك الفتوح العظيمة التى لم يسبق اليها سواك ، فلا غرو اذا اختصصتك بصداقتي وفضلتك علي سائر بطانتي وأهلي »

فخجل جوهر من هذا الاطراء وقال : « العفو يامولاى انى لم أفعل شيئا الا باسمك .. وانما نصرني الله بك لأنك سلالة أحق الناس بالخلافة ابن عم الرسول صلى الله عليه وسلم وصهره .. أنت ابن فاطمة الزهراء فكيف يعلى عليه »

فأسكته المعز قائلا : « ان الحق لا يعلو دائما ، وكم ظل أجدادى العلويون يجاهدون ، وقد ذاقوا أنواع العذاب ممن استأثر بالسيادة دونهم . ولو أتيح لهم سيف مثل سيفك لغلبوا .. ألم تفتتح هذه البلاد من هنا الى البحر المحيط ، وأخضعت أهلها .. بارك الله فيك .. وهذا ما لاريب فيه ، فاذا رفعنا منزلتك فقد أعطيناك حقك .. » وسكت وقد بدا الاهتمام فى وجهه وجوهر ينتظر ما يبدو منه ، لاعتقاده انه لم يَدْعُه

فى تلك الساعة الا لأمر هام .. فاعتدل فى مجلسه وتوجه بكليته نحوه ، كأنه يستفهم عما يريده ..

أما المعز فمد يده وأخرج من تحت العباءة قضيبا من عود طوله شبر ونصف شبر مكسو بالذهب . فلما رآه جوهر ، أدرك انه قضيب الملك ، فتأدب احتراما له .. فابتدره المعز قائلا : « أليس هذا قضيب الملك يا جوهر ؟ »

قال جوهر : « نعم يامولاى .. انه قضيب الحق ، وصاحبه صاحب الخلافة الحقة »

قال المعز : « هل يكون فى الدنيا خليفتان على حق ؟ »

فأدرك جوهر انه يشير الى ان خلافة العباسيين فى بغداد على غير الحق ، وفهم ما وراء ذلك من الأمور .. فقال : « كلا ياسيدى ، ان النبى واحد وخليفته واحد »

قال المعز : « الى متى نترك أولئك القوم فى غيهم ؟ »

فأجاب جوهر على الفور : « نتركهم حتى يأمر مولانا أمير المؤمنين »

فأكبر المعز هذا الجواب الدال على حزم جوهر وتفانيه فى سبيل نصرة العلويين ، فابتسم وقد أشرق وجهه ، وكان القمر مواجها له بحيث يظهر ذلك لجوهر وقال : « بارك الله فيك ، هذا ماكنت أرجوه منك وقد جال هذا الفكر فى خاطرى منذ أعوام ، وأنا أتردد فيه ، أستطلع المنجمين ولا أبوح به لأحد حتى اذا كانت الليلة رأيت أن أسره اليك ، وكنت أحسبه جديدا عليك فاذا أنت أكثر تفكيرا فيه منى . أما وقد اطلعت على سرى

وأنت الوحيد الذى اطلع عليه منى ، فأرجو أن تشير علىّ »

قال جوهر : « ليس لهذا العبد أن يشير ، وانما عليه أن يطيع .. فوالله لو أمرتنى أن أركب الأسنة وأذهب فى الأرض فاتحا لفعلت لعلمى انى ذاهب فى نصرة الحق »

قال المعز : « لله درك من قائد باسل وصديق حميم . ولكن الأمور مرهونة بأوقاتها .. فالآن اكتم ما دار بيننا واخبرنى عن رأيك فى قوادنا »

قال جوهر : « انهم نعم الرجال .. يتفانون فى نصرة مولانا ، ولا سيما شيوخ كتامة ، فانهم قاموا بنصرة أمير المؤمنين خير قيام وعليهم المعول فى أمرنا »

— ٤ —

أبو عبد الله الشيعى

فسكت المعز برهة وعاد الى الاهتمام ، وأخذ يلاعب قضيب الملك بين أصابعه وهو يتأمله ثم قال : « ولكننى أخاف عليهم الجنوح الى الترف ، فيأخذهم ما أخذ أعداءنا فى بغداد من أسباب المدنية حتى صاروا الى ما صاروا اليه من الذل ، فغلبهم مواليهم الأتراك والديلم ولم يتركوا لهم من الخلافة الا اسمها . ولا أخفى عنك انى لم أطمع فيهم الا حين بلغنى من ترفهم وانهماكهم واسترسالهم فى الملذات ، فاذا أصاب رجالنا ما أصابهم صرنا الى مصيرهم »

قال جوهر : « ليس هذا ما أخشاه ياسيدى ، فان توسد

بعيدون عن الترف . وكيف نخشى عليهم من ذلك وهم يرون أمير المؤمنين ابن بنت الرسول يتولى الدولة بنفسه .. يجلس فى برد الشتاء على اللبود وعليه جبّة وحوله أبواب مفتحة تفضى الى خزائن كتب ، وبين يديه دواة وكتب ، لا يأكل ، ولايشرب ، ولا يتقلب فى الديباج والحرير والفنك والسمور والمسك والخمر كما يفعل أرباب الدنيا (١) .. كيف يرونه فى مثل ذلك لا يفضل أحدا منهم فى أحوالهم ، بل هو مشغول بكتب ترد عليه من المشرق والمغرب ، يجيب عنها بخطه ، لا يشتغل بشىء من ملاذ الدنيا الا بما يصون أرواحهم ويعمر بلادهم ، ويذل أعداءهم .

ثم تخشى عليهم الانغماس فى الترف ؟ »

فأعجب المعز بما سمعه منه فقال : « ان هذا لايكفى يا أبا الحسين .. انى أخاف على رجالى الاستكثار من النساء ، انى لأرى للواحد منهم أن يقتنىغير امرأة واحدة لئلا يتنغصعيشهم ويعود الضرر عليهم ، وتنهك أبدانهم وتذهب قوتهم . وكثيرا ما أوصيتهم بذلك ليقرب الله منا أمر المشرق كما قرب أمر المغرب»

قال جوهر : « ان سهر مولاى على دولته بمثل ما تقدم كفيل بالنجاة من الوقوع فيما نخشاه ، ولكننى أخشى .. » وسكت وهو يتشاغل باصلاح عمامته وخماره

فلاحظ المعز فى وجهـه شيئا يكتمه ، فقال : « وما الذى تخشاه يا جوهر ؟ .. قل .. »

قال جوهر : « أخشى الدسائس السرية »

---

(١) المقريزى ــ الجزء الاول

قال المعز : « وماذا تعنى ؟ أى الدسائس ؟ »

قال جوهر : « أخشى قوما لا نعرفهم ولا نعرف نياتهم »

قال المعز : « من تعنى ؟.. كيف نخشاهم ونحن لا نعرفهم ؟ »

قال جوهر : « لو عرفتهم لبددت شملهم ، ولكننى أتوسم خطرا من جماعة يزعمون انهم موتورون .. لا أعرف من هم ، ولكننى أتنسم رائحة ذلك من بعض الأحاديث »

قال المعز : « صرّح يا جوهر .. انك فى مأمن »

قال جوهر : « ألا تعلم ياسـيدى ما أصـاب أبا عبد الله الشيعى الذى قام بالدعوة فى أول أمرها ، ومهّد الدولة لجدك المهدى رحمه الله ؟ »

فلما سمع اسم أبى عبد الله تغير لونه ، ولكنه أظهر الاستخفاف وقال : « أظنك تعنى ان ذلك الرجل قتل مظلوما »

قال جوهر : « لا أعنى ذلك ولكن بين أصحابه الذين أعانوه فى نصرة دعوة مولانا الملك من يتوهم انه ظلم ، لأنه جمع القبائل لنصرة مولانا .. ولما استتب له الأمر قتله وقتل أخاه أبا العباس . أما أنا فأعتقد انه قتل بعد أن تغيرت نواياه وطمع فى الأمر لنفسه ، فلا بد أن يكون لأصحابه مطمع فى افساد أمرنا وان كنت لا أخشى فوزهم . ولو سألتنى عن واحد منهم لاعترفت بأنى لا أعرف أحدا ، وانما هو سوء الظن لابد منه فى مثل هذه الحال »

فاعتدل المعز فى مجلسه وقال : « صدقت ولكن لاخوف من ذلك ، غير انى أسمع ان ذلك المقتول كان عنده مال خبأه فى مكان لا أعرفه .. وقد تعجل جدى فى قتله قبل معرفة موضع

هذا المال . لقد سمعت انه مال كثير .. ولا يخفى عليك شدة الحاجة الى المال فى هذه الأحوال »

قال جوهر : « نعم ياسيدى ، سمعت بخبر المال المخبأ .. لكننى لا أعرف مكانه .. ولو عرفته لأخرجته ، ولا يبعد انه قد تبعثر ، وسأوالى البحث عنه »

قال المعز : « ومع ذلك لا يهمنا المـال ، وعندنا صنـاديق منه قد غاب عنى ترتيبها لكثرتها .. وقد ادخرتها للقيام بذلك العمل ، لعلمى ان أعداءنا قد أصابهم الفقر حتى تغيرت قلوب الناس عليهم .. »

قال جوهر : « صدق مولاى ولكني أرى مع ذلك أن نحتاط ونسىء الظن حتى برجالنا وأمراء القبائل البربرية ؛ ولا سيما الذين كانوا حكاما وعرفوا الدسائس .. أخص منهم حمدون صاحب سجلماسة ، فان هذا الرجل حاربناه وهو صاحب دولة ، فأخضعناه وسـلم لكنى أحسبه مكرها ، فاذا رأى مولاى أن نقيده برهن كان ذلك أقرب الى الصواب »

قال المعز : « وما هو الرهن ؟ »

قال جوهر : « لهذا الأمير ابنة اسمها لمياء ، هو شديد التعلق بها ، وشاهدت منها فى أثناء حربنا معه بسالة وأنفة لم أعهدها فى فتاة قبلها ، فقد كانت تحارب كأكبر القواد على جواد من خير الجياد. ولم نستطع القبض عليها الا بعد جهدكبير ، وقد أراد الفارس الذى قبض عليها أن يتخذها سبية فمنعته وأنقذتها من السبى وأكرمتها .. ولا ريب ان والدها يحبها ويتمين بها ، فاذا

اتخذناها رهنا على تصرفه فى طاعتنا لا يقدم على الخيانة »

قال المعز : « قد رأيت حسنا .. وأين هى الآن ؟ »

قال جوهر : « هى فى فسطاط أبيها المعروف فى هذا السهل خارج القيروان »

قال المعز : « ولكننى أخشى أن تثير فى نفسه الحقد اذا طلبناها منه الآن »

قال جوهر : « لاخوف من ذلك ، فانى أطلبها منه لتكون مكرمة معززة فى قصر أمير المؤمنين ، فى خدمة أم الأمراء (زوجة المعز) وهذا شرف لا يتأتى لأحد سواه ، وأنا على يقين ان مولاتنا أم الأمراء سترتاح الى رؤيتها .. فان فى وجهها مهابة وجمالا مع تعقل وبسالة ، وقد تحققت مع ذلك انها من أشد الناس غيرة على دعوة الحق فانها تجل الامام على وتنصرشيعته ، مما لم أره فى سواها من جماعة البربر كافة .. ومن جهة أخرى أرى أن نصاهره فنكتسب تأييد حزبه »

قال المعز : « وكيف ذلك ؟ »

قال جوهر : « سأجعل القصد من نقل ابنته الى قصر أم الأمراء انى أريد أن أتخذها زوجة لابنى الحسين . وهو بلا شك سيكون سعيدا بهذا الزواج ، فنكسب الفتاة ونكسب قلب أبيها »

قال المعز : « حسنا .. افعل بارك الله فيك ، ولا حرمنا من سعيك الحميد » وتزحزح الخليفة فنهض جوهر واستأذن فى الانصراف

— ٥ —

حمدون

خرج جوهر من حضرة المعز .. وقضى بقية ليلته يفكر فيما سمعه ، وكان شديد الاهتمام بأمور الدولة ، كثير الغيرة على الدعوة العبيدية . وكان ما لمّح به للمعز عن الدساسين شيعة أبى عبد الله الشيعى حقيقة وليس وهما .. ولكن تلك الأحزاب لم تكن تستطيع الظهور لتغلب القوة ، فهى تتربص فرصة للوثوب على الدولة .. وكان يخاف صاحب سجلماسة على الخصوص ، لأنه صاحب سطوة وله حزب كبير ، وهو مجازف لا يقدر العواقب . فرأى من حسن السياسة أن يقيده بالرهن على تلك الصورة ، ثم يقربه بالزواج فيخطب ابنته لابنه فيكتسب ثقته ومساعدته أو يتخلص من شره على الأقل

ولم يكن صاحب سجلماسة يشعر بشىء مما فى خاطر جوهر عليه ، بل كان يحسبه فى غفلة عن حركاته وخطواته ، ففى صباح ذلك اليوم جاءه غلام جوهر يدعوه اليه فى قصره بالمنصورية فبادر الى ذلك . وكان حمدون هذا كهلا طويل القامة دقيقها ، أسود العينين غائرهما لا تستقر حدقتاهما على حال . ولم يكن عنده من الأولاد غير لمياء . وماتت والدتها فتزوج غيرها ، وترك تربية الابنة الى رجل من خاصته كان شديد التشيع لأهل البيت .. فنشأت على ذلك . وأما حمدون فلم يكن تشيعه الا ظاهريا جريا مع تيار القوة . ولو ترك لنفسه لاختار أن يكون

مهديا يدعو الناس الى نفسه ، اذ كانت مطامعه أعلى مما يخطر للبشر على بال . وكان قد همّ أن يدّعى المهـدويه وهو فى سجلماسة ، ولكنه غـُلِبَ على أمره وقيّد أسيرا الى القيروان، فأظهر الطاعة على غل .. وشعر جوهر بشىء من ذلك كما رأيت

ولم يكن حمدون ـ مع سعة مطامعه ـ من أهل الدهاء ، لكنه كان اذا خطر له أمر بادر الى تنفيذه لا يبالى بما قد يكون فى سبيله من الخطر. وكان قد نال عرش سجلماسة بالارث من أجداده ، وعمل فى خدمته شيخ اسمه أبوحامد ، زعم أنه من أهل الكرامة ، نزل عليه منذ أعوام ومعه شاب جميل الصورة اسمه سالم ، قال انه ابن أخيه ، وهو فارس شجاع .. نزل كلاهما فى دار صاحب سجلماسة وهو فى ابان امارته . وكان سالم يرى لمياء وهى تذهب وتجىء أو تركب الجواد ، والبربر أقل حجبا لنسائهم من سائر المسلمين ، فوقعت من نفسه موقعا جميلا وتعارفا وتحابا ، فتقدم أبو حامد الى حمدون يخطب لمياء إلى ابن أخيه سالم فوافق .. وقبل أن يحين موعد الزواج أتى جوهر القائد بجيشه وفتح سجلماسة ، وأسر أميرها وأهله وفى جملتهم لمياء وأبو حامد ، ولم يقفوا لسالم على خبر فظنوه قتل فى المعركة ، فبكته لميـاء وهى فى ريب من أمره

أما حمدون فكان يعتقد ان سالما قتل لامحالة ، وكان قد شاهد شبحا مثله ملقى فى أرض المعركة أثناء القتال . ولم يمض على قيامهم من القيروان أيام قليلة حتى خطر لجوهر ما خطر له ، فبعث اليه فى ذلك الصباح .. فأتى الى القصر وحده فبالغ فى

اكرامه والترحيب به ، وهو لا يعلم سبب هذا الاكرام . ثم قال جوهر : « هل تعلم لماذا دعوتك أيها الأمير ؟ »

قال حمدون : « كلا ياسيدى .. »

قال جوهر : « أنت تعلم اننا كنا بالأمس أعداء يستحل أحدنا دم الآخر ، فصرنا الآن اخوانا تتعاون على نصرة الحق وخدمة أمير المؤمنين ، وأحببت أن تزيد تلك الروابط متانة فأرجو أن توافقنى على ذلك »

فلم يفهم حمدون قصده ، لكنه بادر الى الثناء على هذه الرغبة فقال : « ان ذلك غاية مناى ، وفيه شرف لى .. »

قال جوهر : « لا شرف ولا تشريف .. هل تعرف ولدنا الحسين ؟ »

قال حمدون : « نعم أعرفه .. حفظه الله »

قال جوهر : « وأنا أعرف ابنتك لمياء .. وقد شهدت منها فى أثناء حربنا ما حبب الىّ أن تكون زوجة لابنى الحسين ، وأنت تعلم مقدار حبى له .. فبهذا المقدار سيكون حبى لها »

فلما سمع حمدون ذلك الطلب أطرق هنيهة يفكر ، ثم أبرقت أساريره .. ليس رغبة فى الشرف الذى سيناله من مصاهرة أكبر قواد المعز الفاطمى ، ولكنه توسم من ذلك عونا على أمر قام فى نفسه فقال : « ان مثلى يامولاى لايطمع فى مثل ذلك فكيف بأكثر منه »

فأثنى جوهر على قبوله وقال له : « لكننى زيادة فى رفعة قدرها أحب أن يكون العقد عليها فى منزل أم الأمراء زوج أمير المؤمنين ،

وخصوصا لأن لمياء يتيمة الأم ، فهل ترى بأسا فى ذلك ؟ »

فنهض وهو يظهر الامتنان وقال : « أى بأس أرى فيه ؟ انه شرف عظيم »

قال جوهر : « انى مرسل الساعة غلامى اليكَ فى الفسطاط فترسل معه لمياء الى دار أمير المؤمنين »

قال حمدون : «سمعا وطاعة» وخرج وقد أدهشه توفيقه الى فرصة طالما تمناها .. وسار توا الى صديقه أبىحامد ، فقصَّعليه مادار بينه وبينجوهر، وأظهر انه يستشيره فصاح فيه : «يعرض عليك أن تكون لك يد وعينان فى قصرالمعز وقائده وتستشيرنى؟! اقبل.. » قال ذلك وهو يحك ذقنه ليخفى ما خامره من الفرح بتلك البشارة ، وله فى ذلك غرض يشبه غرض حمدون

فقال حمدون : « لم أتردد فى قبول ذلك الطلب لحظـة .. ولكننى توقفت أولا لأن ولدنا سالما أولى بها و . . . »

فقطع أبو حامد كلامه قائلا : « دع سالما الآن انه بعيد ولا ندرى متى يعود »

فاطمأن حمدون اذ ظهر له من ذلك القول ان سالما لايزال حيًا وكان يحسبه قد قتل فقال : « وأين سالم الآن ؟ »

قال أبو حامد : « ليس قريبا .. وسأخبرك بمكانه . أما الآن فلا ترفض ما عرضه عليك القائد الفاتح .. » وتنحنح

فذهب حمدون للحال وقص الخبر على ابنتـه وحسَّن لها الذهاب ، فامتنعت فى بادىء الأمر لأنها كانت تحب سالما .. فأكد لها ان سالما قتل أو هرب ولا أمل فى رجوعه . ونظرا لما يعلمه

من تعلقها بأهل البيت ، ضرب لها على وتر الدين فقال : « انك تكونين هناك قرب أمير المؤمنين ابن بنت الرسول »

فرضيت وذهبت مع الرسول الى المنصورية حتى بلغت قصر المعز ..

— ٦ —

لمياء فتاة القيروان

وكان المعز قد بات تلك الليلة وقد هدأت نفسه ، بعد ما دار بينه وبين قائده من الحديث . وفى صباح اليوم التالى قام بفروض الصلاة ، ثم ذهب الى العمل ، وبينما هو جالس فى ديوانه ينظر فى أعماله ويقرأ كتب العمال ويجيب عليها بنفسه اذ جاءه غلامه خفيف الصقلبى واستأذنه فى كلمة فقال : « ما وراءك ؟ »

قال خفيف : « ان مولاى القائد بعث فتاة قال انها لقصر مولانا .. »

فقال المعز : « ادخلها .. أين هى ؟ »

فدخلت الفتاة وهى تنظر الى ما فى القاعة من صناديق الكتب ، وليس فيها غير الخليفة وكاتب . وكانت لمياء طويلة القامة أشبه فى مشيتها بالرجال منها بالنساء مع جمال وهيبة .. سمراء اللون كبيرة العينين ، اذا نظرت فيهما توهمت أنهما تخاطبانك بصيغة الأمر .. مقوسة الحاجبين متناسبة الملامح ، غليظة الشفتين قليلا عريضة الوجنتين ، مما يدل على القوة .. حول رأسها عصابة تدلت منها خيوط فى أطرافها كرات من الذهب ، أو قطع أخرى من المصوغات ، وقد أرسل شعرها على كتفيها متجعدا وأحاط

به رداء كالخمار ، عقد فى أعلى الصدر بعروة من الذهب .. وحول عنقها عقود جميلة

فلما وقع نظر المعز عليها لم يتمالك عن الاعجاب بها ، وخصوصا بعد ما سمعه عنها من قائده ، فاستدناها وهش لها تلطفا وقال : « تقدمى يا فتاة ، ما اسمك ؟ »

قالت : « لمياء يا أمير المؤمنين »

قال المعز : «لعلك ابنة نصيرنا صاحب سجلماسة ؟ »

قالت لمياء : « نعم يامولاى .. »

قال المعز : « وهل سرك أن تكونى فى قصرنا ؟ »

قالت لمياء : « هذا شرف لا أستحقه » وابتسمت بامتنان

قال المعز : « بل أنت أهل لأكثر من ذلك .. لعلك متزوجة ؟ »

فلما سمعت سؤاله أطرقت ، وظهر الخجل على محياها .. ولم تجب ..

فعلم أنها عذراء فاكتفى بذلك الجواب ، وقال لها : « اذهبى مع غلامنا هذا الى أم الأمراء ؛ فانى أوصيتها بك خيرا ، وستحسن وفادتك .. ولكنى أرجو أن تكونى حسنة الاعتقاد بنا »

فرفعت بصرها نحوه وقالت : « اذا كنت تعنى غير الاعتقاد بصحة خلافة آل البيت فلا .. »

فأعجب بصراحة جوابها وقال : « انك لنعم الفتاة العلوية لولا ما أراه من كثرة الحلى على رأسك وصدرك ، فاننا لا نؤمن بالجنوح الى شىء من أسباب الترف »

ولم يتم كلامه حتى أسرعت بيدها الى رأسها وصدرها ،

ونزعت ما كان عليهما من الحلى والعقود ورمت بها الى الأرض وقالت : « لم أكن أعلم بذلك ياسيدى .. وقد كان لى بما شاهدته من بساطة ردائك عبرة وعظة .. هذه جواهرى أرميها تحت قدميك »

فازداد المعز فرحا بها ، وابتسم لها ابتسام الرضا والاعجاب وقال : « بورك فيك .. انك ستنالين أضعاف ما نزعته من الجواهر ، فضلا عن سرور أم الأمراء بك » وأشار الى الصقلبى فخرج معها ، وعاد المعز الى عمله ..

— ٧ —

أم الأمراء

وكانت أم الأمراء امرأة عاقلةحكيمة ، ذات مبرات وحسنات ، ولها رأى وحزم . وكثيرا ما كان المعز يباحثها ويستشيرها ، وكان قد أخبرها فى ذلك الصباح عن لمياء وأوصاها بها

دخلت لمياء قصر أم الأمراء ، ولو كانت ممن دخل قصور الأمراء فى مصر أو بغداد فى ذلك العهد لحسبته منزل الخدم .. لأنه كان من البساطة بحيث يقرب من حال البداوة .. تلك كانت سياسة المعز خوفا من عواقب الترف ، لعلمه أن الترف والرخاء من أكبر العوامل فى سقوط الدولة .. كما علمت من كلامه لقائده

وكانت أم الأمراء جالسة فى غرفتها على بساط من السجاد بلا وشى ولا تطريز ، وعليه مساند من الديباج البسيط .. وقد لبست ملابس بسيطة واتشحت بمطرف ، وأرسلت شعرها

مضفورا بأبسط مايكون .. فسرت لمياء لتسرعها فى نزع حليها قبل الدخول على تلك الأميرة . فتقدم خفيف الصقلبى أولا ، فأنبأ أم الأمراء بمجىء لمياء .. فأمرتها أن تتقدم فتقدمت ، ولم يقع نظر لمياء على أم الأمراء حتى استأنست بها ، كأنها ربّيت فى منزلها ، وأشارت اليها أم الأمراء أن تجلس فجلست متأدبة ، وانصرف خفيف فقالت أم الأمراء : « أهلا بالضيفة الجديدة »

فقالت لمياء : « أشكرك ياسيدتى على هذا اللطف .. انما أنا جارية فى قصرك »

قالت أم الأمراء : « بل أنت ضيفة مكرمة ، فان قائدنا جوهر أثنى كثيرا على أدبك وتعقلك ، وقال انه لم يرض لك بالعبودية فأطلق سراحك »

قالت وهى تنظر فى البساط مبالغة فى التأدب : « ان ذلك فضل كبير له ، لا أنساه طول العمر .. أما فضل مولاتى زوج أمير المؤمنين فاننى أعجز عن التعبير عنه .. »

فتجاهلت أم الأمراء عند سماع ذلك الاطراء ، وغيرت الحديث فقالت : « لم أفعل شيئا بعد .. ولعلى أستطيع أن أفعله فى المستقبل ، اذ يكون لك قصر مثل هذا القصر تعيشين فيه آمرة ناهية .. لأن مثلك ينبغى أن يكون لها أحسن نصيب من كبار الرجال »

ففهمت لمياء انها تشير الى رغبتها فى تزويجها من أحد الأمراء ، فلم يعجبها ذلك لأنها متعلقة القلب بسواه .. فبدا ذلك فى وجهها وتساقطت من عينيها دمعتان تدحرجتا على خديها ، فمسحتهما

بكمها وهى تبتسم اخفاء لما ظهر من عواطفها ، فأدركت أم الأمراء ذلك فبادرتها قائلة : « يظهر انك مشغولة القلب بسوانا ؟ »

فلم تتمالك لمياء عن البكاء وهى تخجل من بكائها ، فغطت وجهها بيديها ، وكأنها استضعفت نفسها وأنفت من ظهور ضعفها ، فتجلدت وتشاغلت بالابتسام وهى تنظر الى أم الأمراء والدمع يتلألأ فى عينيها .. فشاركتها أم الأمراء احساسها ، وأرادت استطلاع حقيقة حالها لعلها تنفعها فى شىء ، فدنت منها وهى تظهر الاهتمام بها وقالت : «لايشق عليك تعرضى لك فى أمر تريدين كتمانه ، وانما أردت أن أباسطك . ونظرا لما توسمت فيك من اللطف أردت أن أكرمك بأحسن رجالنا ، والظاهر انك مشغولة الخاطر بسواه . ألا تجدينني أهلا لثقتك فتطلعينى على سرك ، وان كانت هذه أول مرة رأيتنى فيها ؟ »

فغلب الخجل على لمياء ، وقالت : « العفو ياسيدتى .. انك تتنازلين كثيرا فى مخاطبتى ، وما أنا أهل لشىء من ذلك »

فأحست أم الأمراء انها ضايقتها فى الحديث لأول مقابلة ، فرأت أن تتركها على أن تعود الى هذا البحث فى فرصة أخرى فقالت : « بل أنت خير لأحسن منه .. والآن يحق لك أن تستريحى » وصفقت فأتتها قيّمة الدار ، فأمرتها أن تعد غرفة خاصة للضيفة ، وأن تساعدها فى تبديل ثيابها وتؤانسها .. فنهضت لمياء ومشت مع القيّمة ، وقد تنبهت عواطفها وهاجت أشجانها

فأخذتها القيّمة الى غرفة من القصر تطل على الحديقة التى فيها البركة من ناحية ، وعلى المسجد الجامع من جهة أخرى ، وساعدتها

فى بديل ثيابها ، فألبستها ثوبا من أثواب الأميرات ، وهو مع ارتفاع ثمنه بسيط فى زيّه بلا زركشة ولا تأنق.. وقد أعجبت لمياء بكل ماشاهدته هناك من أدلة البساطة والجنوح الى العمل . وقلما وجدت شيئا يراد به الزخرفة فقط . مع ان قصر أبيها فى سجلماسة لم يكن يخلو من الترف والرخاء يقلد بهما حضارة بغداد أو مصر أو الأندلس ، فيأتى من كل منها بأفخرمصنوعاتها.. وأما المعز فكان يميل الى التمسك بالبساطة والبعد عن الترف

— ٨ —
المناجاة

ولما خلت لمياء فى تلك الغرفة راحت تستعيد ما مر بها من الأحداث فى ذلك اليوم.. لقد باتت أمس فى فسطاط أبيها خارج القيروان ، وهى الآن فى قصر الخليفة المعز لدين الله معززة مكرمة . وتذكرت أن المعز من نسل الامام علىّ وفاطمة الزهراء ، فاختلج قلبها من الفرح لما تحقق لها من التقرب من ذلك الدم الطاهر والشرف العظيم . ومشت الى شرفة مطلة على الحديقة ، ولم تكد تجلس حتى تقاذفتها الهواجس ، وتذكرت خطيبها سالما ، وكانت قد أحبته ووطنت النفس على أن تتزوجه .. فلما آن وقت العقد أخذت أسيرة مع أبيها ، ولم تعد ترى سالما ولاعلمت أين هو.. وكانت تعلم من أسراره ما لايعرفه عمه ، وكان فيما أطلعها عليه من أغراضه أمور تنكرها عليه ، ولا يعلم عمه أبوحامد باطلاعها على تلك الأسرار .. ولعله لو علم لم يسمح بتقربها من المعز

فأطرقت حينا وهى غارقة فى التفكير ، وجعلت تناجى نفسها قائلة : « أين أنت ياسالم .. لا.. لا أصدق انك قتلت .. لا.. لم تقتل بل أنت مختبىء أومتنكر.. أولعلك تفكر فى ذلك الأمر.. ليتنى أستطيع أن أراك ، لأطلعك على أمور تهوّن عليك العدول عن عزمك .. وأتخلص مما يعرضـــونه علىّ .. انى لا أحب الزواج الا بك لأنى لم أحب سواك ، ولكننى مع ذلك لا أوافقك على عزمك لأن فيه خطرا .. آه أين أنت ؟ »

وبينما هى فى ذلك ، اذ سمعت حركة وحديثا فى الحديقة .. فتحول تفكيرها نحو ما ســمعت .. وجلست تتوقع أن ترى أحدا ، وكانت قد ضفرت شعرها ضفيرتين جانبيتين ، ولفّت رأسها بخمار كبير كالحبرة يغطى كتفيها وجنبيها . وما لبثت أن سمعت خفق نعال على مقربة من النافذة ، فتراجعت وهى لاتزال تنظر نحو الحديقة . واذا هى برجلين عرفت منهما القائد جوهر وبجانبه شاب فى مقتبل العمر ، يظهر من ملامحه انه ابنه الحسين ، وتذكرت ما قيل لها عن رغبته فيها ، فأحست بنفور وانزوت مخافة أن يقع نظره عليها ..

أما جوهر فكان ماشيا وعليه الجبة والقفطان ، وفوق رأسه العمامة الصغيرة وحولها الخمار وقد تقلد السيف . وفى مشيته ووثبات قدميه ما يدل على انه قائد عظيم ، وأما ابنه فكان فى مثل ملابسه ، لكنه لايزال يانعا ، وفى محياه نضارة الشباب مع هيبة القواد ، والبسالة بادية فى عينيه وجبينه

ولاحظت لمياء ، وهى منزوية ، أن الحسين بن جوهر حين

اقترب من غرفتها ، التفت كأنه يلتمس أن يرى أحدا .. وسمعت أباه يقول له بصوت منخفض : « لا شك انك لو رأيتهــا ما تمالكت عن الاعجاب بها لأنها جمعت بين مهابة الرجال ولطف النساء»

فقال الحسين : « انى لا أراجعك فى شىء تراه .. وأنت أعلم منى وأوسع اختبــارا ، لكننى لا أثق بأبيها ، ولا أظنك تجهل ما فى خاطره و . . . »

وكانا يتكلمان وهما ماشيان ، فلم تسمع لمياء من حديثهما الا نتفا فهمت منها انهما يتحادثان بشأن خطبتها له ، فوقعت فى حيرة وخافت أن يطلب منها الزواج وهى متعلقة بسالم ، وان كانت لا تعرف مقره ..

وكانت لمياء مع بسالتها وقوة بدنهــا قوية العواطف ، اذا أحبت تمكن الحب من قلبها حتى يشغلها عن كل شاغل ، لاسيما وان سالما كان أول شاب عرفته وأحبته ..

ثم عادت فسمعت جوهرا يخاطب ابنه ، وقد عادا من حيث أتيا وأتما الحديث ، فأصغت لعلها تسمع تتمة الكلام فسمعت جوهرا يقول : « ان معاملة هؤلاء بالحسنى أولى بنا وأقرب الى جمع القلوب.. وصاحب سجلماسة من أحق الأمراء بذلك .. » ثم انقطع الحديث من البعد ، فأصبحت لمياء أشد رغبة فى الاطلاع عليه فأصغت لسماعه عبثا . فجلست وهى تصلح خمارها وتعمل فكرتها واذا هى تسمع لغطا فيه صوت أبيها ، فأجفلت ثم رأت أباها وجوهرا ماشيين ، وجوهر يحتفى بحمدون ويلاطفه . ومن قوله له : « لاريب ان مولانا المعز يقدر صاحب سجلماسة حق

قدره ، وطالما ذكرك فى غيابك وأثنى على علو همتك »

فقال حمــدون : « نحن نفتخر بقيامنا بنصرة ابن فاطمة الزهراء »

ثم بَعُد الصوت ، وعلمت لمياء من هذا الحديث أن أباها وجوهرا ذاهبان الى المعز فى زيارة ، وربما كان ذلك بشأنها . فاشتغل خاطرها لئلا يعدهما أبوها بها ، أو يوافق على خطبتها للحسين وهى لا تريد .. فخرجت من غرفتها وهى تود أن تحضر تلك الجلسة لتعلم مايدور بين أبيها وبين المعز بشأنها. ولكنها لم تجد وسيلة الى ذلك الا على يد أم الأمراء ، وكانت تسمع بمشاركتها زوجها فى الآراء أحيانا ، حتى انها كثيرا ما كانت تحضر مجالس المداولة من وراء ستار (١)

ـ ٩ ـ

لمياء وأم الأمراء

وكانت أم الأمراء قد أعجبت بلمياء كل الاعجاب ، وأحبتها من كل قلبها . وكذلك لمياء فانها أحبت أم الأمراء واستأنست بها ، كأنها تعرفها منذ أعوام ، وقد هان عليها أن تكاشفها بما يكنه قلبها ، وتستشيرها فى أمرها وتستعين بها فى حاجتها .. فذهبت تطلبها فى غرفتها فلم تجدها فلقيت حاضنتها.. وهى امرأة رومية الأصل أتى بها المعز من صقلية ــ حين دخلت فى حوزته ــ فى جملة نساء حملهن للخدمة وتدبير المنزل . وقد استلطفتها لمياء

(١) المقريزى ــ الجزء الاول

ورأت منها ميلا نحوها ، فسألتها عن أم الأمراء فقالت : « قد ذهبت فى مهمة ، وستعود قريبا » ودعتها للجلوس

فجلست وخاطرها مشغول بمسير والدها الى المعز مع جوهر، فأحبت أن تشغل نفسها ريثما تأتى أم الأمراء فقالت للحاضنة : « ياخالة يظهر لى من ملامحك انك لست من أهل هذه البلاد ؟ »

قالت الحاضنة : « صدقت .. انى من صقلية ياسيدتى »

قالت لمياء : « فأنت اذن رومية الأصل ؟ »

قالت الحاضنة : « نعم .. وأفتخر بأنى من نفس البلد الذى منه أكبر قواد أمير المؤمنين »

فعلمت انها تعنى جوهر القائد ، فقالت : « وهل القائد جوهر من صقلية أيضا ؟ »

قالت الحاضنة : « نعم ياسيدتى انه من نفس ذلك البلد .. ألا يحق لى أن أفتخر به ؟ »

قالت لمياء : « كيف لا ؟ وهو موضع فخر أهل هذه الدولة . نصره الله على أعدائه »

وبينمـا هى فى ذلك ، اذ جـاءت أم الأمراء وهى تمشى بنشاط .. لا تتثاقل تثاقل أهل الترف .. فتراجعت الحاضـنة وخرجت . ووقفت لمياء وهى تبتسم وتنظر الى أم الأمراء نظرة شاكر مبتهج ، فأجابتها تلك بمثل ذلك وأمسكتها بيدها على غير كلفة ، ودخلت بها الى مخدعها الخاص وهى تقول : « أحب أن أراك تستأنسين بى وأن تعتبرى نفسك ابنة لى »

فأكبت لمياء على يدها فقبّلتها ، ودموع الفرح تتساقط من

عينيها وقالت : « لقد غمرتنى بفضلك ياسيدتى .. فلم يعد فى امكانى القيام بواجب الشكر..كفى ، ان ذلك فوق ما أستحقه أو يخطر ببالى .. »

قالت أم الأمراء وهى تقربها من وسادة فى صدر الحجرة وتجلسها بجانبها : « انك أهل لأكثر من ذلك يا لمياء ، ولا فضل لى اذا أحببتك فانى لم أسمع أحدا ذكرك الا أعجب بك وبكمالك وهيبتك .. هذا قائدنا جوهر شديد الاعجاب بك ، وقد رغب فى تقريب والدك من أمير المؤمنين اكراما لخاطرك . وقد جاء به الآن وسيدخلان اليه ، ولاشك ان المعز سيحل أباك محلا رفيعا اكراما لقائده » وسكتت وبلعت ريقها وهى تنظر الى لمياء وتتأمل ملامحها وما يبدو منها ، فرأتها مصغية لايبدو على وجهها شىء من الاضطراب . فعادت الى اتمام حديثها فقالت : « وبلغ من افتتان قائدنا بك انه أحب أن يأخذك اليه ويجعلك ابنة له »

فظهرت البغتة على لمياء وأطرقت حياء ، فابتدرتها أم الأمراء قائلة : « لا أعنى أن تصيرى ابنة له دون أبيك ، بل هو ينوى أن يخطبك الى ابنه الحسين . هل رأيت هذا الشاب ؟ لا ينبغى أن تخجلى منى .. اتخذينى أما لك .. »

فتصاعد الدم الى وجنتى لمياء وأبرقت عيناها من التفكير وقالت : « أشكر لك هذا الاحسان ياسيدتى. نعم انى يتيمة الأم ولكننى فى حضن أم تتمنى كل فتاة أن تكون أمها .. نعم ينبغى لى أن أخاطبك بحرية ، أما من جهة رؤية الحسين بن جوهر فانى لم أره الا فى هذا النهار مصادفة وهو مار فى الحديقة مع أبيه »

فقطعت أم الأمراء كلامها قائلة : « لم يكن مجيئه عرضا ، ولكنه جاء عمدا ليرى الفتاة التى حدثه أبوه عنها .. وماذا تضمرين بعد ذلك ؟ »

فتنهدت لمياء وهمت بالكلام .. ولكن الحياء أسكتها ، فأدركت أم الأمراء انها تخفى شيئا من قبيل الحب .. والنساء يتفاهمن بلغات القلوب أسرع من تفاهم الرجال .. فقدمت لها مذبّة كانت فى يدها تروّح بها على سبيل المؤانسة ، وقالت لها : « لا ينبغى لك أن تستحى منى يا لمياء بعد ما أظهرته من حبى لك .. ويكفى دليلا على هذا الحب أن أسعى فى زواجك بأحسن شاب فى القيروان بعد أبناء الخليفة ، وهؤلاء يا لمياء لم يبلغوا سن الزواج بعد » وضحكت

فازدادت لمياء خجلا من هذا التلميح الممزوج بالتقريع على الكبرياء ، ولم تعد ترى باعثا على الحياء ، فتناولت المذبّة من يدها ثم أعادتها اليها بلطف وشكر وقالت : « لا تظنى ياسيدتى انى أجهل حقيقة قدرى ، أو انى لم أدرك مقدار فضلك فيما تعرضينه علىّ ، فاسمحى لى أن أصرح لك بحقيقة حالى .. انى ياسيدتى مخطوبة » وصبغ الحياء وجهها

لم تستغرب أم الأمراء قولها لأنها لاحظت ذلك عليها من قبل ، لكنها تجاهلت لتسمع منها هذا التصريح .. فأجابتها وهى تبتسم : « من هو ذلك الخطيب السعيد الذى حظى بك وما اسمه ؟ »

فخجلت من هذا الاطراء وقالت : « انه ياسيدتى شاب من

أصدقاء والدى عرفته فى سجلماسة ، وله عم كثير التودد لأسرتنا ، فخطبنى اليه واسمه سالم .. »

فقالت : « أين هو ؟ »

فأجابت لمياء وهى تهز كتفيها الى أعلى اشارة الانكار : « لا أدرى أين هو ، ولكننى أعلم انه كان فى جملة من شهد المعركة الأخيرة التى قادونى فيها ووالدى أسيرين .. ولست أعلم أين ذهب سالم .. »

فضحكت أم الأمراء وقالت : « يظهر انك تحبينه كثيرا حتى انك مع شكك فى وجوده لا تزالين ثابتة على محبته ! »

فتنهدت تنهدا عميقا وأطرقت وقد صبغ الحياء وجهها ولم تجب ، فتشاغلت أم الأمراء باصلاح ضفائر الشعر المرسلة على صدرها من الخمار وقالت : «قد يصح ذلك ، ولكن هل تحسبينه ثابتا على حبك لايفكر فى سواك ؟ ان هؤلاء الرجال لايركن اليهم .. ولا تظنى أن الحسين بن قائدنا جوهر يتأتى العثور على مثله فى جيل من الناس ، ومع ذلك فالرأى لك .. وأنا انما أردت أن أخبرك لأننى أحببتك و . . » قالت ذلك وبدت مظاهر العتاب فى عينيها ..

— ١٠ —

التصريح

وقد أثر ذلك التوبيخ فى نفس لمياء تأثيرا شديدا ورأت قولها معقولا ، ولكن قلبها لم يطاوعها على العمل به ولا طاوعها

عقلها على الرفض . وهي مع ذلك لا تعلم أين هو سالم .. ميتا أو حيًّا ، ولم تر منفذا من تلك الحيرة الا بالبكاء ، فجاشت خواطرها وهمت بالبكاء ، ثم أمسكت عواطفها تجلدا وسكتت وهي تبلع ريقها وتغالب نفسها ، وقد أطرقت لا تبدى حراكا .. وتظاهرت بأنها تتفرس فى جلد أسد مفروش هناك

فلم تبال أم الأمراء بسكوتها ، فأتمت كلامها قائلة : « ومع ذلك فقد سمعت أن قائدنا جوهرا يطرى شجاعتك وثباتك فى حومة الوغى .. فمالى أرى فيك هذا الضعف الآن ؟ »

. فلم تعد لمياء تستطيع التماسك ، فتنهدت تنهدا شديدا ورفعت عينيها الى أم الأمراء والدمع يتلألأ فيهما ، وجلست جثوا على سبيل التأدب وقالت وهي تغص بالكلام : « لقد غمرتنى بلطفك ياسيدتى .. انى لا أستحق هذه العناية ، نعم لا أستحق النعمة التى تعرضينها علىّ ، ولكننى .. آه .. لا أملك قياد قلبى .. سامحينى على التصريح لك . لقد رأيت من عطفك ولطفك ما يخولنى الدالة عليك ، وان خالفت العادة والطبع ، فانى يامولاتى لا أملك من قياد نفسى شيئا . نعم انى شجاعة فى الحرب لا أهاب لقاء الأبطال ، ولكننى مع سالم ضعيفة . لا أذكره الا وأشعر بانحلال عزيمتى وخفقان قلبى .. لعل ذلك ما يعبرون عنه بالحب ! وقد سألتنى اذا كان يحبنى ، فكيف يمكن أن لا يكون كذلك وأنا لا أرى للحياة قيمة بدونه» وعندما أتمت هذه العبارة انتبهت لنفسها وأحستانها تورطت فىالتصريح بما لايجوز لمثلها ، وانما غلبت عليها عواطفها فلم تملك امساك هواها .

وخجلت من أم الأمراء فحوّلت وجهها نحو الحائط ، وأخذت فى البكاء ، وقد بكت هذه المرة أسفا على ضعفها وتطلعا الى رؤية حبيبها سالم وهى لا تعلم أين هو ..

أما أم الأمراء فاستغربت تعلق لمياء بخطيبها ، ولم تكن تتوقع أن ترى منها ثباتا وشغفا الى هذا الحد . فلما آنست منها ذلك قالت : «يسرنى يابنية انك تحبين خطيبك الى هذا الحد فان المحبة من أكبر النعم . وأطلب الى الله أن يجمعك به ، واذا رأيت انى قادرة على مساعدتك فى ذلك فقولى لى . أما الحسين فانى أستمهله لنرى ما يكون .. اذ لا يعلم ما فى الغيب الا الله »

فهمّت لمياء بتقبيل يدها شكرا على صنيعها ، فأبت عليها ذلك وقبّلتها من رأسها ونهضت وهى تقول : « قد تعودت أن أذهب فى مثل هذه الساعة الى مقعد لى يشرف على قاعة أمير المؤمنين التى يقابل الناس فيها ، أطل عليها من وراء حجاب فأشهد مجلس الأمراء وأسمع مايدور بينهم..فانى كثيرة الاهتمام بشئون الدولة»

فأعجبت لمياء بعلو همتها ، وقالت : « سمعت بذلك عنك » ومالت الى مرافقتها فقالت : « وهل ترين بأسا من أن أكون معك ؟ »

فقالت أم الأمراء : «كلا.. بل بالعكس ، فانى أستأنس بك»

ومشتا فى الدهليز الى غرفة فى أحد جدرانها مقعد على دكة ، يُصعد اليه ببضع درجات ، وخلفه ستار يحجبه .. وفى الستار ثقوب اذا شاء الجالس أن يشرف على من فى القاعة من الكبراء رآهم وسمع أقوالهم .. فأمسكتها أم الأمراء بيدها حتى

أجلستها بجانبها على المقعد وقالت لها : « أنظرى من هـذا الثقب » فنظرت فاذا هى تشرف على مجلس الخليفة من أعلى الحائط بحيث ترى الجلوس هناك ولا يرونها

رأت قاعة واسعة قد فرشت أرضها باللبود البسيط ، وقد جلس المعز لدين الله فى صدرها على منصة كالوسادة الصغيرة ، وهو فى ملابس بسيطة بالنسبة الى سواه من الملوك والخلفاء .. على رأسه العمامة وعلى كتفيه برنس كالعباءة يغطى أثوابه .. وقد التف به ، وجلس جلوس من أتعبه العمل ، فتربع وألقى كوعه على فخذيه .. والى جانبه حسام مغمد ، وفى يمينه قلم ، وفى يساره ورقة من الكاغد ينظر اليها ، وكاتبه واقف أمامه ينتظر أمره ، فبعد أن تأمل الورقة وضع القلم بجانب دواة بين يديه ودفع الورقة الى الكاتب وأشار اليه أن يذهب . ثم تنفس الصعداء وقال : « اذا شاء الأمراء والمشايخ الدخول فليتفضلوا »

فلما سمعت أم الأمراء قوله قالت للمياء : « انه يدعو مشايخ كتامة وصنهاجة وهوارة ، وهم رجال دولته من أمراء البربر ، لعله يريد النظر فى أمر هام »

فسرّت لمياء لهذه الفرصة لترى كيف يعقد مجلس الملوك .. على انها ما لبثت أن رأت جماعة من المشايخ والأمراء دخلوا وألقوا التحية بصوت عال كالعادة . وأشار اليهم المعز فجلسوا على وسادات مثل وسادته محيطة بالقاعة . وجعلت لمياء تتفرس فيهم ، فرأت وجوها تعرفها من قبل ، ولما استقر بهم الجلوس جعل المعز يرحب بهم وهم يدعون له ثم قال : «قد تكبدتم المشقة فى

المجيء الينا ، وانما دعوتكم لأريكم حالى من العمل .. اذ قد يتصور بعض الذين لايعلمون أن الامامة من أسباب الراحة والتنعم والانقطاع عن العمل . نعم هى كذلك لمن شغلوا بالترف عن مصالح الدولة كما يفعل صاحب بغداد وصاحب قرطبة وأمراؤهم فى الأطراف ، لأن الدنيا شغلتهم عن الامامة الحقة .. فانغمسوا فى الملذات ، وتقلبوا فى الديباج والحرير والسمور والمسك والخمر مثل سائر أرباب الدنيا ..

« وأما أنا فقد أحببت استقدامكم لأريكم كيف ينبغى أن يكون الامام ، فانظروا الى هذا الكساء والجبة ، وها أنا ذا جالس على اللبود ، وهذه الأبواب مفتحة تفضى الى خزائن الكتب ، وأنا أشتغل بمكاتبة الأطراف بيدى لا ألتفت الى أمور الدنيا الا بما يرضى نفوسكم ويقمع أعداءكم .. فافعلوا ياشيوخ فى خلواتكم مثل ما أفعله ، ولا تظهروا التكبر والتجبر فينزع الله النعمة عنكم وينقلها الى غيركم »

فتصدى شيخ منهم ، هو أكبرهم سنا ، وقال : « ان أمير المؤمنين قدوتنا .. ونعم المثال هو »

فقال المعز : « اذا فعلتم ذلك يقرب الله منا أمر المشرق كما قرب أمر المغرب .. انهضوا رحمكم الله ونصركم »

فوقفوا وحيوه وخرجوا وقد امتلأت قلوبهم هيبة ، ولمياء تعجب لسرعة صرفهم .. وأدركت ذلك أم الأمراء ، فقالت : « لابد لسرعة صرفهم من سبب ، فقد تعودت أن أجلس هنا ساعات أسمع مباحثاتهم فى أهم الأمور »

ولم تتم كلامها حتى سمعت المعز يصفق وهو يقول : «خفيف» فحضر غلامه فقال : « ذكرت لى منذ هنيهة ان قائدنا يحب أن يرانا على حدة ، فأسرعنا فى صرف شيوخ كتامة لنتفرغ له.. ادعه»

فخرج الغلام وهمست أم الأمراء قائلة : « هذا هو السبب فى سرعة صرفهم .. ان جوهرا قادم اليه .. لله دره من رجل باسل »

فلما سمعت لمياء اسمه تذكرت انها رأته فى ذلك اليوم فى الحديقة مع أبيها ، وخطر لها انها رأته أيضا مع ابنه الحسين ، فخفق قلبها لأنها أصبحت تخشى أن تراه بعد أن دار ما دار بينها وبين أم الأمراء بشأنه ، وتخاف اذا تكرر الترغيب فيه أن يخونها قلبها فتميل اليه وهى لا تريد أن يكون لأحد نصيب من فؤادها غير سالم ..

— ١١ —

الخطبـة

وما كادت تفكر فى ذلك حتى رأت جوهرا فى وسط القاعة ، وقد أمسك أباها حمدون بيده كأنه يقدمه الى المعز وهو يقول : « أقدم لمولانا أمير المؤمنين الأمير حمدون صـاحب سجلماسة صديقنا الجديد »

فنظر المعز اليه وابتسم ابتسام الملوك وقال : « أهلا بصديقنا . أرجو أن لايكون فى خاطره شىء منا »

فأسرع حمدون وترامى بين يدى المعز كالمستغيث .. وقد فعل ذلك مبالغة فى التزلف ، وقال : «لقد أسعدنا الحظ بهذه الصداقة

وهي شرف لنا ، ولوعرفنا مناقب الامام من قبل لجئناه بغيرحرب»

فأنهضه المعز بيده وأشار اليه أن يجلس بجانبه على وسادة وهو يرحب به ويبتسم . وأشار الى جوهر أن يجلس فجلس وهو مسرور من نجاح مهمته فى مصلحة الدولة بتقريب هــذا الأمير للطاعة لأنه صاحب جاه واسع وحزب كبير

جلس حمدون وهو يظهر التأدب فى حضرة المعز ، لكن عينيه كانتا تجولان خلسة فى أطراف القــاعة لا تستقران على حال كأنهما عينا لص .. على انه كان فى وجهه هيبة الأمراء .

أما لمياء فلما رأت والدها هناك سرّت لتقربه من المعز لأنها كانت تعلم ما فى نفسه عليه ، وانه لم يكن أثقل على قلبه من ذلك الأسر.. فسرّها أولا انه رضى بارسالها الى بيت الخليفة وزاد سرورها انه تقرب منه ، وهى ترغب فى ذلك لعدة أسباب.. أهمها اعتقادها فى كرامة المعز لأنه من نسل فاطمة الزهراء ، وهى حسنة الاعتقاد بالشيعة . ولقد كان همها بعد ذلك أن يأتى سالم ويتقرب الى المعز فيتم لها السرور.. وان كانت بالفطرة عزيزة الجانب ميالة الى الاستقلال ، وقد حاربت فى سبيله ولم تسلم الا قهرا . لكنها لم تكن راضية عن أعمال والدها فان بين أخلاقها وأخلاقه بونا عظيما .. وقد لقيت من المعز وزوجته كل رعاية واكرام ، فوطنت النفس على التفانى فى مصلحتهما ، وانما ينقصها العثور على سالم واقناعه بالتسليم معها . ومع علمها بصعوبة تسليمه فانها كانت تعتقد أنها تستطيع أن تتغلب عليه بالدالة والبرهان

أما المعز فالتفت الى جوهر لفتة صديق معجب بصديقه وقال :

« يسرنى كثيرا أن تجتمع كلمة شيعتنا على المطالبة بحقوقنا »

فقال جوهر : « ان ذلك هين بتوفيق مولانا أعزه الله . وأنا أعد تقريب أمير سجلماسة الباسل فألا مباركا .. لأنه رجل حرب وله أعوان يتفانون فى نصرته ، فبمثله يعز الملك »

فقال حمدون : « انى أفاخر سائر الأمراء بهذه الحظوة بين يدى أمير المؤمنين ، وقد أصبحت الآن سيفا من سيوفه أناضل عنه الى آخر نسمة من حياتى .. أقول ذلك عنى وعن رجال قبيلتى »

فابتسم المعز وقال : « انك اذا فعلت ذلك فانما تنصر الحق كما أنصره أنا . وان امامتى على رجالى لا تميزنى عنهم بشىء من مرافق الحياة .. بل أنا أكثرهم تعبا وسهرا كما ترى مما بين يدى من الأعمال .. انى أعمل بيدى ما لايعمله صاحب بغداد ولا صاحب قرطبة . أنظر فى كل شىء بنفسى .. لا أقول ذلك افتخارا ولكننى أقول الحق ، فما أنا إمامكم الا بما خصنى به الله من النسب الطاهر ، وأما فيما خلا ذلك فأنا واحد منكم »

فقال حمدون وهو يظهر الاخلاص : « انى أحمد الله بما منّ علىّ به من نعم أمير المؤمنين ، وسيرى منى ما تقر به عينه وتنبسط نفسه » .

فأبرقت أسرّة جوهر فرحا بنجاح مسعاه ، ونظر الى المعز نظرة فهم المعز مراده منها ، فالتفت الى حمدون لفتة تودد وقال : «وما أنا راض لأمير سجلماسة بما أردته لغيره من الأمراء المقربين.. بل أنا أحب أن أختصه باكرام لم ينله سواه . فأنت تعلم منزلة قائدنا جوهر حامى حمى هذه الدولة . انه صاحب المنزلة الأولى عندنا ،

فنحب أن نزيد أسباب القربى بينك وبينه . وهى قربى لنا أيضا»

فأدرك حمدون غرضه ولكنه تجاهل وقال : « ان أمر مولانا مقبول على الرأس والعين .. فليأمر بما يراه »

قال المعز : « نحب أن نخطب ابنتك لمياء الى الحسين ابن قائدنا جوهر وهو من خيرة الشبان .. فهل توافقنى على ذلك ؟»

فبادر حمدون الى الجواب بلهفة وقال : « ان هذا شرف عظيم لنا ياسيدي.. ان لمياء لاتستحق هذه النعمة لأن جوهرا ـ حفظه الله ـ قدوة القواد . وان لمياء جارية أمير المؤمنين يضعها حيثما شاء .. لأمير المؤمنين الأمر وعلينا الطاعة »

وكانت لمياء ، وهى تسمع كلامهم من وراء الستار ، تخشى أن يفضى الحديث الى هذه الغاية .. فلما سمعت اتفاقهما على الخطبة أجفلت وارتبكت والتفتت الى أم الأمراء لفتة مستغيث . فضمتها الى صدرها ولم تزد.. فرفعت لمياء رأسها لتنظر فى عينى أم الأمراء لعلها تفهم مرادها من ذلك التحبب ، فرأتها تضحك ضحك من ظفر بغنيمة . فاشتبه عليها أمرها وهى لا تدرى ماذا تعمل ، وأخذتها الرعدة وترقرق الدمع فى عينيها

فهمست أم الأمراء فى أذنها قائلة : « لم تقبلى ذلك الطلب منى فها قد اتفق عليه والدك وأمير المؤمنين ، فهل من سبيل الى الرفض ؟ »

فأجابتها لمياء بهز رأسها هزة الانكار ، ولسان حالها يقول : « انى لا أزال على عزمى »

فأشارت أم الأمراء بسبابتها على فمها : « أن اصبرى الآن وسنرى »

فسكتت واذا هى تسمع المعز يقول : « بارك الله فيك انى أهنىء ابن قائدنا بهذه الفتاة ، كما أهنئها به لأنه من خيرة الشبان ، فعسى أن تكون راضية بذلك »

فقال حمدون : « انها لاشك راضية .. كيف لا ترضى بما رضى به لها أمير المؤمنين ووافق عليه والدها ؟ »

فلم تعد لمياء تصبر على سماع ذلك ، فنهضت تريد الانزواء نفورا من ذلك الحديث فأمسكتها أم الأمراء وأجلستها .. فأطاعت وسكتت وهى تكاد تتميز غيظا ولا تعلم ماذا تعمل

أما المعز فتزحزح عن مجلسه اشارة للانصراف .. فوقف جوهر وحمدون واستأذنا فى الانصراف فأذن لهما وهو يقول : «نترك تحديد وقت العقد لقائدنا .. ونحب أن يكون ذلك فى حضرتنا اكراما للعروسين »

انصرفا وتركا لمياء على مثل الجمر ، وقد جمد الدم فى عروقها وتولتها الدهشة ، وحق لها ذلك فانها مع شدة تعلقها بسالم لا ترى مندوحة عن طاعة والدها وأمير المؤمنين ..

— ١٢ —

الحيرة

نهضت أم الأمراء وأخذت لمياء بيدها تخفيفا عنها .. وقد شعرت بما هى فيه من الارتباك ، فمشت لمياء معها وهى مستغرقة

فى الهواجس لا تنبس ببنت شفة

حتى اذا وصلتا الى حجرة أم الأمراء استأذنت لمياء فى الانصراف الى الغرفة التى أعدت لنومها .. وكانت الشمس قد مالت الى المغيب ، فدعتها أم الأمراء الى البقاء عندها فاعتذرت بأنها تشعر بصداع شديد لا ترى وسيلة للتخلص منه بغير النوم .. فأذنت لها حبا فى اطلاق الحرية لها لئلا يؤثر الضغط على نفسها ، وأضمرت أن تتفقدها بعد هنيهة

سارت لمياء وهى تتعثر فى أذيالها ، ولم تكد تصل الى غرفتها حتى أحست بانهيار فى قواها ، فاستلقت على فراشها وقد انقبضت نفسها وزادها غروب الشمس انقباضا . وأخذت تفكر فيما هى فيه من الضيق ، فرأت انها لو لم تكن تحب سالما لكانت فى سعادة لا مثيل لها ، لأنها ستخطب لابن أكبر القواد على يد أحسن الخلفاء فى دار الملك . وقد تقربت من أم الأمراء وتصادقتا . وهى تشعر ان هذه الملكة تحبها حقيقة . فلم يكن من هو أسعد حالا منها لولا تعلقها بسالم ، وأرادت أن تقنع نفسها بتركه والرضى بتلك النعم ، فلم تستطع .. وحين خطر لها ذلك الخاطر أحست بشىء انقبض له قلبها

وأخذت تغالب عواطفها وتخاطب نفسها ، وهى جالسة على الفراش قائلة : « لعل أم الأمراء مصيبة فى قولها عن الرجال انهم لايحفظون ذماما كالنساء ، ولكن سالما ليس مثله أحد .. كيف أفكر فى غيره وقد تعاهدنا .. لله ماهذه الأفكار الشيطانية ، ليس فى الدنيا أكبر نفسا وأجمل خلقا من سالم .. ليست السعادة

بالمال ولا فى الجاه ، ان السعادة فى الحب .. مهما عارضتنى صروف الدهر ، وعاندتنى ، وتراكمت علىّ ، فاذا تذكرت سالما وانه يحبنى شعرت بلذة وراحة لا مثيل لهما .. ما أجمل الحب وأحلاه .. ولكن . . . . هل سالم يحبنى كما أحبه ؟ »

وبينما هى فى ذلك طرق الباب فأجفلت ، فرأت صقلبيا يحمل مصباحا وقف بالبـاب وهو يقول : « ان مولاتى أم الأمراء أمرتنىأنأنيرلكهذا المصباح، وأنأضعه على رففيالحائطمصنوع لهذه الغاية» ثم قال : «ألا تريد مولاتى أن أعد الطعام للعشاء ؟»

قالت لمياء : « كلا .. انى لا أشعر بالجوع وأرجو أن تبلغ مولاتنا أم الأمراء شكرى الجزيل على أفضالها »

فانحنى وهمّ بالخروج .. فاستوقفته وقد خطر لهـا خاطر جديد ، فقالت : « هل أنت من خدم هذا القصر ؟ »

قال الخادم : « نعم ياسيدتى .. هل تحتاجين الى شىء ؟ »

قالت لمياء : « أحب أن أعرف أين هى مولاتنا .. »

فقال الخادم : « هى هنا ياسيدتى » .. وتنحى ..

فاستغربت قوله .. واذا بأم الأمراء بالباب ، فبغتت لميـاء لوجودها هناك وقالت : «كيف حضرت ياسيدتى.. وأين كنت ؟»

فضحكت وأشارت الى الخصى فانصرف وضمت لميـاء الى صدرها وقبّلتها وقالت : « أتظنـين انى غافلة عما أنت فيه ؟ أذنت لك بالانصراف الى مخدعك وقلبى يرعاك ، ولم أتمالك عن أن أجىء بنفسى لأرقب حركاتك .. وانما أرسلت الصقلبى قبلى ليرى هل أنت نائمة .. »

واخذت لمياء تغالب عواطفها وتخاطب نفسها ، وهي جاثمة على الفراش قائلة :
ترى أم الامراء مصيبة في قولها عن الرجال : انهم لا يحفظون ذماماً كالنساء

فلما سمعت كلامها أكبت على يديها وجعلت تقبلهما قائلة :
« بالله ياسيدتى ما هـذه النفس الكريمة ، ما هـذه الأخلاق العالية ، ما هـذا الحنان العجيب .. هل أستحق منك هـذه العناية ؟.. ان شعورك معى فى هـذه المشاكل قد خففها »
وسكتت وهى تدعو أم الأمراء للجلوس على فراشها

فأجابتهـا : « قلت لك انى أحببتـك ، وأنا لا أقول ذلك جزافا .. ثم انى أعلم الناس بما يكنه قلبك ، فقلت فى نفسى لعلى اذا جئتها وكانت مضطربة أستطيع أن أخفف عنها شيئا »

فتنهدت لمياء وسبقتها العبرات وهى تقول : « لقد خففت عنى كثيرا ولكن .. »

فمسحت أم الأمراء دموع لميـاء بمنديلها وقالت : « انك يا بنية حملت نفسك التعب باختيارك .. ان الشاب الذى عرض عليك لو عرض على أحسن نسـاء العالمين لفرحت به ، وأنت لا .. » وبلعت ريقها ، واستعنت عن التصريح بالاشارة ..

فقالت لمياء : « هذا كله أعلمه وقد حاولت أن أقنع نفسى فاذا أنا عاجزة عن ذلك .. انى ضعيفة مسكينة ؛ آه من الحب .. سامحينى ياسيدتى على هذه الجرأة فى حديثى . أردت أن أقنع نفسى ان ما سيدعونى اليه والدى سـعادة لا ترد ، فشعرت بقشعريرة ارتعدت لها فرائصى .. لا أستطيع .. لا أستطيع أن أتسلط على نفسى .. انى لا أملك رشدى ، يظهر انى مجنونة »

فضحكت أم الأمراء على سبيل المداعبة وقالت : « هل تشكين فى ذلك ؟ ألا تعلمين ان العلماء يسمون الحب الشديد جنونا »

قالت لمياء : « مهما يكن فانى عاجزة عن التخلص من هذه الهواجس .. بالله أشفقى علىّ وارفقى بى .. »

قالت أم الأمراء : « انى مستعدة لما تريدين .. نعم أحب أن تكونى من نصيب الحسين بن جوهر ، ولكننى أفضل راحتك .. فاذا كنت تظنين أننى أستطيع أن أساعدك فى شىء قولى .. »

فأطرقت وسبابتها على شفتها السفلى وهى تفكر ، وأم الأمراء تنظر اليها وتنتظر ما تقوله ، فاذا هى قد رفعت بصرها اليها وقالت : « انى أطلب منك أمرا لايصعب عليك .. انى أحب أن أذهب الى والدى لأراه وأباحثه فى الأمر الذى عرض عليه اليوم ، لعله اذا علم بما فى خاطرى يعفينى منه .. وأنت تكملين فضلك فى ارجاع أمير المؤمنين عن عزمه »

ففكرت أم الأمراء لحظة وهى تعلم ان زيجة لمياء للحسين يراد بها تحقيق هدف سياسى ، لاكتساب قلب حمدون .. فضلا عن التوافق بين العروسين ، فلم تشأ أن تعدها باقناع زوجها .. لكنها طيّبت خاطرها ، وقالت : « لك علىّ ذلك .. متى تذهبين الى والدك ؟ »

قالت لمياء : « الآن ياسيدتى .. انى لا أستطيع النوم ان لم أره وأباحثه »

قالت أم الأمراء : « كيف تذهبين الآن وقد داهمنا الظلام ووالدك فى معسكره خارج المنصورية وقد أقفلت الأبواب ؟.. ومثلك لا يؤذن بخروجها من هذا القصر »

قالت لمياء : « أخرج متنكرة وأنا لا أبالى بالظلام انما أطلب

اليك أن تأمرى بثوب أحد الصقالبة ، خدم القصر ، كى ألبسه وأخرج بحجة رسالة أحملها من أمير المؤمنين الى صاحب سجلماسة»

ففكرت أم الأمراء لحظة ثم قالت : « ذلك هين علىَّ ، ولكننى أخشى أن يشك فى أمرك الحراس على الأبواب »

قالت لمياء : « لا تخافى »

فقالت أم الأمراء : « ها أنا ذاهبة الى حجرتى .. وبعد قليل تعالى الىَّ تجدى الثوب معدا .. »

فأكبَّت على يدها لتقبلها شكرا على هذا الصنيع .. فمنعتها أم الأمراء من ذلك وتركتها وخرجت

— ١٣ —

مفاجأة !

فمكثت لمياء برهة ، ثم مشت الى أم الأمراء ، فرأتها قد أعدت الثوب فلبسته وأصلحت من شأنها ، حتى لا يشك من يراها فى انها غلام صقلبى وودعتها .. فأرشدتها الى أقرب طريق يؤدى الى باب البلد ..

فمشت وهى ثابتة القدم لايعتريها خوف .. فمرت فى الحديقة لا يشك فى أمرها أحد ، وأهل القصر مشغولون فى مهامهم حتى وصلت الى باب البلد .. فاذا هو موصد والحراس وقوف عنده بأسلحتهم . فطلبت اليهم أن يفتحوا لها الباب لأنها ذاهبة فى مهمة عاجلة الى معسكر صاحب سجلماسة .. ففتحوه ، ولم يشك أحد منهم فى أنها رسول صقلبى

ففرحت بانطلاء حيلتها ، وخرجت فاذا هي فى الخلاء .. ونظرت نحو معسكر والدها فعرفت مكانه من النار الموقدة عنده ، فمشت بسرعة والظلام حالك والمكان خال وكل شيء هادىء . فلم تمش قليلا حتى رأت شبحا طويلا يدنو منها وعليه عباءة سوداء قد التف بها ، ومشى نحوها بهدوء ، فتحولت عن جهته لئلا يعترضها .. فاذا هو قد وقف لها ونادى : « من الرجل ؟ »

فقالت لمياء : « رسول من أمير المؤمنين الى هذا المعسكر »

فقال الرجل : « قف عندك »

ولما سمعت الصوت اقشعر بدنها لأنها تذكرت صوتا تعرفه ، لكنها تجلدت وتجاهلت وقالت : « دعنى .. انى سائر لأمر عاجل » ..

فناداها قائلا : « لا يخرج الرسل من هذا القصر ليلا .. »

قالت لمياء « انها رسالة هامة مستعجلة ، وقد رآنى الحرس بالباب ولم يعترضوا سبيلى .. »

قال الرجل : « أنا أعترضك .. قف عندك أو تعال معى الى النور لأرى وجهك .. انى أعرف غلمان القصر جميعا .. »

فتحيّرت فى أمرها ، وتفرّست فيمن كان يخاطبها .. وأخذت تفكر فيمن عساه أن يكون وصوته يشبه صوت الحسين بن جوهر ، واستبعدت أن يكون هو هناك وليست الحراسة من شأنه .. فتجاهلت وظلت ماشية وهى تقول : « انى ذاهب فى مهمة سرية لا يجوز للحرس أن يطّلع عليها ولا أن يعرف من أنا »

قال الرجل : « اذا كان ذلك لا يجوز لسواى فهو جائز لى »

قال ذلك ومد يده يريد أن يمسكها فنفرت منه ، وخبأت يدها وراء ظهرها وقالت : « قل لى من أنت أولاً » ..

قال الحسين : « أنا الحسين بن جوهر »

فلما تأكدت انه هو بعينه ارتج عليها ولم تخف على نفسها منه ، ولكنها خافت أن يعرف سرها .. فحوّلت وجهها عنه ، ومشت وهي تقول : « لا نعهد الحسين ابن أكبر القواد ينتحل مهنة الحرس ليتعرض لرسول أمير المؤمنين .. دعنى وشأنى ، والا فان تأخرى تعود عاقبته عليك »

فاعترضها وهمّ أن يمسك يدها فأفلتت يدها منه بجسارة ، فقال لها : « ليس من شأنك أن تعين لكل انسان مهمته .. نحن جميعا نخدم مصلحة أمير المؤمنين .. نضرب بسيفه ونحرس قصره ، دع عنك ذلك واتبعنى .. واذا كنت رسولا كما تزعم فلا خوف عليك ، بل أكون لك عونا فى ابلاغ الرسالة »

فلم تجد لمياء بدا من الطاعة فقالت : « ها أنا ذا واقف .. ما الذى تريده منى ؟.. اكشف اللثام عن وجهك أولا ثم خاطبنى..»

فأزاح اللثام فاذا هو الحسين بعينه ، فخفق قلبها واستغربت تلك المصادفة وقالت : « نعم أنت مولانا الحسين بن القائد جوهر ، فما الذى تريده منى ؟ »

قال الحسين : « انى لا أرى وجه صقلبى ولا أسمع صوت صقلبى ، انى أسمع صوت امرأة »

فضحكت استخفافا وقالت : « أرأيت كيف انك مخدوع ؟.. فحسبتنى امرأة وأنا غلام »

قال الحسين : « اذا كنت غلاما صقلبيا فاصدقنى ولا تخف »
فتماسكت لميـاء ، ولم تجد بدًّا من التصريح ، فقالت : « تأمّل فى وجهى جيدا »

فتفرس فيها على شعاع النور وقال : « أنت فتاة .. وكأنى رأيت هذا الوجه فى صباح هذا اليوم ، ألست لمياء بنت صاحب سجلماسة ؟ »

فلم تطاوعها نفسها على الانكار فقالت : « نعم أنا هى ، وما الذى تريده منى ؟ »

فتنهد وابتسم ثم قال : « ان ما أريده منك ليس هنا محل الكلام فيه يا لمياء . ولكننى أطمئنك أن لاخوف عليك منى لسبب سوف تعلمينه ، ولكننى أعجب لخروجك فى هذا الليل متنكرة ومثلك لا يؤذن لها بالخروج من قصر أمير المؤمنين .. كيف خرجت ؟ »

قالت لميـاء : « ألم أقل لك انى خارجة فى مهمة لصـاحب سجلماسة ؟ »

قال الحسين : « هل أنت ذاهبة الى أبيك ؟ »

قالت لمياء : « نعم .. ها قد قلت لك ، فأنت وشأنك .. »

قال بنغم التودد : « ان شأنى شأن المأمور المطيع يا لمياء .. ولو كان الخارج فى هذا الليل سواك لكانت حياته فى خطر . وأما أنت فانى فى خدمتك حتى ترجعى الى مأمنك .. انما أرجو أن تذكرى هذا لى اذا ذُكّرتِ به .. »

فشعرت انه يحملها فضلا سيطالبها به يوما ما ، فقالت : « لم

أخرج من هذا القصر فى هذا الليل وحدى وأنا خائفة من أحد . فاذا شئت أن تبقى على اعتراضك فانى لا أبالى »

وكان الحسين قد علم فى ذلك النهار ان أباه وأباها قد زارا المعز ، وانه خطبها له من أبيها فوافق على الخطبة .. ولكنه كان على يقين انها لم تطلع على شىء من ذلك بعـد . وتوسم فى اجتماعها بوالدها فى تلك الساعة خيرا لنفسه ، اذ يبلغها أبوها ما كان من طلب أمير المؤمنين لها باسم الحسين ، فقال : « قلت لك ان شأنى معك أن أكون فى خدمتـك حتى تبلغى مأمنك وتشاهدى والدك. ولعلك وأنت راجعة تتغير لهجةخطابك معى»

فأدركت كل ما جال فى خاطره ، وفهمت ما يشير اليه لكنها تجاهلت وقالت : « انى لا أستطيع أن أذكر ابن القائد جوهر بعد هذه المكارم الا بالشكر والثناء على كل حال . فهل تأذن فى انصرافى الآن ؟ »

قال الحسين : « نعم.. ولكننى أكون فى خدمتك لئلا يعترضك سواى ، فإن فى هذه الطرق حراسا آخرين أقامهم والدى سرا لزيادة الحرص على سلامة أمير المؤمنين . ولا أحب أن يعرف أحد منهم ولا سواهم بخروجك ، ولا أريد أن يخاطبك أحد ولا أن يقول لك كلمة ولو كانت سلاما واحتراما .انى أكثر حرصا عليك منك » قال ذلك بنغمة الحب

فظلت لمياء على تجاهلها وقالت : « بارك الله فيك فأنا واثقة من مروءتك ، وأحبأن تكتم ما رأيت.. وكأنكلم تشاهد أحدا»

فأستأنس بهذه الوصية واستدل بها على ميل نحوه وقال :

« قلتُ لك انى أحرص منك عليك .. وهذا يكفى »

فلم تجبه ومشت .. ومشى هو فى أثرها عن بعد حتى دنت من معسكر أبيها ..

— ١٤ —

أبو حامد

وكان ذلك المعسكر خياما مضروبة أكبرها فسطاط الأمير . فلما دنت من الفسطاط صاح بها رجل من الواقفين للحراسة : « من القادم ؟ »

فظلت على تنكرها وقالت : رسول من أمير المؤمنين الى الأمير حمدون .. »

فنظر الى ثيابها فحسبها غلاما صقلبيا .. فدخل ليستأذن لها بالدخول ..

وكان حمدون قد عاد الى الفسطاط ، بعد مثوله بين يدى الخليفة ، وصدره مملوء بالأمانى ، واختلى بصديقه أبى حامد مدة طويلة ودعاه للعشاء معا .. فقضيا ساعات وهما يتسباران لا يؤذن لأحد بالدخول عليهما ، فلما دخل الحارس يستأذن لرسول من عند أمير المؤمنين قال حمدون : « ماذا عسى أن يكون من أمر هذا الرسول ؟ .. فليدخل »

فدخلت لمياء ، ولم تقع عين أبيها عليها حتى عرفها .. فهمّ أن يناديها ، فأشارت اليه بالسبابة على فمها أن يكتم أمرها . فأشار الى الحاجب أن يخرج ويبعد سائر الحجاب عن الفسطاط

وكان فسطاط الأمير حمدون خيمة كبيرة من الجلد المدبوغ بلون أحمر .. وقد فرشت ببساط كبير حمله معه من سجلماسة ، وهو فى الأصل مستورد من أسبانيا مما كان أمراء الأندلس يفرشونه فى قصورهم .. لأنه كان وهو أمير يقلدهم فى أسباب المدنية . والخيمة قائمة على ستة أعمدة علقوا عليها الأسلحة والدروع ، وأنيرت أطراف الفسطاط بالمصابيح

فدعا لمياء للجلوس على وسادة بجانبه ، وأخذ يرحب بها وأبو حامد الى جانبه الآخر.. وهو كهل قصير القامة دقيق العضل كبير الرأس بارز الجبهة خفيف اللحية ، قد برز فكاه وتنأت سناه المتوسطتان من فكه الأعلى نتوءا كبيرا وافترقتا . وله عينان غائرتان متقاربتان ، تبرقان دهاء ومكرا ، كأنهما مصباحان متجاوران قد اختلط نورهما .. وفى احداهما انحراف الى أعلى ، وبينهما أنف كبير أعقف كأنف النسر .. وقد أرسل شاربه على شفتيه ليخفى سنيه البارزتين . وأهمل لحيته الخفيفة بلا تمشيط . وكان قد تخفف بملابس الليل وغطى رأسه بعراقية سوداء زادت تلك السحنة غرابة .. وكان اذا لقيه الرجل استخف به واحتقره ، فاذا خاطبه تهيب منه لقوة عارضته وفصاحة لسانه

فلما رأى حمدون يرحب بلمياء شاركه فى الترحيب ، وهش لها وسبق والدها الى مخاطبتها فقال : « بارك الله فيك لقد جئت فى ابان الحاجة اليك . ولكن ما الذى جاء بك فى هذا الليل ؟ »

فضحك أبوها وقال : « يظهر أن روحنا خاطبت روحها عن بعد ، فلبت الطلب .. »

فقالت لمياء والاهتمام باد فى عينيها البراقتين : « جئت ياسيدى لأمر أهمنى كثيرا » .

قال وهو يبتسم : « لعلهم أنبأوك بما دار بيننا وبين المعز فى هذا الصباح »

قالت لمياء : « لم ينبئونى ولكننى سمعت الحديث بأذنى »

فتصدى أبوحامد للكلام قائلا : « أهنئك يا لمياء بهذا النصيب الحسن » فنظرت اليه نظرة عتاب وقالت : « وأنت تقول ذلك أيضا ؟ »

قال أبو حامد : « كيف لا أقوله ؟ » ونظر الى أبيها كأنه يستشيره ..

فقال حمدون : « نعم يحق لنا أن نهنئك يا بنية فان هذا النصيب لا يتأتى لأحد من أهل القيروان »

فالتفتت الى أبى حامد وقالت : « وسالم ؟ » وهى تتوقع أن تفحمه بذلك الاعتراض ..

فقال أبوحامد : «سالم ؟ حتى سالم يفرح لك بهذا النصيب»

فدهشت لهذا الجواب وقالت : « سالم ؟.. لا .. لا .. لا أظنه يفرح ولا أنا فرحت به »

فالتفت أبوها اليها لفتة الاستغراب وقال : « وأنت لم تفرحى به ؟.. يالله ما الذى تتوقعينه أحسن من هذا ؟ »

قالت لمياء : « أتوقع أن .. » وغلب عليها الحياء فسكتت

فقال أبو حامد : « ان كنت ترفضين هذه النعمة ابقاء على سالم فأنا أضمن ارتياحه اليها »

قالت لمياء : « سالم لايرضى أن أكون لسواه !.. كلا »
فضحك أبوحامد ملء فمه ، وهزّ رأسه باستخفاف ، وقال :
« يظهر انك تنظرين الى هذا الزواج من وجه واحد فقط »

فاستغربت هذا التعبير وقالت : « وهل ينظر فى هذا الأمر من عدة وجوه ؟ »

فأخذ حمدون وأبو حامد ينظر كل منهما الى صاحبه ويضحك . وأغرق أبو حامد فى الضحك حتى كاد يستلقى على قفاه ، وقد برز سناه من بين شعر شاربه .. فشق ذلك على لمياء فابتدرها أبوها قائلا : « ألا يكفى لقبولك هذا النصيب أن يكون قد تم الاتفاق عليه بين أبيك وأمير المؤمنين ؟ واذا كنت لا تبالين بارادة والدك ، ألا تهابين أمر الخليفة ؟ » قال ذلك فى لهجة عتاب وتوبيخ ..

فخجلت من هذا التعريض لكنها لم تقتنع ، فسكتت وأطرقت وفى سكوتها انكار لما يطلبونه منها . فتصدى أبو حامد وهو يظهر التلطف والاهتمام ويتشاغل باصلاح طاقيته وقال لها : « أنا لا أشك فى تعقلك وحكمتك ، ولذلك فأنا أخاطبك بصراحة . أؤكد لك لو كان سالم هنا الآن لأمرك أن تطيعى والدك وتقبلى ما عرض عليك .. ليس لأنه لا يحبك ، ولكن لأنه يرجو من ذلك خيرا لنا جميعا »

فلما سمعت قوله استغربت ما فيه من التلميح ، ولم تفهم ما يريد وهى تعلم ان سالما اذا كان يحبها كما تحبه لايرضى أن تكون لسواه ولو أعطى مال العالم كله . ولم تفهم ما هو النفع

الذى يرجوه من قبولها .. فوقعت فى حيرة وظلت ساكتة ، وقد ظهر الارتباك فى عينيها ، فتنحنح أبو حامد فنهض والدها وخرج من الخيمة وهو يتظاهر أنه يريدحاجة عرضت له.. فبقيت لمياء مع أبى حامد ، فتوجَّه نحوها باهتمام ، وقال : « أرجو أن تكونى قد فهمت مرادى »

فرفعت بصرها اليه وقالت : « كلا ياسيدى .. أعترف لك انى لم أفهم مرادك . وأنا أعلم ان سالما اذا كان يحبنى كما تقولون لايمكن أن يرضى بهذا الأمر .. أقيس ذلك على نفسى» وأطرقت وقد توردت وجنتاها من الخجل ، وأخذت فى اصلاح المنطقة جول خصرها كأن ثوب الصقالبة قد ضايقها لأنها لم تتعوده

فقال أبوحامد ، وهو يخفض صوته،كأنه يسرّ اليها أمرا هاما : « انى أجل ذكاءك عن أن يخفى عليك مرادنا .. أم هل أنت الآن راضية بالبقاء أسيرة كالجارية فى بيت ذلك الأمير المغرور ؟ »

قال ذلك وفى صوته لهجة الاحتقار .. فتذكرت لمياء ما كانت تعلمه من نقمته على المعز قبل أن يتغلب عليه .. ولكنها كانت تحسب أنه غيَّر عزمه واقتنع بما صار اليه لعجزه عن مناهضته ، وأحسَّت حين سمعت أسلوبه فى التعبير ، بغيرة هبَّت فى صدرها للدفاع عن نفسهـا وعن المعز فقالت : « لم أكن أتوقع منك ياعماه ما سمعته ، فما أنا جارية ولا المعز مغرور »

فقال أبو حامد : « لله ما أطيب سريرتك .. انهم خدعوك فحولوا قلبـك عن والدك وأهلك .. وصرت تجـدين الأسر عزا والذل سعادة . أين انفة لمياء راعية الجواد الأدهم سليلة

آل مدرار أصحاب سجلماسة ؟.. أم غرّك ما ناله أولئك من الظفر مصادفة ؟ انهم غير أهل للملك والتحكم فى الرقاب . ألم ترى منازلهم لا تتميز عن منازل العامة ، يجلس أميرهم على اللبود ويلبس كسائر الناس ؟ أين أبّهة الدولة التى كانت لوالدك وأجدادك ؟ ان آل مدرار وحدهم أهل للسيادة وبهم وحدهم يليق الملك . أقول ذلك وما أنا لسوء حظى منهم ، ولكننى أعرف منزلتهم ولا غرض لى غير الانتصار للحق .. ولو كان والدك هنا لخاطبك بمثل ما خاطبتك به .. »

— ١٥ —

حيرة !

وكانت لمياء تسمع وتعجب ، ولم تستطع صبرا على السكوت فقالت : « أراك يا عماه قد بالغت فى التقريع ولا أرى حاجة الى ذلك .. ان المعز لدين الله لم يبلغ ما بلغ اليه من سعة الملك الا لأنه أحق بهذا الأمر بما له من النسب الشريف ، انه من أبناء الرسول وقدجاربنا وحاربناه،ولوكان الحق فى جانبنا لانتصرنا عليه. لقدكنت فى مقدمة المحاربين المدافعين ولا أزال أحب الاستقلال ، ولكننى لا أجد اليه سبيلا . وهذا أمير المؤمنين قد أكرم وفادتنا وأحسن الظن بنا ، وأخلصنا النية له .. فلا ينبغى أن نخونه »

فضحك ثم قطع ضحكته فجأة وقال : « لم أستغرب من قولك الا اعتقادك أن النسب الذى يدعيه هؤلاء لأنفسهم صحيح .. أنا أعلم الناس بأنسابهم ، ولكن الانسان اذا تغلب انتحل النسب

الذى يريده . أما قولك انهم تغلبوا ، وان ذلك دليل على حقهم فى الخلافة فهو منقوض لأنهم لم ينالوا هذا الأمر ببطشهم ، وأنت تعلمين أن أبا عبد الله الشيعى هو الذى سلم اليهم هذا السلطان وأنصاره هم أهل هذه البلاد .. ثم كافأه هؤلاء الخلفاء بالقتل ، أليس كذلك ؟.. وتقولين مع هذا انهم أكرموا وفادتنا وأحسنوا الظن بنا ؟ ما الذى أكرموكم به وقد سلبوكم سلطانكم واغتصبوا أموالكم ونهبوا منازلكم ، يكفى ما أخذوه من قصرك من التحف والأثاث والرياش .. أين جوادك ؟ بل أين مرآتك الذهبية التى كانت فى غرفتك ؟.. أين حاضنتك التى كانت تعنى بملابسك وتدبير شئونك ، أين ماشطتك ومربيتك ؟.. ألم يكن الخدم عشرات فى منزلك ؟.. واذا ركبت وقفوا ، واذا مشيت تطامنوا ، واذا أمرت أطاعوا .. وكنت الملكة الآمرة الناهية ، لايسمع فى القصر غير أمرك ونهيك .. نسيت كل ذلك وأعجبك أن تكونى رهينة عند هذا الرجل وتقولين انه أكرمك وأحسن وفادتك ؟.. انهم لم يكرموا أحدا مثل اكرامهم أبا عبدالله المأسوف عليه ، ثم قتلوه غدرا » قال ذلك وغص بريقه ، وكاد يشرق بدموعه ..

فتأثرت لمياء من قوله .. وكانت تعلم غدر الفاطميين بأبى عبد الله ، لكن تعلقها بطهارة نسبهم كان يحببهم اليها ، فضلا عن اعتقادها بعجز والدها عن التغلب عليهم ، وخاصة بعد ماشاهدته من لطف المعز وزوجته وقائده وسائر أهل ذلك القصر .. على أنها حين سمعت ما يذكرها بسابق عزها ومجدها وشرف أسرتها وفخامة ملكهم ، تنبهت فيها شهوة الملك ونعرة السيادة ، فضعف

حماسها للمقاومة .. وأرادت أن تباحث أبا حامد فى الأمر وهى لا ترى بأسا من ذلك فقالت : « ان ما قلته صحيح لاشك فيه ، لكن ما الفائدة منه ونحن لا حول لنا ولا طول و ... »

فقطع كلامها قائلا : « هذا شيء آخر سنبحث فيه ، وقد سرنى انك رجعت الي ما هو جدير بك من المحافظة على شرف أبيك وعز الملك .. أنتم آل مدرار توارثتم السيادة كابرا عن كابر، وأحرزتم الملك بحدالسيف لابالحيلةوادعاء النسب الشريف»

فتحيرت لمياء لما سمعته من التناقض فقالت : « اذا كان الأمر كذلك فما بالكم ترغبوننى فى ابن ذلك القائد وهو مولى بن مولى ، وعنفتمونى على ترددى فى أمره ؟ »

فابتسم وقال : « ان شعرة من رأسك تساوى ملك هذا الخليفة وكل قواده.. ان ذلك الشاب لايساوى قلامة منظفرك»

فاستغربت قوله وظنته يمزح فقالت : « لم أفهم مرادك ياسيدى ! »

فقال أبوحامد : « مرادى ؟.. ألم تفهمى مرادى ؟ وعهدى بك الذكاء ، أو لعلك تتجاهلين ؟ أتظنين أن سالما يرضى أن يحظى بك أحد من العالمين وهو على قيد الحياة ؟ »

فازدادت دهشتها وقالت : « قلت لكم ذلك فغضبتم علىَّ اننى لا أزال أجهل ما تريد »

فضحك ونظر نحو باب الخيمة ، وهمَّ كأنه يتحفز للنهوض . فالتفتت ورأت أباها داخلا ومعه رجل ملثم ملتف بعباءة لايبدو منه الا عيناه ، فلم تعرفه .. وابتدرها قائلا وهو يهش لها :

« لعلك لا تزالين على تمسكك بالرفض ومقاومة آمر الخليفة وارادة والدك » قال ذلك وهو يتقدم حتى جلس فى مكانه والرجل الملثم واقف بجانب أحد أعمدة الخيمة كأنه متكىء عليه.. فشغل خاطرها به وخشيت أن يكون فى الأمر دسيسة ، لكنها لم تَشُكّ فى والدها .. ولما سمعته يطرح ذلك السؤال عليها قالت : « ولكن العم أبا حامد يقول انكم تبخلون بى حتى على الخليفة ، ولا تضحون بشعرة منى بكل ملكه »

فضحك ضحكة تَهكُّم ، وقال : « هل قال لك ذلك ؟.. هل صدقته ؟.. لا .. لا .. كيف نخرج من أسر أمير المؤمنين ؟.. كيف ننكر فضله علينا ؟.. اننا مدينون له بحياتنا » قال ذلك وتنحنح.. ونظرت لمياء فى وجهه فرأت فى عينيه معنى غير الذى نطق به لسانه . والعين أصدق تعبيرا من اللسان ، فعلمت انه يتهكم ولكنها تجاهلت وقالت : « لقد حيرتمونى فى أمرى .. فأصبحت لا أدرى من أصدق »

ونظرت الى والدها فرأت الغضب فى عينيه ، وهما تكادان تقدحان شررا ، وشاربه يرقص فى وجهه . وقد تعودت ذلك فيه اذا اشتد غضبه ، فتملكتها الهيبة وأثرمنظره فيها . وتوقعت أن تسمع جوابه فرأته قد نهض مسرعا وهو يتعثر بحمائل سيفه وأردان جبته.. ومشى على البساط مشية ملك يخطر تيها وعجبا ، وليس فى قدميه نعال ، وكان قد نزعهما بباب الفسطاط كالعادة . فالتفتت نحوه وهى ترقبه وتنظر خلسة الى الرجل الملثم .. وقد ازدادت دهشة ولبثت صامتة ، ووقع نظرها على أبى حامد فرأته

ينظر اليها ويشير بسبابته على شفته السفلى أن « اسكتى لنرى»

- ١٦ -

عز الملك

أما حمدون فبعد أن خطر مرتين ذهابا وايابا وهو يلاعب شاربه ، وسيفه يجر على البساط ، وقد انحرفت عمامته من مكانها ولم ينتبه لها من الغضب ، وقف بين يدى لمياء وقال : « لمياء يالمياء .. الى متى تتجاهلين ومثلك لايحتاج الى ايضاح ، هل تصدقين أن أباك أمير سجلماسة سلالة آل مدرار السادة الفاتحين يرضى بمصاهرة عبد صقلى يباع أمثاله فى الأسواق بدنانير قليلة ؟ هل صدقت اننا نعيرطلب صاحب القيروان التفاتا» . وانما قد وافقناه حتى يتيسر لنا ما نريد .. لا تكونى ساذجة وأنت ابنة حمدون صاحب سجلماسة قائدة الجند فى ساحة الحرب . ما أسرع ما نسيت مجدنا وملكنا نحن أصحاب سجلماسة السادة الفاتحين ؟ لايغرنك ما أتيح لهم من النصر ، انها فلتة لا تستمر الا ريثما توافقيننى على ما أطلبه منك .. فيذهب ملكهم ونسترجع ملكنا ، ونخضعهم لسيوفنا » .. قال ذلك وهو يرتعش من الغضب ..

فتحمست لمياء وعادت اليها روح السيادة وحب الرئاسة ، وتأثرت مما ظهر من تحمس والدها ، لكنها أعملت فكرتها فلم تجد كلامه مبنيا على شىء واضح ثابت ، لعلمها انهم هناك كالأسرى عند المعز لدين الله ، وان جند والدها وان كثر لا يعد شيئا الى جانب جند المعز وأتباعه . ولكنها أذعنت لقوله بنفوذه الأبوى ،

فان الولد كثير التصديق لما يسمعه من والده ومعلمه ولو كان مستحيلا . ومع ذلك فهى لم تفهم حقيقة ما يريدونه من ذلك التناقض فقالت : « صدقت يا أبتاه .. وهل ترى وسيلة لارجاع ما كان الى ما كان ، انى أبذل روحى فى هذا السبيل »

فلما سمع قولها أكبَّ عليها ، وضمَّها الى صدره ، وقبَّل رأسها ، وابتسم ابتسام من فاز بضالة كان يبحث عنها وقال : « بورك فيك من ابنة عاقلة .. انك جديرة بأن تكونى ملكة سجلماسة ، والملك سيئول طبعا اليك اذ ليس لى أبناء سواك »

فأخذتها عزَّة الملك ، وشغلتها عن انعطافها الى المعز وأهله ، وتذكرت ما كانت فيه من الرفعة والكلمة النافذة ، وكيف كانت الرءوس تطأطىء لها واللحى ترتجف تهيبا منها .. فنهضت عن تحمس ووقفت بين يدى والدها قـائلة : « انكم تخاطبوننى بالألغاز والأحاجى . ما معنى هذا التناقض ، قل يا أبتاه ما الذى تريدونه منى ؟.. وقبل كل شىء أحب أن أتحقق من عدولك عن الرضا بطلب المعز لدين الله »

قال والدها : « أما هذا فلا .. لا أعدل عنه . انها فرصة لاينبغى أن نضيعها .. انها فرصة ثمينة لتحقيق أهدافنا »

فلم تفهم قصده فقالت : « كيف تريدون أن أكون ملكة فى سجلماسة وتطلبون الىَّ أنأتزوج أحد أتباع صاحب القيروان؟»

فقطع كلامها قائلا : « لا أعنى أن تتزوجيه .. ان باعه أقصر من ذلك كثيرا .. كيف تتزوجينه وسالم حى ؟.. لو بلغ ذلك سالما ماذا يقول عنا ؟.. بل ماذا يقول عنك وأنت راعية الجواد

صاحبة السيف حامية حمى آل مدرار .. أنا لا أعنى حقا ، قبولك أن تتزوجي ذلك الرجل .. ولكننا نريد أن يكون قبولك لاسترجاع ملكنا بطريقة سأشرحها لك ، وانما أريد أن أعلم قبل كل شيء هل فهمت مرادى ؟ »

قالت لمياء : « لم أفهمه بعد »

قال والدها : « ان مرادى أن تتخلص من صاحب القيروان وقائده . واذا تخلصنا منهما لايبقى فى افريقيا كلها من يقف فى سبيلنا أو يمنع سيادتنا .. »

قالت لمياء : « وكيف نتخلص منهما ؟ »

قال ، ويَدُه على قبضة حسامه ، كأنه يستله : «نقتلهما»

فأجفلت وتراجعت واستغربت هـذا التصريح ، وهى تعرف تهور والدها واندفاعه ، ولم يكن يخطر لها انه يتصور قدرته على هذا العمل ، ولكنها اعتقدت انه لايقول ذلك الا وهو على ثقة من قدرته عليه.. فالتفتت الى أبي حامد ، وكان لايزال جالسا ويداه متشابكتان وقد أطرق كأنه يفكر باهتمام . ثم حولت نظرها الى الرجل الملثم بجانب العمود وقالت فى نفسها : « من عساه أن يكون هذا الملثم الذى شهد هذا التصريح الخطير.. لابد أن يكون من الأقرباء» وخطر لها أن يكون سالما نفسه .. وحين خطر لها هذا الخاطر خفق قلبها ، ولم تعد تستطيع صبرا على استطلاع الحقيقة ، فنظرت الى والدها وكان قد عاد الى التمشى .. فسارت نحوه حتى قبضت على يده ، وقالت بصوت ضعيف : « أراك تقول ما تقوله على مسمع من هذا الملثم .. فمن هو ؟ »

قال والدها : « ستعلمين حالا.. ولكن بعد أن توافقيني على ما قلته لك ، انى لم أعد أستطيع صبرا على الذل .. يكلفوننا اذا دخلنا على صاحب القيروان أن نحييه تحية الامارة ، وأن نؤمن على كل ما يقوله ، وأن ندعو له بطول البقاء ، وأن نقول له بأننا عبيده الطائعون ، واننا سنضرب بسيفه ونجاهد فى سبيله ، وانه صاحب الحق فى الخلافة .. وانه من نسل فاطمة الزهراء و.. و.. ان ذلك فوق طاقة البشر . نحن أصحاب سجلماسة من أجيال متوالية ، وقد تأصلت السيادة فى عروقنا فلا نستطيع احتمال هذا الذل .. فاما النصر ، واما الموت .. »

فازدادت لمياء تحمسا بهذا القول ، وتناست كل شىء فى سبيل العودة الى مجدها وعزها .. وسرَّها فوق ذلك انهم لا ينوون اكراهها على قبول ابن جوهر بدلا من سالم حبيبها . فاقتنعت بهذه النتيجة وفرحت ، ولكنها لم تفهم سر ذلك التناقض .. اذ يريدونها أن تقبل الزواج بالحسين وهم لايسمحون بشعرة منها له ، فكيف يتفق ذلك .. فقالت لوالدها : « ان ما تطلبه ياسيدى هو غاية مرادى ، ولا بد من أن تتحيَّن الفرص لتحقيقه .. أما الآن فأرجو أن توافقنى على التخلص من طلب المعز ليطمئن بالى .. »

فقطع كلامها قائلا : « لن تسنح لنا فرصة أفضل من هذه »

قالت لمياء : « وأية فرصة تعنى ؟ »

قال والدها : «قبولك لما طلبه صاحب القيروان . وقبل اتمام الزواج تذهب روحه وروح قائده وابن قائده .. والسلام» قال

ذلك بعجلة ومشى مسرعا الى مجلسه ، وجلس وهو يفتل شاربه وتركها واقفة متحيرة .. فأدركت بعض مراده ولاحظت انه يريد أن يتخذ العقد عليها ذريعة للفتك بالمعز وقائده وابن قائده ، ولا يكون ذلك الا غيلة..فأجفلت ولكنها تجاهلت، ولم تشأ أن تباحثه فى التفاصيل ، وانما وافقها على التخلص من الزواج بغير سالم .. وعادت الى التفكير فى ذلك الملثم وهو واقف كالصنم لا يتحرك ، فاقتربت منه وتفرست فى عينيه ولم يكن ظاهرا من وجهه سواهما ، وقد وقع نور المصباح عليهما فأبرقتا .. ولم تتفرس فيهما الا قليلا حتى اختلج قلبها فى صدرها وصاحت : « سالم .. »

فمد يده الى اللثام وأزاحه فاذا هو سالم بعينه .. فلما ظهر وجهه خجلت وأطرقت وتسارعت دقات قلبها ، وخارت قواها على عادتها معه ، وغلب الحياء عليها وأخذتها البغتة لأنها لم تكن تحسب أن سالما فى تلك الديار .. فتراجعت وأطرقت

— ١٧ —

التحريض

وكان سالم شابا جميل الخلقة ممتلىء الجسم، وكانت قد أحبته كثيرا فهى ترى فيه — طبعا — كل الحسنات ، ولا ترى فى الدنيا أجمل منه.. وكانت قوية الارادة مع كل إنسان الا معه ، فانها كانت أطوع له من بنانه . فلما كشف عن وجهه وأطرقت قال لها : «بورك فيك يالمياء ..كنت أعتقد انك تحبيننى ، ولكن ليس الى هذا الحد . ولا فضل لك فانى أحبك مثل هذا الحب وأكثر .

ولكن حبنا لا فائدة منه ان لم نسترجع مجدنا أو بالحرى مجد والدك وسلطانه .. بعد تنفيذ الخطة التى يرسمها لك »

فلم تتمالك أن صاحت فيه : « وأنت أيضا تريد أن أرضى بما عرضوه علىّ .. لقد عرضوا علىّ أن أكون لرجل سواك .. »
قالت ذلك وهى تتوقع منه أن ينكره ويعترض عليه ، فاذا هو يقول : « أريد ذلك مؤقتا .. نعم أريد أن تظهرى قبولك له ونحن ندبر ما يلزم فى حينه » ومشى حتى جلس بجانب عمه أبى حامد وأشار الى لمياء أن تجلس

أما هى فشغلها فرحها بتلك المقابلة عن كل خطر تتوقعه .. ودهشة اللقاء تنسى المحبين كل شىء لاشتغال عواطفهم بالحاضر عن سواه ..

ورأى أبو حامد أن الثمرة حان قطافهـا فبادر الى اتمام معداتها ، فتزحزح من مكانه كأنه يستعد لحديث طويل ونظر فى أطراف الخيمة ولسان حاله يقول : « هل يسمعنا أحد ؟ » فقال حمـدون : « انت فى مأمن يا أبا حامد لأنى أمرت الحرس بالوقوف بعيدا ، وأن يمنعوا أيا كان من الوصول الينا »

فمسح شاربه ولحيته بأنامله ، ونظر الى لمياء باهتمام وقال لها : « قد وصلنا الآن الى الذروة يا لمياء .. هذا هو سالم صاحب الشأن ، وقد سمعت قوله ــ أنا غريب عن آل مدرار وان كنت صديقا لهم ــ ولكننى مستعد أن أبذل حياتى فى سبيل نصرة الحق ومقاومة أولئك الخونة الذين نالوا هـذه السيادة بالغدر والنفاق كما تعلمين.. فلا يغرّك ما يبدونه من التقشف بالملابس

والأثاث ، فان الذهب عندهم بالقناطير وانما يموّهون على الناس ليكسبوا عطفهم ، ثم يفتكون بهم كما فتكوا بأبى عبد الله الشيعى وتنهد ثم عاد الى الكلام فقال : «وهذا والدك صديقى الأمير حمدون أولى الناس بالامارة ولا حاجة به الى دعوى كاذبة مثل دعواهم من الانتساب الى فاطمة الزهراء ، وانما يكفيكم الانتساب الى آل مدرار وشرفهم معروف لايختلف فيه اثنان .. لاتظنى أن هذا التفكير وليد الساعة عندنا ، ولعل والدك لم يصرح لك به .. ولكننا بحثنا فيه ونحن فى سجلماسة ودبرنا المهمات اللازمة للتغلب على افريقية كلها ، ففسد تدبيرنا لأسباب قهرية وأفلح ذلك الصقلى وتغلب علينا ، ولكن فوزه لاينبغى أن يضعف عزمنا عن طلب حقنا .. وقد تتوهّمين ان رجالنا أضعف من أن يستطيعوا محاربة جند القيروان ، ان ذلك صحيح بحسب الظاهر وقد ينخدع به غير العارف ، أما أنا فأؤكد لك ان هؤلاء الأمراء والمشايخ من كتامة وصنهاجة الذين يظهرون الطاعة لهذا الرجل انما يفعلون ذلك تملقا له ، وهم يتوقعون فرصة للخروج عليه ، ولابد من واحد يبدأ بهذا العمل فيتبعه سائر الأمراء وتكون السيادة له . فأحب أن يكون ذلك الشرف لوالدك فانه أعرقهم حسبا ونسبا فلا يكاد ينهض حتى ينهضوا معه.. فكيف اذا دبرنا وسيلة لقتل المعز وقائده وهما روح تلك القوة الوهمية .. ان القوم كلهم سوف ينضمون الينا حتى أهل الخليفة أنفسهم ، لأنهم ناقمون متحاسدون » وتنحنح ومسح شاربه بمنديله ، وتشاغل بذلك لحظة وهو ينتظر ما يبدو من لمياء

أما هى فكانت قد غلبت عليهـا شـهوة الشرف ، وحب الاستقلال وتذكرت ماكان لها من السيادة والأبهة فى زمن والدها.. فغشى ذلك على احترامها للمعز وحبها لأم الأمراء .. وكان أبوحامد صاحب نفوذ فى حديثه ، وسلطان فى برهانه ، فأقنعها كلامه ورأت الحق فى جانبه وتأثرت به حتى شغلها عن وجود سالم هناك . لكنها ظلت ترى صعوبة ذلك العمل .. فبقيت صامتة لتسمع بقية الحديث وترى ما يراه سالم .. وأدرك أبوحامد ما فى خاطرها فقال : « انى أوجه الكلام لك يا لمياء لعلمى انك عاقلة وعليك المعوّل فى هذا الأمر.. فلا تغرّك كثرة جند القيروان للأسباب التى ذكرتها .. وعندنا مع ذلك جند يظهر عند الحاجة ، وعندنا أموال مدفونة لو أخرجناها لدهش العالم من كثرتها ، وهى معدّة قبل ولادتك ، وولادة سالم ، لمقاومة هؤلاء الغادرين وارجاع الملك الى أصحابه. وليس فى افريقية أولى به من والدك»

فظهر لها من كلامه أمور كانت قد عرفت بعضها من أحاديثها مع سالم قبل الأسر .. والمحب لا يؤتمن على سر لايبوح به الى حبيبه ، فاذا شئت أن يبقى سرك مكتوما فاحذر أن تستودعه محبا.. لكنها تظاهرت أنها لم تكن تعلم بشىء من هذا القبيل الا فى تلك الساعة ، ونظرت الى والدها فرأته ساكتا، والتفتت الى سالم فاذا هو ينظر اليها كأنه يتوقع أن يسمع رأيها فقالت : « انكم تسعون فى أمر هام تقطع دونه الرقاب وتزهق النفوس ، ولكن بذل الحياة فى هذا السبيل لذيذ.. انى ياعماه أبذل حياتى اذا كان فى بذلها مصلحة لوالدى . على انى أستميحكم عذرا فى كلمة

أقولها وان كنت فتاة ضعيفة العقل.. ان ما تسعون اليه من جمع كلمة القبائل تحت سلطان رجل واحد ، لم نسمع انه تم لغير الخلفاء أصحاب النسب فى قريش. ان الناس لا يخضعون لسواهم ، حتى صاحب القيروان لم يصل الى ماوصل اليه الا بهذا النسب ، سواء كان صحيحا أو غير صحيح.. وبغير ذلك لا يتم شىء و .. »

فقطع أبو حامد كلامها وهو يضحك ضحك الاعجاب بتعقلها وسداد رأيها وقال : « بورك فيك من حكيمة عاقلة . قد أثرت ناحيـــة لم يفطن اليها أحد سواك .. ولا ينتبه لها غير العقلاء الدهاة . صدقت ان الأمراء لا تجتمع كلمتهم الا باسم الدين ، وهذا أمر قد دبرناه وخابرنا بشأنه خلافة أرسخ قدما وأصدق نسبا من هذه .. كونى مطمئنة ، لم يبق الآن الا خطوة واحدة ، وهى أن تتخلص من هذين الرجلين وثالثهما اذا أمكن ، وهذا لا يتم الا على يدك . لا أطلب اليك أن تباشرى ذلك بنفسك وانما يطلب منك أن تظهرى انك رضيت بابن جوهر ، ونحن ندبر ما بقى ونقول ما ينبغى »

فأطرقت هنيهة تفكر فيما رأته من الغرائب فى تلك الليلة ، وكيف أتت وصـــدرها مملوء بالاعجاب بالمعز والاخلاص له ولامرأته ، وما لاقاها به الحسين بن جوهر فى الطريق من دلائل التعفف وصـــدق المودة .. وهى الآن تكاد تتآمر على قتلهم . فأجفلت وظهر التردد فى عينيها ، فبادرها سالم بالحديث قائلا : « لم أكن أشك انك لو طلب منك أن تقتلى ذلك الرجل بيدك فى سبيل ارجاع سلطة والدك لفعلت ، فكيف وهم لا يطلبون سوى

سكوتك ورضاك .. أطيعى لئلا يقال انك وقفت حجر عثرة فى طريقهم ، وأنا على يقين انهم ظافرون . وسترين ان مايبدو لك من مظاهر القوة عند هؤلاء العبيديين انما هو سحابة صيف »

وكان لكلام سالم وقع خاص على أذنى لمياء ، ولو طلب منها أن ترمى نفسها فى النار لفعلت . فلم تجد بدا من اظهار الرضى واعتقدت انهم على صواب ــ ومع ذلك تركت الأمر للمستقبل فان الوقت يفعل ما تعجز عنه حيل الرجال ــ فقالت لسالم : « انما كنت أتمنع رغبة فيك عن سواك ، فاذا كنت تريد ذلك فأنا فاعلة »

فقطع كلامها متحدثا بلغة الحب وقال : « لا أعنى أن تقبلى الى النهاية .. ولكن اقبلى فاذا لم أستطع أن أقطع الحبل قبل أن يمسكوا به فما أنا أهل للظفر بك .. وتكونين قد ظفرت بأعظم شاب عندهم .. » قال ذلك وتنحنح وابتسم ، متظاهرا بالمداعبة .. وهو فى الحقيقة يعنى ما يقول .. وهو الواقع

ــ ١٨ ــ

العودة

فتصدى والدها عند ذلك ، وقد سرّه اقتناع ابنته فقال : « بورك فيك يا ابنة صاحب سجلماسة .. انهضى الآن وارجعى الى قصر المعز اذا شئت ، ومتى سئلت عن الرضى بالخطبة فقولى انك رضيت لأن أباك وأمير المؤمنين رضيا .. أفهمت ؟ هل أوسل معك من يوصلك الى المنصورية .. قصر المعز ؟ »

فنهضت وهى تقول : « لا أحتاج الى أحد »

فاعترض سالم على ذلك ، وقال : « كيف تذهبين وحدك فى هذا الليل ؟.. سوف أرافقك الى هناك »

فتذكرت انها لا تلبث عند خروجها من معسكر أبيها أن تلتقى بالحسين بن جوهر ، فكيف تجمع بين المتنافسين ؟.. فألحّت على سالم أن لايرافقها لا هو ولا سواه لأنها أتت وحدها وتعود وحدها ، وهى متنكرة بملابس خدم القصر ولا يثير مظهرها الشك . فقال لها أبوها : « ومع ذلك لا بأس من ارسال بعض الحرس فى أثرك ولو عن بعد لأننا لا نعلم ما يحدث »

فاستحلفته أن لايفعل فسكت وقبّلها وودعها ، وودعت سالما والعم أبا حامد ، ولكل منهم وداع خاص بصورة معينة ، وأصلحت هندامها وخرجت ، وقد اشتد الظلام والأرض خالية بين المعسكرين لا أنيس فيها .. فمشت حتى خرجت من معسكر والدها ، فما لبثت أن رأت شبحا يقترب نحوها عرفت انه الحسين ، كان فى انتظارها وجاء لمرافقتها الى المنصورية .. فأحست عند رؤيته بوخز فى ضميرها واحتقرت نفسها لأنها كانت منذ ساعة صادقة اللهجة شريفة النفس ، لايخامر ذهنها غش أو خداع ، وهى الآن تخادع وتغش . وهذا الشاب ينبغى أن تظهر له انها تريده مكرا وكذبا ، وأصبحت تعد نفسها كالمتآمرة على قتله وقتل والده والخليفة المعز الذى يسهر على سلامته ويفديه بروحه .. مرت هذه التصورات فى ذهنها مرور البرق والحسين يمشى نحوها .. فلما اقترب منها حيّاها باحترام ، ولم يزد على

أن مشى بجانبها كالخادم الموكل بمرافقة مولاه الى مقصد . فأكبرت منه هذا التلطف ولم تتمالك أن قالت : « لقد أتعبت نفسك ياسيدى فى الانتظار طويلا فى هذا الليل »

قال وهو يماشيها على مهل : « لم أتعب نفسى ياسيدتى فان ذلك فرض عليَّ بل هو من بواعث سرورى .. كيف وجدت والدك الأمير ؟.. عساه أن يكون بخير ؟ » قال ذلك وهو يشير الى ما كان يتوقعه من أن يطلعها على خبر خطبته اياها ، ولم يكن يشك فى انها ستفرح به وتحسب نفسها سعيدة

وأدركت هى غرضه من ذلك السؤال ، وأثر فيها تلطفه كثيرا فقالت : « ان والدى بخير والحمدلله» وكانت تريد أن تزيد على ذلك انه شاكر راض وانه مشمول برضى أمير المؤمنين .. فلم تشأ أن تكذب ، فاقتصرت على هذا الجواب المختصر.. فحمل ذلك منها محمل الحياء وعمد الى مداعبتها فقال : «يسرنىأن يكون والدك مسرورا ولكن يهمنى أن تكونى أنت مسرورة أيضا »

ففهمت مراده وشعرت بصدق طويته وخلوص نيته فىحبها ، وكيف تضمر هى غير ما تقول ، فعظم ذلك عليها وشعرت بصغر نفسها وتلجلجت ، لكنها تجلدت وأجابت : « وأنا أيضا مسرورة لما حدثتنى به من اهتمام أمير المؤمنين وأم الأمراء .. انها فى الحقيقة قدوة الأميرات حفظها الله »

وأراد الحسين أن يغتنم تلك الفرصة لمخاطبتها بصراحة فى أمر الخطبة ، وليس هناك من يسمع .. ومهما يكن من تحجب الفتيات عن طلابهن أمام الناس ، فاذا خلت احداهن بخطيبها

يرتفع الحجاب ويتشاكيان . ولم يجد الحسين فرصة أثمن من هذه ، ولا أوفق منها وهما فى غفلة عن الرقباء . ولم يكن يشك أبدا فى ان أباها قد فاتحها فى شأن خطبته ، وانها رضيت ولكن الحياء يمنعها من التصريح ، فعمد الى تشجيعها فقال : «أتشعرين يا لمياء بالسرور الذى أشعر به أنا ؟ »

فشق عليها أن يفاتحها بالمناجاة وأحاديث الغرام ، وهى فيما علمت من التردد والارتباك فقالت : « لا أعلم مقدار سرورك ولا نوعه ولكننى أعلم انى مسرورة من حسن وفادة أمير المؤمنين وأم الأمراء » وأظهرت البغتة وهى تقول : « أظننا صرنا على مقربة من المنصورية ، فانى أرى أنوارها .. أشكرك شكرا جزيلا على تنازلك ياسيدى فقد أتعبتك » وهمّت بفراقه

فقال الحسين : « لا نزال بعيدين عن تلك المدينة ؛ وان كنت ترين أنوارها ، فلا تتعجلى فى الفراق .. الا اذا كنت قد أثقلت عليك فى الحديث ، ولعلّى اتجهت الى ما هو أبعد مما يجوز لى .. سامحينى » قال ذلك بلهجة العتاب

فخجلت لمياء وودت لو أنها لم تقابل أباها فى تلك الليلة لأنها كانت تعرف ماتجيب به على تلك الأسئلة فى صراحة. فربما أجابت أنها تحبه وتحترمه ولكنها مخطوبة لسواه . أما الآن فمع اعتقادها أنها كذلك فهم يطلبون منها اظهار رضاها به . وقد يسهل عليها الجواب اذا سألها الخليفة أو أم الأمراء ، وأما هو فيصعب عليها الكذب عليه ، وهى تشعر بأنه يحبها من كل قلبه ، فكيف تخادعه ؟.. ولما سمعت عتابه غلب عليها طيب عنصرها فقالت :

« العفو ياسيدى .. انك تبالغ فى توبيخى ، فهل أسأت الأدب فى خطابك ؟ .. أو كان ينبغى لى أن أعرف حدى فأقف عنده »

فغلبته فى العتاب ، وأحس انه أساء اليها وجرح احساسها بكلامه ، فقال : « انى لا أستحق هذا التقريع يا لمياء .. وانما أنا أحتال فى سماع كلمة تدل على رضاك وكفى »

— ١٩ —

مصـــادفة غريبة

فلم تجد لمياء خيرا من السكوت .. لأن الكلام يجر الكلام وهى لا تعرف ما تقول ، وسكت هو تهيبا من سكوتها.. وبينما هما فى تلك الحالة ، اذ سمعا وقع حوافر فرس مسرع وراءهما ، فالتفتت فرأت فارسا قادما من معسكر أبيها ، ولم يقترب منها حتى علمت انه سالم ، فأجفلت من ذلك الاتفاق الغريب ، وخافت على سالم أن ينكشف أمره لأن أهل قصر المعز يعلمون أنه غائب. والمعز يحب أن يقبض عليه .. وهو لم يلحق بها الا مبالغة فى اكرامها لتثبت فى وعدها ، وهم يبنون على ذلك الوعد القصور ، ولكنه أظهر انه جاء ليحرسها . فلما رأى الحسين بملابس الحرس ، وهو يمشى فى خدمتها ، ظنه من الحراس ولم يخطر له مطلقا أنه الحسين بن جوهر نفسه.. فوقعت لمياء فى حيرة ، لكنها تجاهلت.. أما الحسين فالتفت الى الفارس وصاح فيه : « مر أنت ؟ »

فقال سالم : « وما يعنيك من أمرى ؟ سر فى طريقك »

فقال الحسين : « بل يعنينى .. قف حالا »

وكان سالم قد وصل الى لمياء فلم يجبه ، لكنه خاطب لمياء قائلا : « لمياء من هذا الرجل الذى تسايرينه ؟ »

فارتبكت فى أمرها ، وهى لا تعلم : هل يريد الحسين أن يذكر اسمه ، أم يجب أن يبقى خافيا .. فتلجلجت فى الجواب لحظة ، وهى تنظر الى الحسين كأنها تنتظر أن يكون الجواب منه

أما هو فاستغرب خطاب الرجل بهذه الدالة على لمياء مما لا يكون الا بين الأقرباء ، فتبادر الى ذهنه انه من أقاربها الأقربين ، فخفف غضبه اكراما لها وسألها قائلا : « من هذا ؟ لعله من بعض أهلك ؟ »

قالت لمياء : « نعم ياسيدى انه من أبناء عمى ، ويظهر انهم رأونى ماشية مع رجل لا يعرفونه .. فجاء أحدهم لنجدتى »

فوجّه الحسين خطابه الى سالم قائلا : «لاتخف ياصاحبى انى صديق محب ، وأنا فى خدمة ابنة عمك حتى أوصلها الى مأمنها »

فلم يرضَ سالم بهذا الجواب لأن لمياء متنكرة بملابس الصقالبة ، فكيف تأتّى لهذا الرجل أن يعرفها ويسير معها على انفراد ؟.. فسبق الى ذهنه سوء الظن فقال : « من أنت ياصاحب؟ لعلك متنكر مثلها .. ومن أخبرك أنها فتاة ، وأنها لمياء ؟.. »

فتقزز الحسين من لهجته فى خطابه ، وهمّ أن يخبره عن حقيقة حاله ، لكنه فضل الكتمان حفظا لكرامة لمياء ، فقال : « أنا أيضا فى خدمة قصر أمير المؤمنين ، وعرفت بخروجها فى مهمة الى والدها الأمير فجئت لمرافقتها فى ذهابها وانتظرت عودتها ، وها أنا ذا معها الى مأمنها كما قلت لك »

فاستحسنت لمياء منه هذا الأسلوب وتوقعت أن ينتهى الجدال لـكنها ما لبثت أن رأت سالما قد ترجّل عن جواده ، وهو لايزال ملثّما ، ووقف بين لمياء والحسين ، وولّى وجهه نحوها ، وقال لها : « لا حاجة الى مماشاة الخدم ، انى أسير فى خدمتك .. ألم أقل لك انى مزمع على مرافقتك فأبيت ؟ »

فتجلدت وهى تخشى أن يغضب الحسين لهذه الجسارة ، وقالت : « لم أرض أن يأتى أحد معى منكم لأنى على يقين من وجود هذا الرفيق » قالت ذلك ومشت فمشى سالم بجانبها بينها وبين الحسين وهو يقول : « لماذا لم تقولى لى عنه من هناك ؟ »

فاستثقلت ذلك الاعتراض ، وتحيّرت فى أمرها ، وقالت : « لم أجد حاجة الى ذلك »

قال سالم : « كيف ؟ انك بنت الأمير حمدون صاحب سجلماسة ، ولا ينبغى أن يستهان بك .. وأن يكون رفيقك فى هذا الطريق المظلم أحد الغلمان ، قولى له أن ينصرف وأنا أسير معك »

فارتبكت فى أمرها وخشيت أن يغضب الحسين ، ويؤدى الجدال الى القتال أو الى كشف أمر سالم .. وأخذت ترتعد من التأثر وهى لا تدرى ماذا تعمل ، فأجابه الحسين برزانة ولطف قائلا : « ان مسيرك معها لايخلو من الخطر عليك ياسيدى لأن حراس المدينة سوف يشكّون فى أمرك ، وربما آذوك أو قبضوا عليك »

فضحك ضحكة الاستهزاء وقال بتهكم : « لا .. لا يقبضون علىّ ، فأنت لا تعرف من أنا .. سر فى طريقك ودعنى »

قال ذلك ومشى وهو يقود الجواد وراءه ، وأومأ الى لمياء أن تتبعه .. فأغضبها عناد سالم ، ولم تعرف كيف تتخلص من هذه الورطة ، وهى تتوقع أن يغضب الحسين ويفتضح أمرها . فرأته ظل ساكتا ، فعلمت انه سكت اكراما لها وصيانة لشرفها لئلا يقال انهم رأوه معها فى ذلك الظلام .. فتراجعت وقالت لسالم : « لا حاجة بى الى من يحرسنى ، وخاصة لأنى صرت على مقربة من السور .. بالله الا رجعت وتركتنى أسير وحدى »

فلم يجبها بل ظل ماشيا ، وظل الحسين واقفا مكانه لا يبدى حراكا .. ولم يمشيا قليلا حتى سمعا دبدبة وقرقعة ، واذا بكوكبة من الفرسان خارجين من السور مسرعين نحوهما فقالت : « لماذا فعلت بنا هذا يا سالم ؟ اننى أخاف عليك .. لأن الأوامر مشددة فى القبض على من يرونه خارج السور ، وأنت تعلم ان القوم يطلبونك فلا أحب أن نفتح بابا للقيل والقال .. أقسمت عليك أن ترجع من هنا .. اركب جوادك الى معسكر والدى »

فعظم عليه قولها واستخف باندارها وقال : « انهم لن يدركوا منى وطرا »

قالت لمياء : « ولكنهم ربما آذونى بسببك .. بالله ارجع .. ارجع .. رباه ما هذا العناد .. ! »

- ٢٠ -

الشهامة

والتفتت نحو الحسين فلم تره ، فظنت أن الظلام قد حجبه لبعده ، فوقفت وأعادت التوسل الى سالم أن يرجع فأبى خجلا من نفسه أن يفر .. فازدادت حيرتها ، وقد دهمها الوقت لأن الفرسان وهم عشرة أصبحوا على مقربة منها . وتقدم واحد منهم وصوّب سنان رمحه نحوهما ، وقال : « من أنتما ؟ »

فتصدت لمياء لهم وقالت : « انى رسول أمير المؤمنين كما تعلمون .. »

فقال الفارس : « ومن هذا ؟ » وأشار الى سالم

فقالت لمياء : « هو أحد فرسان الأمير حمدون جاء لمرافقتى فى هذا الطريق »

قال الفارس : « قد ذهبت بالرسالة بلا حارس .. وكيف يحتاج غلام أمير المؤمنين الى من يحرسه فى بلده . وقد يكون هذا الرفيق جاسوسا فلا بد من القبض عليه » قال ذلك وأشار الى رفاقه الفرسان فأحاطوا بسالم وقد صوبوا الأسنة نحوه ، وأمروه أن يمشى أمامهم . وتقدم اثنان منهم ليأخذوا الفرس منه

أما سالم فأفلت منهما وصاح : « اخسأوا .. لن يقترب منى أحد الا أرديته » وهمّ أن يستل سيفه .. فصاح فيه كبيرهم قائلا : « لا تتعب نفسك فى المحال ، انك فى قبضتنا ولا نريد بك سوءا وانما نطلب اليك أن تدخل معنا وتمكث عندنا الى الصباح ،

فنعرضك على القائد جوهر ، فاذا أمر باطلاقك أطلقناك »

فوقع الرعب فى قلبه وندم لأنه لم يصغ لنصيحة لمياء ورفيقها ، ولكنه أكبر الرضوخ وهو يخشى أن يكون فى القبض عليه خطر على حياته فوقع فى حيرة . والتفت الى لمياء لفتة استغاثة فتقدمت نحو الفارس وقالت : « ألا تعرفنى أيها الفارس ؟ أنا أضمن ما تريدونه .. احبسونى مكانه الى الغد وقدمونى الى القائد ، وأنا المسئول لديه عن هذا الفارس »

فقال : « قد كان ذلك ميسورا لولا ما أبداه من الوقاحة وهوملثم ، ويظهر من كلامه انه من أهل سجلماسة فلابدمن القبض عليه » قال ذلك وأشار الى سالم اشارة التهديد أن يمشى أمامهم

فقال سالم : « لن أمشى » .

فترجّل بضعة منهم وهموا أن يوثقوه ، ولمياء تتوسل اليهم أن يتركوه ، ولعلها لوكانت على جوادها ومعها سلاحها لم تبال بهم . ولكنها كانت راغبة فى التستر، ولعنت الساعة التى جاء فيها سالم. وبينما هى فى ذلك وعيناها نحو الجهة التى تركت الحسين فيها اذ بشبح يتقدم من تلك الجهة نحوها مسرعا . فعرفت انه الحسين ، فلبثت صامتة لترى ماذا يكون ، وخشيت أن يتعمد البحث عن سالم ويكشف وجهه .. لكنها رأته حين وصل الى المكان يصيح فى الفرسان قائلا : « دعوا هذا الفارس ، فانه من الأصدقاء »

فأجفلوا والتفتوا اليه وقالوا : « ومن أنت ؟ »

فتقدم خطوة أخرى حتى صار بينهم وقال : « اتركوه أنا أعرفه » فلما دنا منهم عرفوه من صوته فتأدبوا وتراجعوا ،

وتقدم رئيسهم وتفرس فى وجه الحسين وهو ملثم فلم يعرفه ، وان كان قد عرف صوته . فلما رآه الحسين يتفرس فيه أزاح اللثام عن وجهه وقال : « اتركوه »

فصاحوا جميعا : « مولانا الحسين بن القائد جوهر .. أنت هنا يامولانا ؟ » وابتعدوا عن سالم ، ورئيسهم يخاطبه قائلا : « أرجو المعذرة ياسيدى .. لم أكن أعرف ان ابن قائدنا الأكبر يعرفك » وأكب على يد الحسين يريد تقبيلها وهو يقول : « العفو ، اننا تجاسرنا .. »

فقطع الحسين كلامه قائلا : « لا حاجة الى الاعتذار فقد أديتم الواجب ، وستنالون الجوائز على سهركم .. ولكن اتفق انى أعرف هذا الفارس ، وهو من الأصدقاء .. فأطلقوا سراحه» واقترب من سالم وهمس فى أذنه قائلا : « ألم أقل لك انى أخاف عليك من حرس المدينة ، لأنهم لايعرفونك .. ولا أنا أعرفك ، ولكننى صدقت شهادة هذا الرسول .. سر فى حراسة الله » ومد اليه يده ليصافحه مصافحة الصديق

— ٢١ —

الفشل

فمد سالم يده وقد غلب على أمره ، وأخذ الخجل منه مأخذا عظيما . واستغرب تلك المقابلة وكيف التقى بالرجل الذى كانوا يتحدثون عنه ، ويدبرون المكيدة له ، وخامرته الغيرة من جهة أخرى .. ولم يفهم سببا لوجود الحسين مع لمياء غير تواطؤهما

على ذلك . وكيف يتواطآن على الاجتماع سرا فى ذلك الليل هناك وهى تزعم أنها لا تريده خطيبا لها ، فدارت الهواجس فى رأسه لكنه لم يستطع غير اظهار الامتنان من محاسنة الحسين وكبر نفسه ، وخصوصا لأنه لم يسأله عن اسمه ولاطلب منه أن يكشف وجهه ، فودعه ورجع ولم يصدق انه نجا قبل انكشاف أمره

وأشار الحسين الى الفرسان فرجعوا الى السور وتقدم الى لمياء وقال لها : « أفلت صاحبنا بلثامه وهو يعتقد اننى لم أعرفه .. وانما أطلقته اكراما لك وحرصا على كرامتك »

فأجفلت من قوله ، وأرادت أن تغالطه ، فابتدرها قائلا : « أليس هذا سالما الذى يطلبه أمير المؤمنين.. انهم يبحثون عنه ، ولو علم والدى بوجوده لبعث الجيوش للقبض عليه ، ولكننى رأيت فيك ميلا الى كتمان أمره ، فأطعتك وأخليت سبيله رغم ما أبداه من الوقاحة . لا يخامرك شك فى انى عرفته .. وكيف أجهله وقد رأيته فى حربنا مع والدك ، وتبارزنا فى سجلماسة ، وفرّ منى .. وها قد نجا الآن من أجلك ، ولكننى أطلب اليك أن تكتمى أمره .. وأحب أن لا يطلع أحد على ما جرى »

فنظرت اليه نظرة اعجاب وامتنان ، وقالت : « لقد غمرتنى بفضلك ياسيدى وأشكرك على مروءتك وكرم أخلاقك .. انها أخلاق كبار القواد .. وقد قدّرت ذلك فيك »

فمد يده نحوها وهو يقول : « انها أخلاق المحبين .. أتأذنين لى أن أصافحك وأودعك ؟ »

فلم تستطع الرفض بعد أن غمرها بفضله مع ما أبداه من

الأريحية وسعة الصدر وكبر النفس ، رغم ما كان من عجرفة سالم وخشونته ، فاحتمل منه الاهانة وصفح عنه وأنقـذه من الموت ، وهو مع ذلك يطلب من لمياء كتمان الأمر حرصا على كرامتها وكرامة رفيقها . فمدت يدها نحوه وهى لا تبدى غير الاحترام ، ولكنها شعرت عند المصافحة شعورا جديدا تمشى فى مفاصلها .. فأسرعت فى جذب يدها منه وأظهرت انه قد آن وقت انصرافها، وأشارت برأسها اشارة الوداع، وتحولت نحو المنصورية

فودعها هو بقوله : « فى حراسة الله يا لمياء »

فارقته ومشت وهى تائهة الأفكار من هول ما شاهدته . وقد قدرت مروءة الحسين حق قدرها ، وأحست نحوه بشىء غير الاعجاب والامتنان .. أحست بميل وعطف لم تشعر بهما من قبل لكنها غالطت نفسها ، وكذّبت عواطفها ، لأنها لا تريد أن يكون فى قلبها موضع لغير سالم حبيبها الأول

دخلت باب السور ، فوسّع لها الحراس لاعتقادهم انها غلام صقلبى ، من غلمان القصر، يحمل رسالة الى أمير المؤمنين . وما زالت حتى دخلت القصر وسارت توا الى غرفتها وقد انقضى معظم الليل.. فدخلت الغرفة وأغلقت الباب وراءها كأنها تفر من شبح يطاردها . فلما خلت بنفسها لم تشأ أن تنير المصباح مبالغة فى الانزواء والتستر ــ ولا باعث على التستر وهى فى مأمن ، ولكن هواجسها حدثتها بذلك ــ وقد وجدت نفسها تحاول عبثا لأنها تريد الفرار من شعور داخلى لا يحجبه الظلام ولا تمنعه الأقفال.. بل رأت الظلام يضاعف من هواجسها ويجسم خوفها .

لأنها لم تكد تجلس على الفراش حتى بدا لها سـالم بأقبح الصور.. رأته دنيئا غادرا خائنا وقحا جبانا ، ورأت الحسين شهما فاضلا واسع الصدر كبير النفس . فاقشعر بدنها وتوهمت أنها ارتكبت ذنبا بذلك التصور.. لأن سالما حبيبها الأول ، وقد أحبته وتركت كل شيء لأجله ، وعرضت نفسها لغضب أبيها والخليفة حبا فيه .. فكيف ترى فيه تلك الخسة التي جعلته يحملها على التواطؤ معه لقتل أعظم الناس قدرا وأفضلهم نسبا ومروءة . وتذكرت كيف رجع سالم فى تلك الليلة مرذولا بعد أن عرف أن خصمه هو الحسين بن جوهر . وبماذا عساه أن يعلل وجودها مع الحسين فى ذلك الليل هناك . وراجعت ما دار بينها وبين والدها وأبى حامد من الحديث ، فأظلم قلبها وودت لو أنها لم تذهب فى تلك المهمة

ولكنها صبرت نفسها الى الغد لترى ماذا يكون ، وأخذت فى تبديل ثيابها طلبا للنوم .. وكيف تنام وهى فى تلك الحال وقد تراكمت عليها الهواجس، وأحست بصدمة عنيفة زعزعت أوتار قلبها ، واضطربت لها أفكارها . وأصبحت لا تجد راحة الا فى النوم لعلها اذا أفاقت فى الصباح وجدت ما مر بها حلما مزعجا .. وكثيرا ما يتخلص الانسان من أمثال هذه الاضطرابات فى نومه وتظهر له فى الصباح أضغاث أحلام .. فتوسدت الفراش وتغطت الى مافوق رأسها ، وقضت تلك الليلة فى أشد الاضطراب والقلق

أما سالم فلما انفرد بنفسه بعد رجوعه أحس بصغر شأنه ، وعظم عليه ما أصابه من الفشل بين يدى خطيبته وخصوصا مع منافسه عليها . وكان منذ ساعة يحرضها على احتقاره واحتقـار والده

وخليفته . وزعم انه قاتلهم على أهون سبيل ليعيد الملك الى والدها فتصير هى الملكة .. وغير ذلك مما دار بينها وبينهم فى تلك الليلة .. فضلا عما أظهرته هى من التفانى فى حبه والثقة ببسالته ..

كل هذه الهواجس خطرت له ، وهو عائد على جواده يمشى الهوينى ويتوهم لفرط خجله أن الحسين يتبعه .. وأخذ يفكر فيما دار بينهما فى ذلك الموقف ، ويزن أقواله ليرى هل فرّط فى كرامته وهل له عذر مقبول فى رجوعه غير الكريم؟ وأخذ يؤول ماقاله أوماسمعه ، وينتحل الأعذار ، ويهيىء الأسباب ، ويقدّر العواقب لو أنه ظل على جسارته. فاقتنع انه أحسن بالرجوع محافظة على كرامة لمياء ، وانه لو تمسك بقوله وأراد تخليصها من أيدى أولئك القوم لافتضح أمرها.. وهى قد توسلت اليه أن يكف عن ذلك ويعود

فارتاح لهذا العذر الموهوم ــ وكذلك الانسان قد يصدق المحال تبريرا لعمله وردا لكرامته وحفظا لمنزلته عند نفسه ــ ولما اطمأن خاطره من هذه الناحية ، عاد الى التفكير فى سبب تلك العلاقة بينها وبين الحسين، حتى يصطحبها فى ذلك الليل على موعد وتواطؤ. فلما تصور ذلك اقشعر بدنه وهبّت الغيرة فى بدنه ــ والغيور سيء الظن ، ويتعاظم سوء ظنه كلما تعاظم حبه . فقد يرى أحد الرجال رجلا يخاطب امرأة فى ريبة ، فيغار منه وتحدّثه نفسه أن يعترضه ، وقد يسيء الظن به لكنه لا يلبث أن يلتمس عذرا ويحسن الظن . أما اذا كان الخطاب مع فتاة يحبها فانه يبنى الأوهام على ما رآه أو سمعه ، ويتعاظم سوء ظنه كثيرا ولا يقبل

عذرا ــ وكان سالم يحب لمياء ، ويعجب ببسالتها وجمالها ، ويرتاح الى الزواج بها ، ولكنه لم يكن يعشقها كما كانت تعشقه هى . وانما صمم على خطبتها لغرض سياسى سيظهر بعد قليل ..

– ٢٢ –
الحقيقة

دخل سالم معسكر حمدون وتجاوز فسطاطه وهو لا يشعر . وكان فى عزمه أن يعود الى ذلك الفسطاط ليقص ما رآه على أبيها .. فما شعر الا بأبى حامد قد خرج من تلك الخيمة ، وأشار اليه أن يدخل فترجّل ودخل . فرأى أبا حامد وحده هناك ، وقد احمرت عيناه وظهر الاهتمام على وجهه . وكان قد تعود أن يرى ذلك فيه اذا أطال التفكير فى أمر عظيم

فلما دخل ابتدره أبو حامد قائلا : « قد وصلنا ياسالم الى الغرض المطلوب اجلس » وأشار الى وسادة على البساط ، فجلس وجلس أبو حامد الى جانبه وهو يقول له : « أين كنت ؟ »

قال سالم : « ذهبت لمرافقة لمياء الى المنصورية .. وليتنى لم أذهب » ..

قال أبو حامد : « ولماذا ؟ »

فقصّ عليه ما جرى من لقاء الحسين هناك .. وكيف كان فى انتظار لميـــاء ، وقد رافقها على غير كلفة ولم يذكر شيئا عن فشله ..

فقال أبو حامد : « وهل ساءك ذلك ؟ »

قال سالم : « كيف لا ؟ وقد كنا منذ ساعة نحاول أن نقنعها بقبوله وهى تتظاهر بأنها لا تريده .. فكيف تكون على موعد معه ، وترافقه فى هذا الليل ؟ »

فضحك أبو حامد ضحكة مصطنعة لا تتفق مع ما كان فيه من الاهتمام وقال : « يظهر أنك لا تزال تهتم بهذه الصغائر . هل يحول ذلك الاجتماع دون غرضنا الذى أوقفنا حياتنا عليه ؟ كلا بل هو يهوّنه علينا » وخفّض صوته ، ثم قال : « أم هل نسيت الغرض الأصلى من علاقتنا بهذا الأمير المغرور ؟ »

فسكت سالم وأطرق .. كأنه يفكر فى حديث دار بينه وبين أبى حامد من عهد بعيد

فقال أبو حامد : « لا أنكر أن لمياء فتاة شجاعة وجميلة وهى تجلك .. ولكن هل خطبناها لأننا لم نجد بين نساء هذه القبائل من يليق بك ؟ انك ستجد خيرا منها ولاسيما بعد أن ننال بغيتنا ونتخلص من أولئك الخائنين .. كن رجلا واسلك كما يسلك الرجال . وانظر الى الغاية التى نحن سائرون اليها . يكفى أننا أقنعنا هذه الفتاة بأن تمهد لنا السبيل لقتـل ذلك الرجل وقائده .. فاذا قتلناهما فلا يبقى لهذا الغلام حظ من الحيـاة فتكون لمياء لك ، وعند ذلك .. » وسكت وهو يتقلب يمينا وشمالا كأنه يحاذر أن يسمعه أحد وقال : « ألا تعلم أنك متى تزوجت لمياء بعد ذلك كنت أنت صاحب القيروان ؟ »

وكان لأبى حامد سلطة عظيمة فى توجيه أفكار سالم .. فاذا قال قولا صدقه ولو كان مستحيلا ، لكنه رغب فى مزيد من

الايضاح فقال : « وكيف ذلك ؟ »

قال أبو حامد : «ما الغرض الذى كرست حياتى من أجله؟ »

قال سالم : « الأخذ بثأر أبى عبد الله المقتول ظلما .. »

قال أبو حامد : « وهل نكون قد أخذنا بالثأر ان لم نخرج هذا السلطان من أيدى هؤلاء الخونة ؟ »

قال سالم : « أنت أعلم »

قال أبوحامد : « أنا أقول لك انعظام أبىعبدالله ــ رحمة الله عليه ــ تنادينا منظلمة القبر أن نأخذ بثأره ، ونخرج الملك من أيدى هؤلاء الخائنين .. وأنت تعلم اننا كنا ندبر ذلك قبل أن يؤخذ صاحب سجلماسة أسيرا.. وكنت أحسبه رجلا يعوّلعليه فى العظائم ، فاذا هو ثرثار مغرور بنفسه يقول ما لايفعل ، وليس أهلا لغير الادعاء الفارغ.. ولا يغرك ما سمعته من اطرائىأجداده ومبالغتى فى مدحه.. فلو كان رجلا لما صار الى الأسر واضطر الى طاعة هذا الرجل . وانما أنا أداجيه لنستخدم ابنته فى تمهيد السبيل لقتل المعز وقائده فنجعله صاحب القيروان . واذا تزوجت أنت بابنته .. وليس له ذكر يرثه ، صارت الامارة اليك ، أو نجعلها اليك قبل موته بما أعددناه من الأحزاب والأموال وسائر المعدات ، وعند ذلك نكون قد انتقمنا لذلك المقتول ظلما .. »

ورغم ما غـرس فى ذهن سالم من مقدرة أبى حامد العجيبة ، لم يفتـه ما يحول دون الوصول الى تلك الغاية من العقبات فقال : « اسمح لى ياسيدى أن أستفهم عن أمر »

فقطع أبو حامد كلامه قائلا : « لا تخف ياسالم ، انى لا

أخطو خطوة قبل أن أقدر ما وراءها ، انك تقول فى نفسك كيف تنتهى مهمتنا بقتل ذينك الرجلين ، وهذه قبائل البربر من كتامة وصنهاجة وهوارة كلها من أنصارهما وهم يعدون بمئات الألوف ونحن ليس عندنا غير رجال صـاحب سجلماسـة .. ان تلك القبائل يا ولدى لم تذعن للمعز الا لتخاذل أمرائها ، وتفرّق كلمتهم ، مع اعتقادهم بصحة انتسابه الى الامام علىّ .. وهذا علىّ تدبيره ، ألا يكفيك أنى أعرف كل هذه الحقائق ؟ أم أنك تخشى أن أسىء التدبير ولا أحسن الحيلة .. ألا يكفى هؤلاء الأمراء من هذه الغنيمة أن يعود كل منهم أميرا مستقلا بحكومته ، وأن من يفوز بقتل صاحب القيروان يكون له الحق فى امتلاكها ؟ وهى ستكون حصة صاحب سجلماسـة . وهل تظن أن أهل القيروان يرمون نبلا علينا بعد قتل خليفتهم ؟.. ان رجال سجلماسة معنا ، وهم أشداء قادرون على أخذ القيروان وان لم يساعدهم أحد من سائر القبائل .. فكيف اذا ساعدوهم ؟ ! »

فازداد اعجاب سالم بدهاء عمه ، وقال : « لله درك من مَلِك قادر .. انك والله أولى بهذا الأمر منى ومن سواى »

فأسرع أبو حامد فوضع كفه على فم سالم يريد اسكاته عنوة وقال : « لا تقل ذلك .. ان هذا الملك مقدر لك ، هذه وصية امامنا المرحوم وكفى » قال ذلك ونهض وهو ممسك بيد سالم لينهض معه ، فنهض وقد تهيّب ، وودّ لو يستزيده بيانا لأنه مع طول صحبته لم يسمع منه التصريح بالوصاية . وأما أبوحامد فقال وهو يصلح عمامته : « لا حاجة بى الى أن أوصـيك

بالكتمان .. حتى الحديث الذى ذكرته لك عن لمياء والحسين .. وكن كأنك لم تر شيئا ، ثم سكت وظهر الاهتمام على وجهه ، وقال : « أما أنت فلا ينبغى أن تبقى هنا بعد هذه المقابلة ، لابد من سفرك الى مصر باكرا فى صباح الغد لمهمة مثل التى أتيت منها بالأمس .. فتقابل ذلك العبد الأسود أميرها «كافور» وتعقد معه عهدا على هؤلاء الفاطميين ، فانه يخاف منهم كما تعلم .. وسيكون عونا لنا فى تأييد دولتنا مع صاحب بغداد ، اذ لابد من خلافة ثابتة تتأيد بها دعوتنا.. أظنك فهمت مرادى ، ولاينبغى أن يعلم حمدون بهذه المساعى ولا غيرها .. هل فهمت ؟ »

فأشار بعينيه أنه فهم، وهمّ بالخروج فاستوقفه، وقال : «لابد من سفرك فى الصباح خلسة ، فانى أخشى من دسيسة عليك »

قال سالم : « سأسافر »

ثم وقف أبوحامد فجأة وقد تذكر أمرا هاما ، ونظر فى عينى سالم ، وحدّق فيهما طويلا، كأنه يستطلع ما يجول فى خاطره .. فأطرق سالم تهيبا ، فقال أبو حامد : « أخشى أن تكون قد بحت لأحد بما أعددناه فى فج الأخيـار .. فان هناك فى فج الأخيـار قوتنا التى سيتم لنا بها الأمر ، فننشىء دولة تخفق أعلامها على ضفاف النيل وضفاف الفرات »

فلما سمع قوله اختلج قلبه فى صدره لعلمه انه لم يحافظ على ذلك السر ، لكنه أسرع يطمئنه بأنه يستحيل أن يبوح بذلك السر .. فهز رأسه وقال : « كيف أبوح به وعليهمعولنا ؟.. كن مطمئنا »

فصدقه أبو حامد وقال : « اذهب الآن الى فراشــك .. ولا تثق بأحد سواى »

فهمَّ بتقبيل يده وخرج .. وظل أبوحامد وحده ، وقد أصبح بعد هذا الحديث كالجمل الهائج . وازداد احمرار عينيه حتى صارتا مثل عينى المحموم من شدة ماهاج فى خاطره من البواعث . فلما خلا بنفسه جعل يخطر فى الغرفة ذهابا وايابا ، وهو يقضم أطراف شاربه بأسنانه .. وقد جعل يديه متصلبتين وراء ظهره ، وأخذ يناجى نفسه قائلا : « رحمك الله يا أبا عبد الله .. قد آن لى أن أنتقم لك من هؤلاء الغادرين.. فج الأخيار.. فج الأخيار فى جبل ايكجان.. هناك دار الهجرة التى جعلها أبوعبدالله هجرة للأحزاب التى نصر بها العبيديين .. هى الآن هجرتنا وفيها الأموال التى ضربها أبوعبدالله عند أول الفتح.. هناك قوتنا» وضحك ضحكة الظافر وقال : « أحب أن يُبْعَثَ أبوعبدالله ويرى نجاحنا .. ولكن .. » وسكت وبلع ريقه وأخذ فى تبديل ثيابه للنوم

— ٢٣ —

وخز الضمير

أما لمياء فانها قضت تلك الليـــلة وهى تتقلب ، كأنها على فراش من شوك القتاد ، ولم يغمض جفناها الا فى الفجر ، فنامت وتوالت عليها الأحلام المزعجة ، واستغرقت فى النوم من شدة التعب حتى الضحى ، حين ســمعت قرعا على البـــاب ، فاستيقظت مذعورة وتحركت عيناها ، وتذكرت حالهــا أمس

فأسفت علىأنه لم يكن حلما.. وبادرت الى الباب ففتحته فرأت حاضنــة أم الأمراء ، ولمــا وقع بصرها عليها قالت : « كيف أم الأمراء ؟. عساها أن تكون بخير »

قالت الحاضنة : « قد استبطأتك فأرسلتنى للسؤال عنك »

فأحست بوخز ضميرها من ذلك التلطف ، لعلمها بما دبروه لزوجها من المكائد .. لكنها تجلدت وقالت : « كان ينبغي لى أن أسرع اليها فى ساعة مبكرة ، لكننى استغرقت فى النوم »

قالت الحاضنة : «لابأس ياسيدتى، فانىذاهبة لأطمئنهاعليك»

قالت لمياء : « وقولى لها انى مسرعة لتقبيل يدها حالا »

فعادت الحاضنة وعمدت لمياء الى تبديل ثيــابها ، وخرجت تطلب غرفة أم الأمراء ، ولاحظت وهى تمشى فى الدهليز أن أهل القصر فى حركة غير عادية ، كأنهم يتأهبون لاحتفال .. ثم علمت انهم يتأهبون لصوم رمضان ، فتذكرت انهم دخلوا فى شــهر رمضان وقد أصبحوا فى ذلك اليوم صائمين

وصلت غرفة أم الأمراء فرأتها جالسة على مقعد . ولما دخلت لمياء نهضت لها وهى تبتسم ، كأنها تستقبل احدى بناتها .. فلم تتمالك ، وقد سبقتها العبرات .. فدهشت أم الأمراء لبكائها ، لكنها ظنتها تبكى لأمر يتعلق بخطبتها للحسين ، وهى انما تبكى أسفا لما فرط منها فى حق الخليفة من المؤامرة ، فضمتها أم الأمراء الى صدرها وقالت : « ما بالك تبكين يابنية ؟»

فأغرقت فى البكاء ، وغلبت على أمرها ، حتى لم تعد تستطيع امساك نفسها .. فجعلت تخفف عنها ، وقالت لها : « أرجو أن

تكونى قد أخفقت فى مهمتك » وهى تشير بهذه المداعبة الى رغبتها فى زفافها الى الحسين

فتماسكت وتجلدت وقالت وهى تمسح عينيها : «نعم ياسيدتى انى لم أنجح ، والظاهر ان الله قد أراد ما أراده أمير المؤمنين »

فظهر السرور على وجه أم الأمراء ، وأجلست لمياء الى جانبها وقالت : « ألذلك تبكين يا لمياء ؟.. لاينبغى أن تحزنى وسوف تتحققين من انك نلت نصيبا حسنا . وأحمد الله لأنه قدر لك أن تكونى زوجة لهذا الشاب النادر المثال .. وبرهانا على سرورى بذلك ، فانى سأجعل لك مهرا لم تنله فتاة من أهل القيروان لأنك عزيزة علينا . ومتى علمت أنى سأقوم بتأدية مهرك يطمئن خاطرك على انه سيكون مهرا يليق بك .. وسأجعل أمير المؤمنين يهبك قصرا من قصوره الفخمة ، أزوده بأفخر أثاث وأملأه بالتحف والجوارى ، كى تنسى ذلك الرجل الذى كاد يسبقنا الى الظفر بك»

فلم يزدها هذا الكلام الا غيظا من نفسها وندما على ما فرط منها ، ولكنها تجلدت وقالت : « أشكرك ياسيدتى على هذه النعم .. انى لا أستحق شيئا من ذلك » وهى تعنى حقيقة ما تقوله . ولكن أم الأمراء حملت قولها على محمل التواضع فقالت : « بل أنت أهل لأكثر منه ، ولكن لابد من الانتظار الى انقضاء شهر رمضان ، لأننا دخلنا فى هذا الشهر المبارك من صباح اليوم ، وأظن أن أمير المؤمنين سوف يؤجل الزفاف الى عيد الفطر أو ما بعده ، وسننظر فى ذلك »

فسرها أن يطول أجل الزواج ، لعلها تتمكن خلال هذه الفترة

من تدبير طريقة للتخلص من هذه الورطة .. فظهر الارتياح على محيـاها وقالت : « انى أمتك ولسـانى عاجز عن أداء حق شكرك .. جزاك الله خيرا »

فقالت أم الأمراء : « انما يهمنى يا لمياء أن تكونى مسرورة ، وأحب أن يكون قرانك بالحسين سعيدا لأفرح أنا أيضا . وقد أخذت أشعر منذ الآن انك صرت من أهلنا ، وأصبح والدك يفضل سائر أمرائنا بحقوق القربى من قائدنا. وأنت تعلمين منزلة جوهر من نفس أمير المؤمنين فانه يفضله على كثيرين من آله وذوى قرابته . وسترين فى هذا المساء متى جلسوا للافطار عند الغروب ، كيف يجلسه بجانبه ويقربه اليه دون سائر العبيديين . ولاريب فى انه سيقرب الأمير حمدون والدك أيضا اكراما لك »

فلم تعد لمياء تستطيع سماع هذا الاطراء ، وودت لو أنها تسمع عكسه عسى أن يخف بعض ما بها من وخز الضـمير .. فأحبت تغيير الموضوع فقالت : « سـندخل الليلة فى شـهر رمضان ، جعله الله شهرا مبـاركا عليك ، وزادك من نعمه ، ومتعك بأبنائك .. ما هى العادة فى تناول الافطار عندكم ؟ »

قالت أم الأمراء : « ان أميرالمؤمنين يهتم اهتماما خاصا بهذا الشهر.. يأمر أصحاب المطابخ باعداد طعام الافطار لأهل القصر ، فتمد الأسمطة للخليفة وأهله وقواده وأمرائه ، وسائر رجال حكومته حسب درجاتهم فيأكلون معا . وتمد الموائد أيضـا للنساء من أهل هذا القصر، فأتولى أنا تدبير الطعام على أيدى الجوارى . وستكونين أنت بين من يفطرن معى .. وسـأجعل

مجلسك بالقرب منى لأستأنس بك، وكذلك نفعل فى طعام السحور أحيانا ، وأما أنت فستكونين معى طوال هذا الشهر فى السحور والفطور ، وسأريك فى ساعة الغروب كيف تمد الأسمطة وكيف يجلس الخليفة والأمراء عليها ، وسترين والدك معهم »

فشكرت لها فضلها ، وأحبت أن تستأذن فى الذهاب الى غرفتها ، فرارا من ذلك الحديث ولكى تريح نفسها .. اذ أحست بألم فى رأسها بسبب ماقاسته من الانزعاج . وزادها حديث أم الأمراء انزعاجا فتظاهرت بالتعب ، ولم تكن تحتاج فى اظهاره الى تكلف لأنه كان باديا على وجهها وقالت : « ألا تأذن مولاتى فى انصرافى ، فقد شغلتها عن شئونها.. وأنا أحس بحاجة الى الراحة»

قالت أم الأمراء : « انى أقرأ ذلك فى عينيك وهو طبيعى فى مثل هذه الحالة ، ولكننى أرجو أن تنسى ذلك بعد قليل .. »

وصفقت فجاءت حاضنتها فقالت : «أحب أن تكون عزيزتى لمياء فى غرفة قريبة من غرفتى .. قولى لقيمة القصر أن تهيىء لها الغرفة بما تحتاج اليه ، فانها ذاهبة بعد قليل للراحة فيها »

فأشارت مطيعة وخرجت ، ولم تفرح لمياء بهذا الاكرام لأنها كانت تود البقاء بعيدة على انفراد ، خوفا من أن يظهر شىء منها على حين غفلة فيفتضح أمرها .. لكنها لم تجد بدا من الثناء على ذلك التكريم ، وبعد قليل جاءت الحاضنة وقالت : « ان الغرفة مهيأة »

فنهضت لمياء وودعت أم الأمراء ، فقالت لها « سنلتقى هنا قبل الغروب » فأومأت لمياء مطيعة ومشت الى غرفتها الجديدة ،

وهى تعرف طريقها اليها ، لكنها لا تدرى ماذا تعمل .. فلما وصلت الى الغرفة رأتها أحسن أثاثا وفرشا من تلك ، وفيها مرآة جميلة من الفضة الثقيلة مستديرة الشكل . وهناك منضدة عليها المكحلة والمشط والسواك وسائر ما تحتاج اليه المرأة فى اصلاح شأنها . وسريرها من الأبنوس ، وهو مع بساطته ثمين .. وكل ما فى الغرفة ثمين وبسيط

على انها لم تنتبه الى شىء لفرط قلقها .. وحين دخلت الغرفة أغلقت بابها ، وتوسدت الفراش ، واستغرقت فى الأفكار .. وقد سرّها تأجيل الزفاف شهرا كاملا يتيح لها فرصة للتفكير والتدبير . وأخذت تفكر فى استنباط طريقة تريح بها ضميرها .. فتتقى هذه النعمة لها وتعرف حق المعز وامرأته وفضلهما عليها فلا تخونهما . ومع ذلك فهى تريد أن تحفظ كرامة والدها .. أما سالم ، فحالما تمثلت لها صورته خفق قلبها لما تذكرته من أمره بالأمس ، وكيف عاد خائبا .. وما أظهره الحسين من المروءة وكبر النفس فى شأنه ، وأحست بعطف نحو الحسين .. فكذبت نفسها وأخذت فى تحويل فكرها ، وصورته لا تغيب عن مخيلتها ، كما رأته فى آخر لحظة وهو يودعها ويوصيها بكتمان ماجرى لسالم . وقدرت تلك الأريحية حق قدرها ، وجعلت تقنع نفسها بأن ما تحس به من الانعطاف نحوه انما هو من قبيل الامتنان ، لأنها لم تكن تريد بدلا من سالم ، وهو أول من طرق حبة قلبها وهى صغيرة اذ تسرب حبه اليها تدريجيا لأنهما تعارفا منذ الصغر ، فلم يأتها الحب فجأة كما أصابها هذه المرة . ولذلك لم تقتنع بأن شعورها

نحو الحسين من قبيل الحب الذى لا يلبث أن يتمكن ، وأخذت توحى لنفسها بأنه عاطفة طارئة .. وخاصة لأنها أصبحت تنتظر ساعة الافطار بفارغ الصبر ، لكى تراه جالسا على السماط فى جملة الجالسين كما قالت لها أم الأمراء ..

— ٢٤ —

افطار رمضان

على أن التعب غلب عليها ، فنامت واستغرقت فى النوم .. ولم تستيقظ الا على أصوات المؤذنين فى العصر ، فنهضت وأصلحت من شأنها ، ونظرت الى وجهها فى المرآة ، فاذا هى قد امتقع لونها قليلا وذبلت عيناها .. فأحبَّت أن تتشاغل عن تلك الهواجس فخرجت للقاء أم الأمراء ، فرأتها فى انتظارها .. فهشَّت لها وسألتها عن صحتها . فقالت : «اننى بخير» فأشارت اليها أن تتبعها لتطلعها على ما يعدونه من أسمطة الافطار .. فمشت معها حتى دخلتا روشنا يشرف على ساحة بعيدة الأطراف ، فى جانب الحديقة ، قد نصب فيها سرادق كبير ، وأخذ الخدم فى مد الأسمطة والموائد . فأشارت اليها أم الأمراء فجلست على مقعد أمامه ستار فيه منافذ صغيرة ، تسمح للجالسين هناك برؤية كل حركة فى تلك الساحة دون أن يراهم أحد من أهلها . وجلست أم الأمراء الى جانبها ، وجعلت تقصُّ عليها ما تعودوه فى الافطار . وهى ترى الخدم يهيئون الأسمطة على شكل خاص.. أعلاها فى الصدر سماط يسع بضعة عشر رجلا يجلسون حوله

على الوسائد ، وقد وضعت عليه أنواع الأطعمة والفاكهة .. ونحو ذلك فى أسمطة أخرى بين يدى ذاك هنا وهناك ، وعليها الأطعمة من اللحوم والأفاويه ، وقد تصاعدت منها روائح البهارات وغيرها .. وكانت رائحة الند المحروق ما تزال فى أطراف الحديقة غالبة على سواها ، حتى تكامل وضع أطباق الطعام فتغلبت روائح الأطعمة وبهاراتها . واشتغل جماعة من الخدم السود فى انارة المصابيح المعلقة فى أعمدة السرادق .. أما الصقالبة البيض ، فكان أكثر اشتغالهم فى حمل أطباق الأطعمة .. ووقف جماعة منهم يحملون الأباريق الفضية ، والأقداح الزجاجية حول الأسمطة ، يسكبون الماء لمن يريد حسب الطلب..

أعد كل شيء قبل الغروب ، ولمياء تتشاغل برؤية الخدم يذهبون ويجيئون فى ترتيب الموائد ، وهى صامتة .. وشاركتها أم الأمراء فى الصمت ثم قالت : « اذا شئت أن تذهبى الى مائدتنا فهلمّى اليها فانهم يعدونها .. »

فأظهرت أنها تفضل البقاء فى مكانها ، حتى يجلس الخليفة والأمراء على المائدة ثم تنصرف .. وبعد قليل أصبح أهل الحديقة فى هرج واهتمام ، يتسابقون الى التأدب فى مواقفهم استعدادا لاستقبال أميرالمؤمنين . ثم أطل الخليفة ماشيا الهوينى وبجانبه القائد جوهر، ووراءهما ابنه الحسين، ثم أولاد الخليفة وأهله ، ثم جماعة الأمراء والقواد.. فتفرقوا الى مقاعدهم على الوسائد حول الأسمطة ، فجلس المعز فى صدر السماط الأول وأومأ الى جوهر أن يجلس الى يمينه ، ونادى الحسين فأجلسه بجانب أبيه .. ثم

جلس أبناء الخليفة وأهله حول ذلك السماط . وجلس سائر الأمراء والقواد حول الأسمطة الأخرى . وبعد قليل علت أصوات المؤذنين فأخذ القراء يتلون الفاتحة وضج المكان بتلاوتها. وجعلت لمياء تتفرس فى الوجوه فرأت والدها فى جملة المدعوين ، وقد دعاه المعز الى أقرب الأسمطة اليه ، وهو يبش له ويرحب به . وظنت أم الأمراء أن لمياء لم تنتبه الى ذلك فقالت لها : « هذا والدك قد جاء .. ويسرنى ما أراه من اكرام أمير المؤمنين له »

وكانت لمياء مشتغلة الخاطر بالتفرس فى الوجوه ، ولا سيما فى وجه الحسين . وحين وقع نظرها عليه خفق قلبها وتصاعد الدم الى وجهها رغم ارادتها . ومع رغبتها فى رؤيته ، وبرغم أنها أتت الى هناك لتراه ، فانها حين أحست بخفقان قلبها ندمت وحوّلت نظرها عنه ، وأخذت تغالب عواطفها .. ونهضت وأظهرت أنها مستعدة لمرافقة أم الأمراء الى مائدتها متى شاءت . فأظهرت أم الأمراء أنها تود البقاء ، وقالت : هذا الحسين أراه جالسا بجانب والده .. ان هذا المنظر يغنينى عن الافطار .. كيف أنت ؟ » قالت ذلك على سبيل المداعبة . فسكتت لمياء وصبغ الحياء وجهها .. ولم يصبغه الحياء وحده بل الارتباك أيضا . ولم تجد سبيلا الى اخفاء عواطفها الا بالتحول عن ذلك المكان ، فأطاعتها أم الأمراء .. فتحولتا الى قاعة مد فيها سماطها الخاص ، فجلست اليه وأجلست لمياء الى جانبها وتناولتا الافطار على نحو ما وصفناه من افطار الخليفة وأمرائه ..

ولاحظت أم الأمراء أن لمياء تسرع فى تناول الطعام ، وهى

ساكتة والاهتمام باد فى عينيها .. فأدركت أنها تود الرجوع الى الروشن ، فاختصرت فى الأكل حتى اذا فرغت منه قالت لها : « هيا بنا الى الروشن لنسمع ما يدور من الحديث هناك »

— ٣٥ —

حديث الزفاف

فنهضت ومشت معها وتناست ندمها .. وانما سيقت الى هناك بدافع لا سلطان للعقل عليه ، يدفع المحب دفعا برغم ارادته ، وقد يرتكب فى سبيل ذلك أمورا يوبخ نفسه عليها ، ولكنه لا يرى مندوحة له عنها .. جلستا فرأتا الأسمطة قد رفعت وانصرف معظم المدعوين ، وجلس من بقى منهم بين يدى المعز ، وفيهم جوهر وحمدون والحسين . وقد جلس حمدون بقرب جوهر وهما يتحدثان كأعز الأصدقاء . ويتخلل حديثهما ضحك وتودد . فأصاخت لمياء بسمعها لتسمع مايدور.. فسمعت الخليفة يقول لأبيها : « وقد سرّنى ما تجدد بيننا من روابط القرابة بخطبة لمياء الى ابن قائدنا ، وانهما لنعم العروسين ، وسرور أم الأمراء لا يقل عن سرورى ، وهى تود أن تختص عروسنا لمياء باهتمام هى أهل له.. وستدفع لها المهر عن قائدنا ، وسنقدمه لكم قريبا. وسنخص العروسين بقصر من قصور نافيكونان مثل بعض أهلنا »

فأسرع جوهر الى مقابلة هذا الانعام بالنهوض ، ثم أكب على يدى المعز ليقبلهما علامة للشكر ، فمنعه المعز وقال : « ان الحسين ابننا ولمياء بنتنا ولا موجب للشكر ، وانما يهمنا أن

« فسمعت الخليفة يقول لابيها : قد سرني ما تجـدد بيننا من
روابط القرابة بخطبة لمياء الى ابن قـائدنا جـوهر »

يكون زفافهما سعيدا مباركا »

فقال حمدون وهو يظهر الامتنان : « ان نعم مولانا فوق ما نستحق ، ويكفى شرفا لنا أن يكون ذلك العقد على يده . فهو لاشك سيكون مباركا ، ويزيده بركة اذا تنازل مولانا بحضور حفلة الزفاف .. وان كان ذلك مما لا يطمع فيه أحد ، ولكنى تجرأت عليه لما ظهر من تلطفكم فى محاسنتنا »

فلما سمعت لمياء هذا القول أكبرته ، وخشيت أن يكون أبوها قد تجاوز فى طلبه الى ما لايمكن تلبيته .. ورأت مثل هذه الدهشة من جوهر أيضا . أما المعز فابتسم وقال : « ان ذلك هيّن عليّ ولا مانع عندى منه ، فان قائدنا «جوهر» أهل لما هو أكثر من ذلك .. ولكننى أخشى أن يكون فى ذلك اثقال عليكم»

فترامى جوهر على ركبة المعز وقبّلها وهو يقول : « قد غمرنى أمير المؤمنين بفضله واحسانه . وكان الأمير حمدون قد خاطبنى فى هذا الأمر فلم أجسر على عرضه أو التماسه ، فكان هو أحسن مني تقديرا للطف أمير المؤمنين »

فأسرع حمدون الى الكلام قائلا : « لم أقل ما قلته الا وأنا أعرف منزلة القائد جوهر عند مولانا أعزّه الله .. وقد جرّأنى على ذلك أن أمير المؤمنين جعل نفسه بمنزلة والد الحسين ، وخطب له جاريته ابنتنا لمياء .. فسبق الى ذهنى انه لا يرفض طلبنا ، ولاشك فى أن ذلك تنازل كبير منه .. أما ما أشار اليه من الاثقال علينا ، فأى اثقال فيه ؟.. ونحن لو مشينا على رءوسنا بين يديه لا نكافئه على انعامه »

وكانت لمياء تسمع هذا الحديث ، وقلبها يفيض سرورا لما توسمت فيه من تغير رأى والدها فى المعز ، وقد حسبت انه سيعدل عن الفتك به .. وحين تصورت ذلك اعترضها شبح سالم ، كأنه يوبخها على رضاها بالحسين دونه ، لأنه اذا تمّ الزفاف دون أن تتم المؤامرة صارت عروسا للحسين .. فاضطرب تفكيرها ولبثت صامتة ، وأم الأمراء ترقب حركاتها.. فلاحظت ارتباكها ، لكن لم يخطر لها شيء مما كان يجول فى ذهنها

ولما فرغ حمدون من قوله أجابه المعز وهو يبتسم قائلا : « ان ظنك فى محله أيها الأمير . ولكن قائدنا لم يعرف حقيقة منزلته عندنا.. اننا سنحضر حفلة الزفاف معه ، ولابد أن يكون ذلك فى معسكركم حيث تقيم العروس قبل زفافها الىعريسها» وسكت

فأجاب حمدون : « أينما كنا فنحن فى ظل أمير المؤمنين ، وليس لأحد منا معسكر ولا قصر الا من نعمه . واذا تنازل المولى وأذِنَ بأن يكون ذلك فى ظاهر المنصورية أربناه عادة السجلماسيين فى الاحتفال بزواجهم ، وسيجرى الفرسان هناك فى حلبة السباق ويلعبون على ظهور الخيل.. ولعله يُسَر أن يرى رجاله وعبيده يتسابقون على الجياد بين يديه . ولو كان فى المنصورية متسع لهذه الألعاب أو لو أمر سيدى بذلك فاننا مطيعون »

قال المعز : « بل نذهب الى معسكركم ونشاهد احتفالكم . انى كثير الشغف برؤية الفرسان يتسابقون ، ولاسيما فرسان سجلماسة المشهورين بالفروسية والمهارة فى ركوب الخيل .. فمتى ترى أن يكون ذلك ؟ »

فقال حمدون : « ليس لأحد منا رأى ، فان الأمر فى ذلك لمولانا »

فنظر المعز الى جوهر كأنه يستشيره ، فبادر الى الجواب قائلا : « الأمر لمولاى .. »

فقال المعز : « أما وقد دخلنا فى شهر رمضان المبارك فلا أرى أن يتم الزفاف قبل انقضائه .. واذن فلنحدد له موعدا فى عيد الفطر تبركا به ، ويكون احتفالنا بالزفاف فى جملة احتفالنا بالعيد»

فظهر البشر على وجهى حمدون وجوهر بعد هذا التصريح ، وأخذا فى تنميق عبارات الثناء .. أما لمياء فلم يكن ذلك جديدا عليها ، وكانت قد سمعته من أم الأمراء ، ولاحظت من خلال تلك الأحاديث أن المعز عمل بما أوحته اليه زوجته ، فتأكدت حينئذ من اهتمامها بأمرها وشدة حبها لها .. والتفتت اليها لفتة ملؤها الامتنان والشكر ، ففهمت أم الأمراء من تلك اللفتة ما لاتقوى الألسنة على التعبير عنه .. وكان جوابها انها ضمتها الى صدرها وقبّلتها ، فأكبّت على يدها لتقبّلها فمنعتها وقالت : « تأكدى يا بنية من أن فرحى بتمام هذا الأمر يكفينى .. ولكنهم أطالوا أجل الزواج ، أليس كذلك ؟ » قالت ذلك على سبيل المداعبة

فأطرقت لمياء حياء ، فابتدرتها أم الأمراء قائلة : « أعنى أنهم أطالوه على أو على الحسين .. ألا ترينه ساكتا مطرقا لا يكلم أحدا ؟.. تأكدى أنى أعتبر هذا الشاب من أولادنا وأنت ابنتنا . ولذلك أرى ألا يأخذوك الى بيت أبيك الا قبل الزواج ببضعة أيام .. فاننى أريد أن أشبع منك »

وكانت لمياء فى أثناء ذلك قد عادت اليها هواجسها.. وأصبحت شديدة الرغبة فى لقاء والدها لترى هل تغير رأيه بعد ما صادفه من اكرام المعز ، أو انه يقول ما قاله خداعا .. لكن سبق الى ذهنها انه لابد انه يظهر ما يعتقده .. ذلك لأن الصادق الحر لا يستطيع أن يتصور نفاق الكاذبين ، ثم هى من جهة أخرى يشق عليها أن تقبل الحسين ، وتعد ذلك خيانة لنداء قلبها . وبينما هى فى ذلك ، اذ رأت الخليفة يتحفز للنهوض .. فنهض الجلوس واستأذنوا فى الانصراف . ونهضت أم الأمراء ومشت لمياء معها وهى تود أن لا تعود الى محادثتها فى شأن ذهابها الى أبيها ، لأنها تحب أن تترك الأمر للأقدار لترى ماذا يكون فى أثناء رمضان .. وتحب أن تخلو بنفسها بعد ما تقرر ، كى تفكر فى أمرها وتحل هذه المشكلة حلا معقولا ..

– ٣٦ –

ماذا أفعل ؟

ودعت لمياء أم الأمراء وذهبت الى غرفتها ، وهى غارقة فى بحار هواجسها . ولم تكد تخلو بنفسها حتى خطر لها خاطر أحست بارتياح اليه .. وذلك انها قابلت بين ما دار بينها وبين والدها بالأمس فى فسطاطه بحضور أبى حامد ، وما ظهر منه بين يدى المعز فى هذا المساء ، فوجدت فارقا كبيرا .. فتبادر الى اعتقادها أن أبا حامد هو الذى حرضه على الفتك بالخليفة ، وانه لو ترك لنفسه لم يرض بذلك .. وتذكرت ما تعرفه من

اتجاهات هذا الرجل فى أثناء اقامته بسجلماسة ، وما كان يحدثها به سالم أحيانا من الأغراض السياسية التى يرمى اليها .. فترجح لديها إن أبا حامد هو علة المفاسد ، وأنها لو انفردت بأبيها وباحثته فى أمر المعز لأقنعته بأن يرجع عن عزمه .. فارتاحت لهذا الرأى ، لكنها لم تكد تشعر بالراحة حتى تصورت انها ستصيرعند ذلك زوجة للحسين تقيم فى المنصورية. واذا ماذا تفعل بسالم ؟ فوقف ذهنها عند هذه النقطة ، فرأت ان عدول أبيها عن الفتك بالمعز يحرمها من سالم ، وهى تحبه ولا ترضى عنه بديلا

فأخذت تخاطب نفسها قائلة : « ما العمل اذن ؟ هل أرضى بقتل المعز وهو سلالة فاطمة الزهراء وصاحب الفضل الأكبر علىّ وأسلم بقتل جوهر القائد العظيم ؟ وهب انى رضيت فهل تفلح هذه المكيدة ؟ ألا يعقل أن تعود عاقبتها وبالا علينا ؟ بأى شىء نحارب جند الخليفة ؟ كيف نحارب الحسين.. ذلك الشهم صاحب المروءة .. ونقتله أيضا ؟ ما ذنبه ؟ بل ما ذنب الخليفة وقائده ؟ انها مكيدة ملؤها الخداع والغش . كيف ترضين يا لمياء بهذه الجريمة ؟ يكفى ما أراه من كرم أخلاق هذه المرأة التى تحبنى محبة الوالدة .. هل أرضى أن أكون وسيلة لسقوطها .. أنا أفعل ذلك ؟ كلا.. كلا.. انى اذن قاتلة خائنة . وهل أحرم من حبيبى ؟.. ماذا أفعل ؟ هل أطلع أم الأمراء على سر المكيدة ليحذروها ؟.. عند ذلك أكون قد عرضت سالما للقتل وعرضت والدى أيضا للموت . هل أسمح بقتل والدى وحبيبى ؟ كلا .. ويلاه ما هذه المشكلة التى لا حل لها ؟ »

وكانت جالسة على الفراش تفكر فى ذلك ، وعيناها شاخصتان الى نور المصباح ، فلما بلغ بها التفكير الى هذا الحد ، نهضت كالواثبة وقد هاجت أشجانها واستبد بها القلق .. وجعلت تتمشى فى الغرفة وتعيد النظر فى المسألة طردا وعكسا ، فلا تجد لها حلا الا بارتكاب الخيانة أو القتل فضلا عن محاربة العواطف ، وهى أشد وطأة من كليهما

قضت فى التفكير ساعة أو ساعتين حتى ملّت التردد ، وأغلق عليها الأمر، فوقفت تجاه المرآة فرأت ما أصابها من التغيير لفرط التفكير فقالت : « انى أرى لمياء فى هذه المرآة غير لمياء فى مرآة أبيها بسجلماسة .. ويلاه ماكان أغنانى عن هذه القلاقل ، بل ما أغنى أهل القيروان عن هذه السحنة التى ستعود عليهم بالشؤم والخراب . هل العيب فى المرآة ، وهل هى التى غيرت لمياء ؟ لا ذنب لها ، انها ترينى وجهى كما هو وانما العيب فىّ .. بل العيب فيمن شوش أفكارى وأدخل القلق على قلبى.. كان الأولى بى أن أصرّ على رفض هذا النصيب ، وليتسابق هؤلاء الى القتل على غير يدى . هل أستطيع ذلك الآن؟ وبأى لسان أقوله؟ وبأى وجه أقابل أم الأمراء . هل أبوح لها بسرى وأستشيرها فى أمرى؟ لا أقدر.. ويلاه ياربى ماذا أفعل؟ ! » وتحولت عن المرآة الى السرير واستلقت عليه ، وقد أظلمت الدنيا فى عينيها فلم تجد لها ملجأ سوى البكاء ، فأطلقت لنفسها العنان فيه . وأغرقت فى البكاء حتى كاد يغمى عليها ، وصارت تشهق وتندب نفسها.. ثم عادت الى المناجاة فقالت : « الهى قد لذّ لى الموت خذنى اليك..

هل أقتل نفسى وأتخلّص من هذه الحياة ؟ ان موتى أحسن حل لهذه المشكلة ، فينجو المحسنون الىّ من القتل ، وأتخلص أنا من التردد القبيح.. ولكن هل أقتل نفسى بيدى !.. لا.. لا.. بل الأفضل أن أفرّ من هذا المكان الى حيث لايرانى أحد حتى تأتى ساعتى .. لمياء !.. لمياء .. أنت الفارسة البطلة.. تلاقين الأعداء فى حومة الوغى وترزحين تحت هذه الأوهام ؟ بل أعود فأرفض الحسين وأعتذر له بأنى لا أريد الزواج..كيف أفعل ذلك ؟ مسكين الحسين انه ذو فضل ويظهر انه أحبنى .. آه يا سالم ياحبيبى..كيف أموت أو أفرّ وأتركك! بارزت الفرسان واستقبلت النبال فى ساحة القتال فلم أجد أصعب مراسا من الحب ، انه يملك ناصية القلب .. ويلاه هل فى الدنيا فتاة أشقى حالا منى ! »

ثم سكتت وكأن البكاء خفف مصابها وأزاح الغشاوة من على عينيها ، وتذكرت أن لديها شهرا كاملا للتفكير فى أمرها ، فقالت : « فلنصبر ان الله مع الصابرين » وذهبت الى فراشها وقد أخذ التعب منها مأخذا عظيما

— ٢٧ —

المراوغة

أما حمدون فانه خرج من قصر المعز بعد العشـاء ، وقد أدهشه ما رآه هناك من الأبهة والعظمة ، وأكبر الاقدام على تنفيذ تلك المكيدة ، ولاسـيما بعد الذى لقيـه من الاكرام والمؤانسة من الخليفة وقائده وسائر أمرائه، وأحس بخطورة الأمر

الذى سيقدم عليه .. فقضى مسافة الطريق الى معسكره وهو يفكر فى ذلك ــ وتحريض أبى حامد لايزال غالبا على عقله ــ فوصل الى خيمته وهو يحب أن يخلو بنفسه كى يفكر ، ويرجح أحد الوجهين .. ولم يكد يستقر به الجلوس حتى جاء أبوحامد ، ولما وقع نظره علىحمدون استشف مايجول فىخاطره فأراد أن يتحقق من ظنه فقال : « كيف لقيت أمير المؤمنين ؟ »

فأجابه وهو يحاول اخفاء ما يجول فى خاطره : « لقيته كما أعهده ، وكما تعهده أنت .. »

فلما وجد أنه لم يستنكر منه تلقيب المعز بأمير المؤمنين ، توسم صدق فراسته فيه فقال : « اعنى هل لقيت منه أنسا »

قال حمدون : « لقد جاملنا وآنسنا وأكرم وفادتنا ، ووددت لو أنك كنت معنا »

قال أبو حامد : « أنا أعلم اقتدار هذا الرجل وسعة صدره ، ولولا ذلك ما تمكن من التغلب على سائر الأمراء حتى سمى نفسه أمير المؤمنين »

قال حمدون : « صدقت .. انه واسع الصدر كبير العقل ، ورأيت منه تقديرا خاصا لى ، لأنه أصبح يعتبرنى من أهله .. ورأيت مثل هذا التقدير من قائده أيضا .. »

فتنحنح أبوحامد ، وقد ترجح ظنه فى تغيُّر عزمه ، وقال : « أظنك أدركت الليلة خطورة الأمر الذى عزمنا عليه .. »

قال حمدون : « قد أدركت ذلك من قبل .. ألم تكن أنت قد أدركته أيضا ؟ »

قال أبو حامد : « كيف لا وقد دان لهذا الرجل الأمراء والقواد وأصبح صاحب الكلمة النافذة .. ان تنفيذ ما عزمنا عليه لا يخلو من الخطر طبعا »

فتمسك حمدون بهذا التصريح ، وتوهم ضعف عزيمة أبى حامد فقال : « هل ترى أن الخطر يزيد على الأمل فى النجاح ؟ »

قال أبو حامد : « أراه أضعاف أضعافه ، ولكنما العمل وقد رأيتك عازما على استرجاع مجدك حتى فضلت الموت على التسليم » جاعلا السبب فى تدبير المكيدة رغبة حمدون فى استعادة ملكه

فأصبح يسيرا على حمدون أن ينسحب بانتظام ، فقال : « لكن الرجل العاقل ينبغى أن يقدر العواقب ويعمل بالرأى السديد ، وما لا يستطيعه اليوم قد يستطيعه غدا »

فتحقق أبو حامد مما توسمه فى صديقه من ضعف العزيمة ، فعمد الى استطلاع ما دار فى تلك الجلسة ، وهل قبل الخليفة أن يحضر الاحتفال بالزفاف فى معسكرهم فقال : « هل وافقت على أن تزف لمياء من معسكرنا ويكون الخليفة حاضرا ؟ »

قال حمدون : « لم أطلب منه طلبا الا وافقنى عليه ، وقد وافق على هذا وأكثر منــه .. ولذلك قلت لك انه جاملنـا وأحسن وفادتنا ، وهذا ما غير رأيى فيه .. »

فعمد أبو حامد الى المداهنة فقال : « بارك الله فيك .. ان المصلحة مشتركة بيننا ، فاذا كنت قد رأيت ما أراه أنا أيضا من الخطر فى القيام بهذا العمل الآن وأحببت أن تؤجله ، فانى أوافقك على تأجيله .. ولكل أجل كتاب »

فانطلت حيلة أبي حامد على حمدون وصدقه فقال : «يعجبني حزمك وتعقلك .. فأنا أرى أن التأجيل أقرب الى الحكمة ريثما تتاح لنا فرصة أفضل من هذه »

وكان أبو حامد لايزال واقفا يتشاغل فى تدبير مكان يجلس فيه . فلما سمع قول حمدون ابتسم وأظهر الارتياح ، وجلس الى جانبه ووضع يده على ركبته وقال : « ولكن ألا ترى صعوبة فى تغيير فكر لمياء ؟ »

قال حمدون : « ان لمياء أكثر رغبة منا فى العدول عن قتل الخليفـة ، ولاسيما بعد أن تبرع بأن ينوب هو وزوجته عن العريس فى تقديم المهر ، ولابد أن تكون أم الأمراء قد أخبرت لمياء بذلك ، وهذا يزيدها تعلقا بها .. فى الحقيقة ان المعز وزوجته قد بالغا فى مجاملتنا واكرامنا ، وأظنني لم أخبرك بما عزما على تقديمه من المهر ».

فقطع أبو حامد كلامه وهو يروغ كالثعلب وقال : « أظنهما وعدا بمال كثير وبعض الحلى الثمينة »

فضحك حمدون وقال بنغمة الفائز المعجب : «المال والحلى؟.. ان أم الأمراء ستقدم للعروس أحسن ما يرجى تقديمه لمثلها من الأثاث والحلى والثياب ، وستملأ بيتها بالجوارى والخدم و .. »

فقال أبو حامد وهو يظهر الدهشـة : « والخدم أيضـا والجوارى ؟ »

فابتدره حمدون قائلا : « أضف الى ذلك ان الخليفة نفسه سيهديها قصرا فى المنصورية تقيم فيه مع عرسها .. »

فقال أبو حامد وهو يهز رأسه ويرفع حاجبيه استغرابا : « ان مثل هذا الرجل لا تستسيغ النفس لحاق الضرر به .. صدقت.. ولكن .. »

فسبقه حمدون الى الكلام قائلا : « ولكن لمياء متعلقة القلب بسالم .. واذا تم زواجها فربما يتنغص عيشها »

فأظهر أبوحامد الضيق من فكر خطر له كأنه ابن ساعته وقال : « سالم .. سالم .. دعنى من سالم انه لا يليق بلمياء ، وهى لو علمت بما فعله لكرهته .. حتى أنا ، مع انه فى منزلة ولدى فقد كرهته »

فاستغرب حمدون كلامه وقال : « وكيف ذلك ؟ »

قال أبو حامد : « أتعلم أين سالم الآن ؟ »

قال حمدون : « كلا .. أليس هو هنا ؟ »

قال أبو حامد : « لا أعلم مقره .. ولكن يظهر أنه فرّ من هذا المعسكر..أظنه خشى مغبة الأمر الذى أقدمنا عليه ففضل الفرار»

قال حمدون : « لا أظنه يفر وهو رجل باسل »

فقال أبو حامد : « لا يليق بى أن أكشف عيوبه ، لكننى لا ينبغى لى أن أكتمك أمرا بعد ما علمته من صداقتى واخلاصى ، وأنا أغار على لمياء وأجل مناقبها فلا أخدعها » وتنحنح كأنه يستنكف من التصريح بذلك الأمر الفظيع

فقال حمدون : « ماذا جرى ؟ »

قال أبو حامد : « هل تذكر خروج سالم مساء آمس فى اثر لمياء الى المنصورية ؟ »

قال حمدون : « نعم أذكر انه أراد أن يرافقها فتوسلت اليه أن لايفعل »

قال أبو حامد : « ليته لم يفعل .. لكنه أصرّ على الذهاب فعاد بالفشل والعار »

قال حمدون : « وكيف علمت ذلك ؟ »

قال أبو حامد : « لأنه عاد اليّ فى آخر الليل وقصّ عليّ ما لقيه وحاول اخفاء الحقيقة لكننى قرأتها من خلال حديثه »

قال حمدون : « ماذا عمل ؟ »

قال أبو حامد : « ذهب فى أثر لمياء فوجدها مع رجل عرف بعد ذلك انه الحسين بن جوهر ، وكان فى انتظارها حتى يسير فى خدمتها الى مأمنها .. فأنكر سالم عليه ذلك ، وأمرها أن تتركه وتسير معه ففعلت . فلما أشرفوا على المنصورية خرج عليهما الحراس وكادوا يقبضون عليه ويسوقونه الى السجن لو لم يبادر الحسين الى انقاذه .. فعاد والفشل يقطر من أردانه ، وشفع ذلك الفشل بالكذب فاقتضب الحديث ولم يذكر فشله . ولكن أبا حامد لا تنطلى عليه هذه الألاعيب .. فوبخته على جبنه ، فغضب وخرج من عندى .. ولعله فرّ خوفا من غضبى . ولو فتشت عنه فى المعسكرين لم تقف على خبره » قال ذلك فى لهجة الصادق وهو يظهر الأسف على ماجرى

فصدق حمدون كلامه وقال : « لله درك .. انك تطلع على خفايا القلوب ، لذلك لست أعجب من اطلاعك على سر سالم .. ولكننى لم أعهد فيه شيئا من ذلك قبلا »

قال أبوحامد : « هذا هو الواقع ، ولعلك لوسألت لمياء عن هذا الأمر لأكدت قولى ، وربما صرحت هى بالعدول عنه لأنها شهدت فشله بنفسها »

قال حمدون : « غدا نبعث اليها ونستطلع رأيها »

قال أبوحامد : « حسنا تفعل .. وأنا واثق أنها ستوافقك على ما ذكرت . وعند ذلك تتحول مهمتنا الى ما هو أقرب لخير لمياء ، ونترك أمر الانتقام حتى تسنح لنا فرصة أخرى . وقد نرى من الحكمة السكوت عن هذا الامر نهائيا اذا رأينا القوم يعرفون قدرك ولا يبخسون حقك »

— ٢٨ —

رأى لميـــاء

فارتاح بال حمدون لهذا الرأى ، وهو على ثقة من رضى لمياء ، وقد عزم على اقناعها به . فبات تلك الليلة وهو يحلم بما سيكون له من المنزلة الرفيعة بعد تلك المصاهرة ، ونسى انفة آل مدرار وعز سلطانهم .. والحقيقة انه لم يفطن لذلك العز لو لم يحرضه عليه أبو حامد الداهية . وأما حمدون فقد علمت ضعفه وسرعة تقلبه وانه انما كان يساق الى طلب الانتقـــام بتحريض صاحبه هذا . فلما رآه قد وافقه على السكوت والرضى بالخضوع فرح وبات تلك الليلة مطمئناً ، وعزم على أن يبعث فى استقدام لمياء اليه ليبشرها بذلك الرأى الجديد

وأيقظه الغلام للسحور قبـــل الفجر .. ولم يكد يفرغ من

سحوره حتى أتاه الحاجب ينبئه بقدوم رسـول من صـقالبة القصر ، فأذن بدخوله فاذا هو لمياء متنكرة ، فرحّب بها وقبّلها وقد توسم القلق فى عينيها .. فعلم انها مبكرة اليه فى شأن ما كان فيه بالأمس ، فابتدرها قائلا : « أراك مبكرة يا لمياء ؟ »

قالت والدمع يترقرق فى عينيها : « انى لم أذق نوما فى هذه الليلة » ..

قال حمدون : « ولماذا ؟ »

قالت لمياء : « أتسمح لى أن أقول ما فى خاطرى ؟ »

قال حمدون : « قولى .. ولكنى أحب أن تسمعى ما أقوله أنا قبلا »

قالت لمياء : « تفضل .. »

قال حمدون : « قد كنت فى مثل قلقك أمس ، ولكننى اهتديت الى حل جميل ارتاح له خاطرى »

قالت لمياء : « وما هو ؟ »

قال حمدون : « هل علمت انى تناولت طعام الافطار أمس فى قصر أمير المؤمنين ؟ »

فلما سمعت قوله « أمير المؤمنين » استبشرت وقالت : « نعم علمت .. وقد سمعت ما دار بينك وبين الخليفة والقائد »

قال حمدون : « هل علمت بما عزم عليه الخليفة من اكرامك بالمهر ؟ »

قالت لمياء : « سمعت .. أمثل هذا الرجل يـ . . »

فقطع كلامها قائلا : « دعينى أتم حديثى .. ان ما لقيته من

ذلك الاكرام ، وما آنسته من سعة صـــدره وطيب عنصره ، وحبّ أم الأمراء لك قد أثر فيّ كثيرا .. »

فأبرقت أسرّتها وضحكت ، والدموع تتدحرج على خديها من الدهشة وقالت : « هل أثر فيك ذلك ؟.. هل يليق أن ..؟»

قال حمدون : « اسمعى .. انى وجدت الأمر الذى كنا قد عزمنا عليه خيانة لا تليق بنا »

فلم تتمالك عن الاسراع الى يده فتناولتها وأخذت تقبّلها ، ودموع الفرح تتساقط من عينيها وقالت : « الحمد لله .. قد فرّجت كربتى .. صدقت يا أبتاه ، ان أمير المؤمنين لا تليق به هذه الخيانة ، ولو عرفت مقدار حبّ أم الأمراء لى لازددت حرصا على حياتهما .. بالله قل ، هل عدلت عن عزمك ؟ »

قال حمدون : « رجعت من عند المعز وأنا أحدث نفسى بذلك ، وكنت أحسب أن أبا حامد لا يوافقنى .. فوجدته أشد رغبة منى فيه ، لأنه رأى مارأيته وأنت تعلمين ذكاء هذا الصديق وتعقله»

فتضاعفت دهشتها لأنها لم تكن تتوقع هذه المفاجأة المزدوجة ، وكانت عازمة على اقناع أبيها على أن يوافقهـا ولو خالف أبا حامد . فلما رأت أبا حامد موافقا له على العدول انبسطت نفسها وتولتها الدهشة لهذه المفاجأة فقالت : « وقد وافقك أبو حامد على العدول أيضا ؟ »

قال حمدون : « وليس ذلك فقط ، ولكنه خلصنا من أمر آخر يتعلق بسالم »

فلما سمعت اسم سالم انقبضت نفسها ، اذ تذكرت المشكل

الذى لم تجد له حلا بالأمس .. فقالت : « وكيف خلصنا من أمر سالم ؟ أين هو الآن ؟ »

قالت ذلك ، وقد صبغ الحياء وجهها ، وعلاه قلق واضطراب..

فقال حمدون : « نعم انه أنقذنا من مشكل عظيم . وقد سألت عن سالم أين هو.. انه ليس هنا.. وقبل أن أقول شيئا بشأنه أسألك سؤالا أرجو أن تكونى صادقة فى الاجابة عنه ..»

قالت لمياء : « وما هو ؟ »

قال حمدون : « حين لحق بك سالم فى تلك الليلة ، ما الذى حدث له ؟ »

فتذكرت وصية الحسين بالكتمان ، وهى تضن بسالم أن يهان ، فقالت : « ماذا حدث له ؟.. لم يحدث شىء . »

قال حمدون : « اصدقينى .. انى قد عرفت نبأ فشله وجبنه ، فلا تنكرى شيئا »

فاستغربت تصريحه وقالت : «من قال ذلك ؟ لم يكن معنا أحد سوى الحسين .. وهذا لم يقص عليك الخبر »

فقال حمدون : « ما أدراك انه لم يقصه علينا ؟ »

قالت لمياء : « لأنه أمرنى بالكتمان »

قال حمدون : « لماذا أراد كتمان الواقع ان لم يكن فى التصريح به ما يعيب سالم ؟ .. قولى الصدق »

فلم تطعها نفسها على الانكار ، فقالت : « انه أساء التصرف مع الحسين لأنه لم يكن يعرفه .. ولكن من قص عليك الخبر ؟.. سالم ؟ .. »

قال حمدون : « لا .. ان سالما خجل من قول الصدق ، ولكن أبا حامد قصّه عليّ بالأمس ، وقد استطلعه بفراسته ووبّخ سالما عليه حتى أغضبه .. فخرج من المعسكر ، ولسنا ندرى الى أين ذهب » ..

فصاحت رغم ارادتها : « ويلاه .. الى أين ذهب ؟ »

فقال حمدون : « يظهر انك لا تزالين على حسن ظنك به ، وعمّه نفسه قد احتقره ، وأهانه .. وقد قال لى انه لم يَعُد أهلا للمياء الشريفة الصادقة .. ان خطيبـا يرجع من بين يدى خطيبته بمثل هذا الفشل لا يليق بها »

فقالت وصوتها مختنق : « أبو حامد قال لك ذلك ؟ »

قال حمدون : « نعم .. اذا كنت لا تصدقين ، فانى أدعوه ليقول ذلك أمامك »

فغصّت بريقها وأطرقت .. وقد تولتها الحيرة ، وتحرك قلبها ، فتذكرت منزلة سالم عندها ، وهى تجلّه وتنزّهه عن كل عيب ، فكيف تسمع هذا القول وتسكت فصاحت : « كلا .. ان سالما شهم لا يستحق هـذه الاهانة .. ان عمه قد ظلمه » وشرقت بدموعها ..

فقال حمدون : « لله أنت يا لمياء .. بل لله من الحب ما أقوى سلطانه .. ان أبا حامد هو الذى رغّبنا فى سالم ، ثم هو اليوم يقول انه جبان لا يليق بك . ومع ذلك فان وصولك اليه لايكون الا بقتل المعز وقائده .. فهل نعود الى عزمنا الأول ؟ !»

فأجفلت وقالت : « لا .. لا .. ان أميرالمؤمنين لايستحق ذلك»

قال حمدون : « وهل جوهر يستحقه ؟ »
قالت لمياء : « لا »
قال حمدون : « وهل الحسين يستحقه ؟ »

فلما سمعت اسم الحسين شعرت باحساس يشبه ما شعرت به ساعة وداعه تلك الليلة .. اذ ودعته وقد سحرها بمروءته وسعة صدره .. فسكتت وقد تورَّدت وجنتاها ، وتسارعت دقات قلبها ، وغلبت على أمرها . فأطرقت والدموع تتساقط من عينيها وأبوها يرقب حركاتها ثم قال : « لابد من قتل الخليفة أو التخلى عن سالم الجبان »

فصاحت وقد تحيرت فى أمرها : « لا هذا .. ولا ذاك ، لا تقل الجبان .. ان سالما .. آه .. ويلاه .. كيف أسمع هذا القول فيه ؟ » وعادت الى البكاء ..

— ٢٩ —

الثعلب

وبينما لمياء فى ذلك ، اذ سمعت وقع خطوات مسرعة خارج الخيمة ، فالتفتت فاذا بأبى حامد قد دخل وهو متزمل بعباءته ، وعلى رأسه عمامة صغيرة قد وضعها حول رأسه على غير نظام كأنه ناهض من الفراش ..

فلما دخل لم تستطع لمياء عند رؤيته غير النهوض احتراما ، فأسرع اليها وأجلسها وهو يقول : « لا تذكرى سالما بفمك .. انه ابن أخى ، بل هو بمنزلة ابنى .. ولكننى أنكرته منذ أمس ،

وهو غير أهل لك وأنت أعلم الناس بالسبب .. ومع ذلك فهو ليس هنا .. ومَن كان مثل لمياء التى جمعت شجاعة الرجال الى لطف النســاء ، وقد عرفناها صادقة اللهجة مخلصة الطوية ، يجب أن تتغلب على عواطفها ، وتعمل بعقلها وكفى .. » قال ذلك وجلس بجانب حمدون ..

فقالت وهى تغص بريقها : « مهما يكن من الأمر فانى لا أطيق أن أسمع مثل هذا القول فى سالم .. دعونا منه »

فقال أبوها : « وهذا ما أدعوك اليه الآن ..» وأظهر الاهتمام وتطاول نحوها كأنه يريد أن يهمس فى أذنها وقال : « هــذا أخي أبو حامد قد رأى مثل رأيى فى هذا الأمر .. وقد وجد أن القرار الذى سبق أن اتخذناه لا يليق تنفيذه ، فعزمت على أن أستقدمك لأقصّ عليك ما جرى .. وكنت أعتقد انك سوف تتلقّينه مسرورة ، فاذا أنت تجادليننا فى سالم ، فاذا لم يعجبك رأينا الجديد عدنا الى القديم »

فخشيت أن يغضب أبوها ، فيرجع الى سوء رأيه .. فقالت : « قد رضيت .. لكننى أتوسل اليكم أن لا تذكروا سالما بسوء ، ولنترقب ما يأتى به القدر » ..

فقال أبوحامد : «نسكت عن سالم.. ولكننا فرحون بما اجتمع عليه رأينا ، وسنحتفل بزواجك فى هذه الساحة احتفالا لم يُسمع بمثله .. ونزفك الى الحسين بن جوهر بحضور الخليفة ، واذا كان سالم أهلا لك فليأت ويأخذك بنفسه. وقد عهدنا أن المحبين يتفانون فى هذا السبيل ، ولا يفعلون ما فعله سالم من الفرار الذى تعلمينه.

دعينا منه .. اننى لا أحب أن أعود الى ذكره اكراما لك »

فسكتت وهى ترى أن الصواب فى العدول عن سالم بعد ما رأته من تصرّفه ، فضلا عن البواعث القاهرة التىألجأتها الىقبول غيره .. لكن قلبها لم يطاوعها على الارتياح لذلك الاقتراح ، فجعلت قبولها مشفوعا بانتظار مايأتى به الغد أو ماتدبره الأقدار

انفضت تلك الجلسة على هذه الصورة ، فرجعت لمياء الى المنصورية تنتظر أمر والدها فى القدوم اليه قبيل الزفاف .. ومكث حمدون وقد اطمأن خاطره ، ووطّن نفسه على الاكتفاء بالقرب من المعز لدين الله ولو مؤقتا ، وقد شفع قبوله أيضا بانتظار ما يأتى به الغد ..

— ٣٠ —

أبو حامد يناجى نفسه

أما أبوحامد فخرج من تلك الجلسة ، وقد ضاقت نفسه من كبت ارادته ، وأتعبته المراوغة وتكلف الظهور بعكس مايضمره . فلما عاد الى فسطاطه وخلا بنفسه ، تنفّس الصعداء .. وقد هاجت ضغائنه وغلت مراجل الحقد فى صدره وأصبح يزمجر كالشبل الجريح . وأمر حارسه أن لايدخل عليه أحدا ، وجعل يخطر فى الفسطاط ذهابا وايابا ، وهو مطرق يفكر .. ويستحث قريحته فى تدبير حيلة ينال بها غايته .. وقد عظم عليه عدول حمدون عن قتل المعز . ولم يكن أسهل عليه من أن يقنعه بما له من السيطرة على أفكاره ، لكنه خشى رجوعه مرة أخرى

على غرة .. وربما باح بسره فيصبح ذلك وبالا عليه ، فأظهر ارتياحه لرجوعه .. وأضمر أن ينفذ غرضه بنفسه فيقتل المعز وقائده ، وقد يقتل حمدون وابنته وزوجها .. فانه لايبالى من يقتل أو لماذا يقتل فى سبيل تحقيق غرضه

قضى مدة فى هذا التفكير ، وهو يخطر ذهابا وايابا ، ثم جعل يناجى نفسه قائلا : « أنا أبو حامد حامل سيف النقمة .. اطمأن بالهذا الأمير المغرور ، وسكن خاطره ، واعتقد أنى وافقته فى العدول عن قتل ذلك الطاغية ، كما اعتقد من قبل بأنى أسعى فى هذا القتل اكراما لخاطره لأعيده الى الملك فى سجلماسة .. وصدق انه من آل مدرار أصحاب تلك المملكة العظيمة ، وهو يعلم أنه دعىٌّ فى نسبهم لأنهم انقرضوا منذ أعوام . ولكنه حسبنى أقول ماأعتقد ، فوافقه قولى ورضى بذلك النسب ، وبنى عليه حقه فى امارة سجلماسة ، ووافقنى أيضا على الفتك بالمعز وقائده ، وأنا أعلم ضعفه وتردده وطالما خشيت رجوعه.. فأحمد الله لرجوعه الآن قبل أن أدبر طريقة الفتك وأطلعه عليها ، فاذا انقلب بعد ذلك خفت أن يبوح بها لصديقه ومولاه المعز فيذهب سعيى عبثا .. أما الآن فانى أكتم تدبيرى عن كل انسان ، وبفضله سأقضى عليهم أجمعين.. أبا عبدالله ! انى ثائر لك .. نم هادئا ، ان دماء أعدائك سأجريها فى قناة حتى تدرك قبرك ، فترتوى أنت منها كما أرتوى أنا هنا.. فى فج الأخيار مستودع القوة.. فاذا فرغت من قتل هؤلاء الأعداء ، عدت الى اتمام مهمتى .. أنا أبو حامد .. ويل لهم من نقمتى »

وكان يناجى نفسه وهو يمشى ثم يقف ، ثم يمشى كالحيران ،

ويعبث تارة بشاربه وطورا بلحيته أو يقضم أظافره بين أسنانه حتى كاد يدمى أنامله من عظم ما هاج فى خاطره . ولو نظر الى وجهه فى المرآة لرأى سحنته مرعبة ، اذ احمرت عيناه وانتفش شعره لكثرة عبثه به .. وقد أفسد نظام عمامته ولحيته وشاربه ، وكأنه خارج من عراك طويل

ثم تمالك نفسه ، وأخذ يصلح من شأنه ، ويتظاهر بالسكون وهدوء البال .. وأمر غلامه أن يسرج له الجواد

ركب أبو حامد والغلام فى ركابه ، والشمس فى الضحى . وقد تعوّد الركوب للرياضة ، فلم يشتبه فى أمره أحد .. ولما صار خارج المعسكر أمر الغلام بالرجوع وقد عوّده الكتمان ، فلم تكن ثمة حاجة الى التنبيه عليه أن يكتم أمرسيده ووجهة مسيره

أما هو فانه ساق جواده وأوغل فى الصحراء ، وقد حميت الشمس وانعكست أشعتها على الرمال فظهرت لامعة تتوهج . وأرسل نظره الى الأفق ليتطلع الى الجبل الذى بقصده فوجد السراب قد حجبه .. ورغم ما تعوده من مشاهدة السراب فى البادية فى مثل تلك الساعة فقد خدع به ، فكان يتوقع أن يرى فى أقصى ما يقع عليه بصره من الأفق جبلا مخروطى الشكل مميزا عما يحف به من الجبال .. فأوهمه السراب أن هناك بحيرة تتراءى فى مائها صور أشجار تظهر مقلوبة ، وخيّل له انه يرى سفنا سابحة على سطح البحيرة

شغله ذلك المنظر برهة وان لم يصدق عينيه .. وكلما اقترب من المكان انجلى له حتى وصل الى الجبل وفيه كثير من الكهوف

والشقوق على شكل يندر بين الجبال

فساق جواده فى منعطف صاعد يصعب سلوكه لضيقه حتى دار من وراء الجبل ، وهو لايسمع غير وقع حوافر جواده أوصهيله..
واذا أطل أشرف على سهل رملى ليس فيه شيء من العمارة

وكان ــ وهو يتقدم ــ يتلفت الى الوراء حذرا من أن يكون أحد فى أثره ، حتى اقترب من مغارة عظيمة لها باب كبير منقور فى ذلك الجبل ، فتنحنح تحنحة خاصة .. فسمع مثلها فى قاع المغارة ، فساق فرسه حتى وقف بالقرب من الباب .. فسمع مناديا يقول والصدى يردد قوله : « ادخل يا مسعود »

ــ ٣١ ــ

التدبير

فترجل ودخل وهو يقود الفرس بزمامه وراءه .. وكأن الفرس أحس برطوبة المكان فتوالى عليه العطاس ، ودوى صوت عطاسه دويا يزيده اجفالا واستغرابا

وبعد مسير بضع دقائق ، انتهى الى بقعة مثيرة .. فيها ما تقشعر له الأبدان من أنواع الحيوانات المتضادة فى طبائعها ، مما لايخطر ببال .. كالثعـابين والسحالى وأنواع الضب والطـير والحمام بين سارح ، ومنساب ، وواثب .. وبينها حيَّة مهولة قد التفَّت على جذع شجرة منصوب لها هناك ، ورأسها يتلوى ذات اليمين وذات اليسار .. وأخرى تنساب بين الأحجار الملقاة على الأرض . ولو لم يكن قد تعود المجيء الى ذلك المكان ومشاهدة

تلك المناظر، واعتقاده أن تلك الدبابات لاتؤذيه لأنها مسحورة لأجفل وخاف . أما الفرس مع أنه كان يصطحبه كل مرة فلم يألف ذلك المنظر المخيف .. فاضطرب وضرب الأرض بحافره ، وصهل وتراجع ، وأبوحامد ممسك بزمامه ينتظر أن يأتى من يتناوله منه . واذا بعبد عظيم الجثة قد برز من أحد أطراف تلك البقعة وألقى التحية فرد عليه أبوحامد .. فتقدم العبد ، وقبّل يده ، وتناول زمام الفرس ومشى به الى مكان يربطه فيه

ثم مشى أبوحامد فى طريق تجنب فيه المرور بشىء من تلك الحيوانات ، حتى دخل دهليزا محفورا فى الصخر.. ولو زار المكان أحد علماء الآثار اليوم لتحقق ان تلك المغارة من بقايا الأبنية القديمة فى العصور الغابرة ، لأنها محفورة فى الصخر ، وربما كانت فى الأصل قبورا أو هياكل ، ظلت مهجورة حتى أصبحت مسكنا لكاهنة ساحرة لايصطلى لها بنار . وكان أبوحامد قد عرفها منذ أعوام واستعان بها فى كثير من شئونه . وهى من خلفاء كهان البربر قبل الاسلام .. ورثت هــذه الصناعة من أجدادها ، وهى تخشى الظهور.. لذلك استترت هناك ، ولا يصل الى مكانها الا من يعرفها . ولم يمش أبوحامد قليلا حتى دخل حجرة فى الصخر ، فى صدرها دكة من الحجر، قد تربّعت عليها عجوز شمطاء بملابس غريبة الشكل فيها من كل لون قطعة .. شعرها ناصع البياض وقد انتفش واشتبك فأصبح منظرها مخيفا وهى فى الأصل سمراء اللون ، ولكن الشيخوخة جعلت لونها أقرب الى السواد ، وتجعد جلدها ، وغارت عيناها ، وتدلى

حاجباها الغليظان نحو الأمام .. فأصبحت عينـاها كالمصـباح يتراءى من وراء نافذة مظلمة ، تحتها أنف غليظ قصير فيه حلقة من العاج.. أدخلت فى أنفها كالخزام منذ صباها على يد ساحرة . وقد كان لأهلها ثقة فى عملها ، واعتقدوا أن وجود ذلك الخزام من أكبر أسباب مهارتها . وناهيك بما فى أذنيها من الأقراط ، وفى عنقها من العقود ، وحول زندها من الأساور وفيها الذهب والفضة والعاج . وقد جلست على جلد دُب ، وألقت على كتفيها جلد نمر ، ووضعت فى حجرها ثعبانا غليظا قصيرا تتلهى بمداعبته ..

فلما أطل أبو حامد عليها ، رحّبت به بصوت جهوزى ، وقالت : « أهلا بولدى مسعود .. قد أطلت الغياب علىّ .. أين كنت ؟ » وأشارت اليه بعصا طويلة كانت بجانبها أن يجلس على دكة بين يديها فجلس وهو يقول : « كنت فى عملى الذى تعلمينه »

فقالت العجوز : « قد آن لك الظفر يامسعود .. » وهو الاسم الذى تعرفه به

فأبرقت أسرّته لأنه كان يؤمن بصدق فراستها ، وقدرتها على كشف المخبآت ، حتى جعلها مستودع أسراره من أيام أبى عبدالله الشيعى .. وكانا يأتيانها أحيانا ، ولها دور فى جمع كلمة قبائل البربر الذين نصروا أبا عبد الله فى تأييد دولة العبيديين .. فكان أبوحامد لذلك عظيم الثقة بها ، لا يبدأ عملا هاما الا شاورها فيه.. فتنصحه وهو لايزداد الا ثقة بها . وقد جاءها فى ذلك اليوم لأمر لايخفى على القارىء .. وهو لايخفى على تلك الكاهنة الشمطاء لأنها كانت مطلعة على أخباره .. ليس مما ينقله هو

اليها ، ولكن كان لها جواسيس فى مختلف البلاد لمثل هذه الغاية.. فلما قالت له ذلك ، استبشر واعتقد فى صدق قولها .. لأنها كانت متسلطة على أفكاره مثلما كان متسلطا على أفكار الآخرين ، فقال لها : « هل علمت ذلك يا خالة أم تسألينني ؟ »

فنظرت اليه شزرا وقالت : « ومتى كنت أستشيرك ياجاهل؟»

فضحك وجعل يعتذر لها عن جسارته . وكانت وقاحتها هذه من أسباب تمكين هيبتها فيه .. فمدّ يده الى جيبه ، وأخرج صرّة فيها نقود دفعها اليها وهو يقول : «بارك الله فيك.. صدقت قد دنا وقت الفرج.. اقبلى هذه الدراهم طعاما لأولادك هؤلاء»

وأشار الى الثعبان الذى فى حجرها وهو يظهر المزاح

فمدت يدها ، وتناولت الصرّة وهى تهز رأسها هزة الاعجاب وتقول : « لا تقل دنا الوقت بل قل أتى .. لم يبق الا خطوة صغيرة » ..

قال أبو حامد : « نعم يا سيدتى .. انها خطوة ، ولكننى أراها شاقة »

قالت العجوز : « أين صرت الآن ؟ »

قال أبو حامد : « سأجمع الرجلين فى مكان واحد ، وانما أحتاج الى رأيك فى طريقة القتل .. بالخنجر أم بالسم ؟ »

فضحكت ضحكة دوّى لها المكان ، وكشّرت فى أثناء القهقهة فبانت نواجذها ، وأصبح فمها كالمغارة المظلمة . ثم أطبقت فمها فجأة ، وأطرقت وقد تغيرت سحنتها وأبرقت عيناها ، ومدت يدها الى علبة صغيرة بجانبها تناولت منها مسحوقا وضعت

بعضه فى فمها وجعلت تتلهى بامتصاصه ومضغه . ثم رفعت بصرها الى أبى حامد وكانت الصرّة لا تزال بيدها فرمتها اليه وقالت : « أولادى ليسوا فى حاجة الى دراهمك ! »

فأدرك انها لم تقنع بالمبلغ ، فأخرج صرّتين أخريين ودفع الكل لها ، وهمّ بتقبيل يدها تزلفا واسترضاء وهى تتدلّل وتترفّع..لكنها تناولت النقود وقالت : « انطلبك لايقدر بمال ، وأنا أعينك فيه اكراما لذلك المقتول ظلما .. أنظر .. سأعطيك مسحوقا ، الذرّة الصغيرة منه تقتل فيلا كبيرا .. واذا لم تصدق جرب .. » وضحكت .. ولم يكن ضحكها سوى تكشير شفتيها بدون أن يصحب ذلك ملامح الضاحكين .. ثم آمرت الثعبان الذى فى حجرها أن ينصرف فانساب الى وكره

فنهضت وهى تتوكأ على عكازها الغليظ ، وأشـارت الى أبى حامد أن يمكث فى مكانه ريثما تعود .. فمكث على مثل الجمر وهو يتبع الساحرة ببصره ، وقلبه يختلج خوفا من أن يثب عليه الثعبان وهو يعتقد أن الموت فى نابيه رغم ايمانه بأنه مسحور .. وفاته أن تلك الثعابين قد انتزعت أنيابها السامة ، ولولا ذلك لقتلت صاحبتها لأنها لا ترعى ذماما .. فاستبطـأ الساحرة ، فقال فى سره : « ألا يخشى أن تخوننى هذه الملعونة اذا أغراها سواى بمال كثير ؟ يجب أن أقتلها قبل خروجى من هنا » ولكنه يعلم ان لها أعوانا ربما كانوا مختبئين هناك ، فعدل عن الفتك بها وعزم على اغرائها بالمال الكثير خوفا من غدرها

وبعد قليل عادت ، وفى يدها حُق من الأبنوس ، فتحته وأرته

فيه مسحوقا أبيض وقالت : « احذر أن تمسه بيدك لأن ما يعلق منه بطرف اصبعك كاف لازهاق الروح » ثم أقفلت الحُق ودفعته اليه ، فتناوله ، وقبّل يدها ، وقال : «لاتظنى أنى سأنسىفضلك فانىمتعهد لك هدية ثمينة سأقدمها لك بعد الفراغ منهذا العمل»

قالت الساحرة : « لا حاجة بى الى هدية .. خذ هذا الحُق وامض الى سبيلك »

فتناوله وخبّأه فى جيبه وودعها وخرج .. فرأى العبد فى انتظاره ، فركب الجواد وعاد الى فسطاطه وهو يمنى نفسه بالفوز

— ٣٢ —

الاستعداد

أما حمدون فقضى ذلك اليوم فى فسطاطه .. وذهب ساعة الغروب لتناول الافطار على مائدة المعز مثل الأمس ، وقد أخلص النيّة فى مصادقته .. وهكذا ظل يفعل كل يوم من أيام رمضان ، ولمياء فى قصر المعز معززة مكرمة ، وأم الأمراء تواليها بالاكرام والايناس ..

وقبل انقضاء رمضان ببضعة أيام ، أرتها القصر الذى ستعيش فيه بعد الزفاف ، وقد ملأته بالرياش والأثاث والتحف والجوارى والغلمان .. عدا ما أهدتها اياه من المجوهرات والثياب الثمينة

ولما دنا عيد الفطر ، أخذ حمدون يهيىء معدات الاحتفال فى معسكره وهو لايعمل الا بمشورة أبى حامد ، فأشار عليه هذا أن ينصب السرادقات على مرتفع أمام المعسكر .. فنصبها على

أكمات مشرفة على ساحة كبيرة ليلعب فيها الفرسان على الخيول . وفى مقدمة السرادقات سرادق كبير أعدّت فيه المقاعد للمعز وقائده ، ومن يختار أن يكون معه من خاصته ، وسرادق للمطابخ تقام فيه الموائد وبينها مائدة خاصة بالخليفة وقائده وابنه وحمدون . وقد خصص لخدمتهم غلاما صقلبيا من خاصة غلمانه.. كان من قبل أحد صقالبة قصور قرطبة ، وكان أبو حامد قد عاهده سرا على أمور تطمح أنظاره اليها وحمدون لا يعلم . وزعم انه اختاره لهذه المائدة لمهارته فى خدمة الموائد ، لأنه تعوّد ذلك فى قصور المروانيين فى قرطبة ، وقد أتقن اعداد الأطعمة .. وكان هذا الصقلبى قد استسلم لأبى حامد ، وأصبح يتفانى فى تنفيذ أغراضه ، ولا يبالى بعواقبها ..

وكان لأبى حامد سلطة خاصة عليه من قبيل ما يعرف اليوم بالتنويم المغناطيسى ، ولم يكن يعرف يومئذ بهذا الاسم . ولكن أبا حامد كان اذا أحب أن يستهوى هـذا الغلام ؛ اختلى به وسقاه شرابا مخدرا ينعشه ويضعف ارادته ، ثم يأمره بما يريد فيصبح أطوع له من بنانه . وهو ينسب ذلك التأثير الى فعل الشراب ، والحقيقة انه يستهويه بقوته المغناطيسية .. فاذا أمره بعمل وعين له وقته ، اضطر الى تنفيذه

فلما عزم أبو حامد على ما نحن فيه استهواه قبل يوم الاحتفال ، ودفع اليه الحُق وأمره أن يضع منه شيئا فى الأقداح التى يسكبها للخليفة وقائده وحمدون والحسين بن جوهر

وفكر أبو حامد فيما يفعله اذا نجحت حيلته ، فأرسل خاصته

الى مكان بعيد عن المعسكر من جهة الطريق المؤدى الى مصر ، أعد فيه ما يحتاج اليه من وسائل النقل حتى اذا نجحت مكيدته فرّ الى مصر ليلاقى فيها سالما ، ويتمّمان مهمتهما بمساعدة صاحبها بفتح القيروان وادخالها فى حوزة الخليفة العباسى ويكون ذلك سهلا عليه بعد قتل الخليفة العبيدى وقائده .. لكنه ظل خائفا من لمياء لئلا تكون مطّلعة على جانب من أسراره من حيث مخابئه ومعداته ، فأعد لهلاكها وسيلة أخرى

- ٣٣ -
موكب الخليفة والسباق

دبّر أبو حامد ذلك كله خلسة دون أن يشعر به أحد .. وظل مشتغلا من جهة أخرى باعداد مهمات الاحتفال . وقبل عيد الفطر ببضعة أيام نقلت لمياء الى فسطاط أبيها ، على أن تزف من هناك الى الحسين فى المنصورية كما جرت العادة عندهم .. وفى صباح يوم الفطر كان معسكر حمدون غاصا بالسرادقات والأعلام . وبعد الظهر خرج الخليفة بموكبه من قصره فى المنصورية ، وعليه ملابس العيد تحف به حاشيته من الأمراء والصقالبة .. وقد امتطى فرسا من جياد الخيل ، ومشى بين يديه الأمراء والقواد الا قائده جوهر، فانه أمره أن يسير راكبا بجانبه

فلما أشرف موكب الخليفة على ذلك المعسكر ، خرج حمدون لاستقباله باحترام .. ومشى أمام الجواد حتى وقف على باب السرادق المعد لجلوسه .. فترجّل الخليفة وقائده وأومأ الى

الحسن بن جوهر أن يصعد معهما الى مقعد فى صدر السرادق مفروش بالبسط والوسائد . وقد أوقدت مباخر الند والعود فى جوانب السرادق وغرست الأعلام ببابه

فجلس المعز فى الصدر ، وأمر قائده أن يجلس الى جانبه والحسين بين يديه .. وكان الحسين أكثرهم فرحا ، وقلبه يطفح سرورا لما اتفق له من الحفاوة فى عرسه مما لم يتيسر لسواه .. كيف لا وقد خرج الخليفة المعز لدين الله من قصوره الى تلك الساحة اكراما له ، ولم يكن بين الأمراء والقواد من لم يحسده على هذه النعمة. وتقدم حمدون للترحاب بالخليفة عند جلوسه ، وأكب على يده كأنه يهم بتقبيلها اعترافا بما شمله من التقدير بتلك الزيارة وقد أخلص النية فى طاعته . ثم سأل الخليفة عمن يريد أن يجالسه فى سرادقه من الشعراء فاكتفى بابن هانى «متنبى الغرب» ، وكان حمدون قد أعد له ولأمثاله مقاعد فى جوانب السرادق

جلس المعز وخلف مقعده صقلبيان يحملان المذبّات من ريش النعام كالمظلة فوق رأسه .. وكان يتطلع الى ما يشرف عليه من السرادقات الأخرى التى أعدت لجلوس خاصته ورجال حاشيته . وقد اختص بعض أمرائه بالجلوس معه فى سرادقه .. وأمام ذلك السرادق ساحة فسيحة ، قد سوّيت أرضها ، وفرشت بالرمال للعب الخيل ..

ووقف حمدون بين يدى المعز وجعل يقدم له أمراء سجلماسة واحدا واحدا ، ويسميهم بأسمائهم وفى جملتهم أبو خامد ، واختصه عند التعريف بعبارات الاعجاب به وأعرب عن اخلاصه

للخليفة .. فأمر المعز أن يكون بين الجلوس فى ذلك السرادق . ولم يقصر أبو حامد فى تأكيد ولائه ، وولاء سائر أمراء البربر ، لأبناء فاطمة الزهراء . وبالغ فى الاطراء ، وهو كما علمت فصيح اللسان قوى الحجة رغم ما فى سحنته من الغرابة .. فأعجب المعز به ، وأبدى ارتياحه الى مجالسته

فلما استقر المجلس بالقوم ، تصدّى أبو حامد للترحيب بالخليفة بالنيابة عن صديقه حمدون فقال : « ان صديقى أمير سجلماسة يحق له أن يفاخر سائر الأمراء بما أوتيه من تنازلكم بتشريفه .. بل يحق له أن يفاخر الناس كافة ، وقد شرّفه ابن بنت الرسول (صلعم) .. ولعل صديقى حمدون لفرط امتنانه يعجز عن تأدية واجب الشكر »

فأعجب المعز بحديث أبى حامد وقطع كلامه على سبيل التواضع قائلا : « اننا نقدر الرجال الذين يستحقون التقدير.. ونحن نعلم فضل صاحب سجلماسة ، ومن آخلص لنا جعلناه واحدا منا .. وان مصاهرته لقائدنا الباسل جعلت له منزلة خاصة عندنا »

فتقدم حمدون عند ذلك ، وقال مثل ماقاله أبو حامد من عبارات الشكر ، وأكد للخليفة انه مخلص فى خدمته ، واستأنف الحديث قائلا: «ألا يأمر أمير المؤمنين بشىء يسَرّ بمشاهدته من الألعاب»

فأحب المعز أن يزيده استئناسا به ، فأجابه باللغة البربرية لأنه كان يحسنها قائلا : «كثيرا ما سمعت بمهارة فرسان سجلماسة فى ركوب الخيل .. فهل يتيسر لنا أن نراهم يتسابقون ؟ »

ففرح حمدون بذلك .. وأسرع وهو يشير بيديه فوق رأسه

اشارة الطاعة ، والتفت نحو الوقوف بباب السرادق من الرجال ، وأومأ بأصبعه الى واحد منهم.. فلم يمض قليل حتى غصَّت تلك الساحة بالخيول عليها الفرسان بالملابس الفاخرة على زى أهل سجلماسة.. وأكثرهم باللثام على رؤوسهم ، يغطى معظم الوجه.. وعلى أكتافهم البرانس الواسعة مثلما يلبس أهل تلك البلاد الى اليوم . وعلى خيولهم السروج المختلفة وفيها القرابيز الفضة أو المطعمة بالعاج.. وبينها خيول عارية لا سرج عليها وانما يزينها جمالها الطبيعى. على ان العارفين بطبائع الخيل لا يلتفتون الى ماعلى الأفراس من الكساء ، وانما ينظرون الى صدورها وأعناقها وأكتافها ويتفرسون فى عيونها.. وكان المعز من أكثر الناس معرفة بالخيل ، فأخذ يتأمل تلك الأفراس ويجيل نظره فيها كما يفعل العارف الخبير

وقف الفرسان صفا واحدا عند السرادق ، وخيولهم لا تستقر فى مواقفها ريثما أدوا واجب الاحترام . ثم أشار حمدون اليهم فأخذوا فى اللعب على ظهورها ألعابا مدهشة تشغل الخاطر لغرابتها .. وفيها ما يبعث على الاعجاب الكثير ، فقد كان أحد الفرسان يسوق فرسه حتى لا تكاد حوافره تطأ الأرض .. ويعمد وهو فى تلك السرعة فيدور حوله حتى يلتصق ببطنه ثم يعود الى ظهره ، ورأى غيره يركب فرسا ويسوق آخر الى جانبه .. وينتقل من ظهر الواحد الى ظهر الآخر والفرسان فى أقصى سرعة ، وغير ذلك .. فلم يتمالك المعز عن اطراء تلك المهارة ، ووجّه خطابه الى أبى حامد قائلا : « فى الحقيقة ان أهل سجلماسة من أمهر قبائل البربر فى الفروسية .. حتى النساء

فقد بلغنى أن فيهن ماهرات يسابقن الرجال »

فتصدى القائد جوهر للجواب وقال : « نعم يامولاى انى رأيت ذلك منهن رأى العين فى بلادهن » والتفت الى ابنه الحسين وابتسم ابتسامة ، فهم الجميع مراده منها .. وهو يعنى لمياء على الخصوص . فقال أبو حامد : « أظنك تعنى لمياء » وهز رأسه هزة الاعجاب ، فالتفت المعز ، وقال : « عرفنا لمياء عاقلة حكيمة ، وسمعنا ببسالتها فى ساحة الوغى .. فهل تحسن ركوب الخيل أيضا ؟ »

— ٣٤ —

لمياء بين المواشط

وكان حمدون واقفا يسمع ذلك الثناء على ابنته ، فلم يخطر له أن يعرض على الخليفة رؤيتها على الجواد .. لكن أبا حامد أشار اليه أن يفعل فقال : « هل يريد مولانا أن تخرج لمياء على فرسها ؟ »

فقال المعز وهو يحك أنفه : « لا نريد أن نزعجها اليوم لأنها فيما هو أهم من ذلك » وضحك

فتصدى أبو حامد للجواب وقال : « انها لم تركب الخيل من زمن بعيد ، واذا ركبت اليوم فلعلها آخر مرة يتأتى لها ذلك .. اذ متى صارت فى بيت القائد فربما لايعود يتيسر لها ذلك »

فأشار المعز بالقبول وقال : « طبعا نحن نحب أن نراها ولكن لا نعلم اذا كان الحسين يوافقنا .. » والتفت الى الحسين

وابتسم فعدء الحسين التفاته نعمة أخرى .. فأطرق خجلا ..

فوقف جوهر بالنيابة عن ابنه وقال : « انها آمة مولانا أمير المؤمنين ، وسيكون لها الحظ كما يكون لنا فى سبيل طاعة أمير المؤمنين »

فأسرع حمدون الى فسطاطه ليخاطب لمياء بما جرى ، وهو يعلم ان خروجها فى تلك الساعة من أصعب الأمور لأنها ساعة التبرج والتزين . وتصور انه سيجدها بين أيدى المواشط والحواضن يقمن بتزيينها ويصلحن من شأنها .. ولكن خاب ظنه ، لأن لمياء حين تحققت من اتمام القران وحان وقت الزفاف هاجت عواطفها الكامنة ، وعادت اليها ذكرى سالم حبيبها الأول . ورغم ما ظهر من ضعفه وتردده ، فانها كانت ما تزال تحبه وتتفانى فى مرضاته. وانما كان قبولها الحسين مؤقتا ، تنتظر مايأتى به الغد فى أثناء شهر رمضان . فلما جاء عيد الفطر ولم يأت جديد وانتقلت الى بيت أبيها لتزف الى الحسين ، أظلمت الدنيا فى عينيها ، وتحققت من أنها لا تلبث أن تصير زوجة لرجل.. وان كانت تحبه وتعجب بمناقبه ، لكنها لا تزال ترى سالما أولى بقلبها منه . واعتقدت أن قبولها الحسين يعد فى شرع المحبين خيانة.. فوقعت فى حيرة ، وظهرت الحيرة على وجهها ، وخاصة فىصباح ذلك اليوم حين أتت المواشط لتزيينها فاستمهلتهن وانزوت فى فسطاط أبيها تفكر ..

فلما جاء أبوها ليخاطبها فى شأن الركوب ، أخبروه بما فعلت.. فذهب اليها فوجدها تجلس على وسادة وحدها ، وقد أطرقت وبانت الحيرة فى عينيها فقال : « ما بالك يا لمياء ؟.. لماذا أنت هنا ؟ .. »

فهمّت أن تجيب ، ولكن الدموع سبقتها .. فسكتت ..

فدنا منها وأمسك بيدها ، فأحس ببرودتها وارتعاشها ، وقد بالغت فى الاطراق .. فلاحظ الدمع فى عينيها فتملكته الدهشة.. وهو لايستطيع أن يتصور عواطف المحبين لأنه لم يذق طعم الحب فقال لها : « ما هذا الجنون ؟.. ما بالك ؟.. لماذا تبكين ؟.. »

فأفلتت يدها منه وقالت وصوتها مختنق : « أبكى على سوء حظى .. يا لتعاستى ! »

فقال حمدون : « وأى تعاسة ؟ هل فى الدنيا فتاة أسعد حالا منك ؟ ستزفين بعد ساعات قليلة الى أنبل الشبان . وهذا أمير المؤمنين قد جاء بنفسه ليكون زفافك على يده .. ان ألوفا من الأميرات يحسدنك على هذا الحظ وأنت تشكين من سوئه ؟ »

فقالت لمياء : « انى سيئة الحظ .. دعنى الآن .. »

قال حمدون : « كيف أتركك وأنا قادم اليك فى مهمة من المعز لدين الله .. لقد بلغه انك ماهرة فى ركوب الخيل ، فطلب أن يراك على الجواد »

فلما سمعت قوله شعرت بارتياح لأن خروجها على الفرس ينجيها من مضايقة المواشط . وكانت اذا ركبت الفرس اعتزت بنفسها على صهوته ، ونسيت كل مصائبها .. وهى مع ذلك تحترم ارادة الخليفة ، لكنها لم تجد فى نفسها ميلا الى الخروج فى تلك الساعة ، وهي غارقة فى القلق والاضطراب فقالت : « كيف يخرج مثلى الىساحة السباق؟.. ان هذا لم يسمع به من قبل»

قال حمدون : « صحيح .. لكن أمر الخليفة لايمكن رده ،

وقد وافق عليه القائد جوهر وابنه الحسين »

فلما سمعت اسم الحسين عادت الى هواجسها وندمت لأنها لم تقطع فى هذه المسألة من أول الأمر .. منذ أن خاطبوها فى هذا الشأن . لقد كان ينبغى أن ترفض ، أو تقبل وتهرب ، أو.. ولا ترضخ لذلك التردد شهرا كاملا حتى اذا آزفت الساعة ضاقت بها الحيلة ..

فلما طال سكوتها ظنها آسفة لخروجها من بيت أبيها ، ودخولها بيت رجل غريب .. كما يحدث لأغلب البنات فى مثل هذه الحال . فأمسكها بيدها وأنهضها وهو يقول لها : « اركبى جوادك وانزعى الأوهام عنك . انك ذاهبة الى بيت أعظم من بيت أبيك ، وستزفين الى شاب هو أعظم شبان هذه الديار .. قومى .. هيا بنا ، ان الخليفة فى انتظارنا »

— ٣٥ —

لمياء على الجواد

فوقفت لمياء ورأت أن خروجها على الجواد خير من بقائها هناك ، وخطر لها أنها قد تسقط فتقتل ، وتنجو من ذلك التردد.. فأطاعته ولبست ثوبا يليق بالركوب ، ولفّت رأسها بلثام تعوّدت أن تلتف به اذا ركبت . وأتوها بفرس من أحسن الأفراس ، فركبت وساقته الى الساحة أمام السرادق والجواد يقطر عرقا . فتقدم اليه أحد الغلمان الواقفين هناك لتلبية الفرسان بما يحتاجون اليه من التقاط حربة سقطت أو ابدال رمح كسر ..

وفيهم من يمسح عرق الخيل أو يغسل وجوهها تنشيطا لها ، فتقدم أحدهم وبيده وعاء فيه ماء واسفنجة بلّها بالماء ، ومسح وجه الجواد ، وأخذ فى تنشيفه ولمياء على ظهره كالجبل الراسخ

ولم يكد الغلام يفرغ من عمله والخليفة يتوقع أن تبقى لمياء واقفة تنتظر أمره .. اذ رآها تشير اليهم اشارة الوداع كأنها راجعة الى خدرها .. واذا بالجواد قد عدا بها عدوا سريعا على غير ارادتها ، كأنك وخزته بحربة فى جنبه .. ولم تشأ أن توقفه لئلا يوحى ذلك بأنها خائفة ، فأطلقت له العنان على أن توقفه وهى بعيدة عن سرادق الخليفة .. فظن أهل السرادق انها فعلت ذلك عمدا على أن تعود رأسا الى فسطاطها . أما هى فأرادت أن توقف الفرس فلم تره يزداد الا عدوا على غير هدى كأنه أصيب بجنّة وعبثا حاولت كبح جماحه ، ثم رأته يوغل بها فى الشعب والجبال ، وهو يشخر ويصهل ويهز رأسه .. وأرادت أن تحوّله نحو المعسكر فلم يطعها . وبعد قليل التفتت الى الخلف ، فرأت انها صارت على مسافة بعيدة من المعسكر، وقد توارى عنها المعسكر والمنصورية جميعا .. والجواد سائر بها نحو الجنوب الشرقى

مرّت بها دقائق رهيبة خطر لها فى أثنائها خواطرعديدة . وفى جملتها : أنجموح ذلك الجواد سوف يقتلها ، لكنه قد ينقذها من ترددها ووخز ضميرها ، وكانت الشمس قد مالت الى المغيب وأخذت الظلال تستطيل ، ولمياء توغل فى الوعر، وتبعدعن العمران

فثبّتت نفسها على الجواد كأنها قطعة منه .. وهى لا تخشى السقوط ، لكنها تحققت انه أصيب بشىء كالجنون .. أو انه

أهيج بوخز أوعقار مهيج.. لأنه لم يكن يعدو فى طريق معروف ، بل كان تارة يهبط واديا ، وطورا يصعد جبلا ، والحجارة تتطاير من بين حوافره .. ولم يقع بصرها على أحد تستنجد به أو تطلب معاونته ، فعزمت على التحول عن الجواد وهو راكض .. ولا يعجزها ذلك لتعودها مثله ، ولكن الأرض لم تكن رملية أو ترابية حتى تثب اليها ..

وبينما هى تفكر فى ذلك ، اذ اصطدم الجواد بصخر ، فقذفت بعيدا عن ظهره الى مسافة بضعة أذرع .. فوقعت فى حفرة هناك قليلة العمق .. فغابت عن رشدها

ولم تنتبه الا وقد أظلمت الدنيا وظهرت النجوم ، فأرادت النهوض فأحست بألم فى جنبها .. ولكنها لم تجد فيه كسرا وانما هى رضوض، ثم أحست بشىء يسيل على عنقها فتلمسته فاذا هو دم بارد .. فعرفت أنها أصيبت بجروح ، فتجلّدت وتماسكت ، ثم توكأت على يديها.. ونهضت وهى تستند الى جدار الحفرة ، والتفتت الى ماحولها فرأت انها فى بلقع.. ولم تقو على الوقوف فسقطت ، فأخذت تفكر فيما حلّ بها ، وصبّرت نفسها ريثما تستريح ، وجعلت تجس أعضاءها لتتحقق من نجاتها من كسر أو صدع ، فوجدت أنها سليمة ليس فيها شىء غير الرضوض. وشغلها اضطرابها عن الخوف من الحشرات المؤذية .. وكانت كثيرة هناك

وأخذت تناجى نفسها قائلة : « ألم يكن من الأفضل أن أصاب بكسر فى عنقى ، فأموت وأنجو من متاعبى ؟.. فيكون الله قد استجاب دعائى وأنقذنى من عذاب التردد . ياربى ما العمل الآن ؟ »

ثم تزحزحت لتختبر قوتها .. فسمعت خشخشة ثعبان ينساب بين الأحجار وراءها ، فوقف شعر رأسها .. وهمَّت بالنهوض لتخرج من ذلك المكان .. ولم تكن تخشى الثعابين اذا صادفتها فى النور ، لكنها خشيت غدر الثعبان فى الظلام

- ٣٦ -

رسول غريب

وبينما كانت تهمّ بالنهوض ، اذ سمعت وقع حوافر مسرعة .. فأسرع الثعبان فى الانسياب حتى توارى ، وخفق قلبها ، فالتفتت فرأت أشباحا كالفرسان يزيد عددهم على عشرة يسوقون أفراسهم فحدثتها نفسها أن تستغيث بهم .. ولم تكد تهم بذلك حتى سمعت صوتا يقول : « هل رأيتم أحدا ؟.. لاشك أنها قتلت »

فأجابه الآخر : « لابد من ذلك لأننا رأينا الجواد مقتولا فهل تبقى هى على قيد الحياة ؟ »

وتوسمت فى صوت الأول لهجة أبى حامد ، فغالطت نفسها وأحبت أن تتحقق من ظنها ، فانزوت فى مكانها حتى اقترب القوم منها فقال أحدهم : « لقد نجحت حيلتنا.. ولا يلبث ذلك الدعىّ أن يموت هو وقائده قبل أن يتناولا العشاء ، انظروا هـذا هجان قادم من طريق مصر .. تربصوا له »

فأصبحت لمياء من شدة تأثرها تنتفض كالعصفور بلّله القطر. وخانتها قواها وقد أدركت آن القوم : أبوحامد ورجاله ، وانه هو الذى دبّر لها هذه المكيدة بشىء وضعوه للجواد فى أنفه

عند غسل وجهه . وحدثتها نفسها أن تصيح فيهم ، فعلمت انها اذا فعلت قتلوها لا محالة وهى لا تريد أن تموت على أيديهم .. فتجلدت وأخذ تنظر الى الجهة التى تظن أن الهجان قادم منها .. فرأت هجانا مسرعا سرعة البرق ، فاعترضه الفرسان وأوقفوه وسأله أحدهم قائلا : « الى أين يارجل ؟ »

قال الهجان : « الى المنصورية »

قال أحدهم : « ومن تريد ؟ »

قال الهجان : « أريد أمير المؤمنين المعز لدين الله »

قال أحدهم : « وما الذى تحمله اليه ؟ »

قال الهجان : « أحمل اليه رسالة من مصر »

قال أحدهم : « أين هى ؟ هاتها .. انها من رجاله »

قال الهجان : « لا أسلمها الا اليه .. دعونى أسير فى طريقى »

قال ذلك وأدار زمام هجينه ، فاعترضوه ومنعوه وألحوا عليه أن يدفع اليهم بالرسالة وهو لايوافق .. فقال أبو حامد : « انت كاذب .. انك لست قادما من مصر ، فالقادم منها لايأتى منفردا فى هذه الصحراء .. أصدقنا والا قتلناك »

قال الهجان : « كنت قادما فى قافلة نزلت عند الغروب على ماء هناك .. وأسرعت وحدى لتبليغ الرسالة لأنها عاجلة لا بد من تسليمها قبل انقضاء هذا اليوم »

فقال أبو حامد : « لاشــك انك كاذب بل أنت لص أو جاسوس ، ونحن من رجال الخليفة .. فاذا كنت صادقا فادفع لنا الرسالة والخليفة الآن فى قصره لا تدركه الا وقد نام »

قال الهجان : « انها رسالة خاصــة .. وقد أمرت أن لا أسلمها الى أحد سواه ولو كان ابنه . وقد أوصيت أن أدفعها اليه حال وصولى ، واذا كان نائما أيقظته ، واذا كان متكئا لا أمهله أن يجلس قبل أن أدفعها اليه .. هذا ما أمرت به ، فاذا كنتم من رجال الخليفة كما تزعمون فدعونى أذهب فى سبيلى »

فقال أبو حامد : « اعطنا الرسالة والا قتلناك »

فقال الهجان : « اقتلونى ولا أسلمها الا لصاحبها »

ولم يتم كلامه حتى سمعت لمياء استلال الحسام ، ورأت أحدهم قد ضرب ذلك الهجان بالسيف على رأسه فسقط عن الجمــل قتيلا وصاح أبوحامد وهو يقهقه من الضحك : « أوصل اليه الرسالة ، أو تمهل .. فانكما ستلقيان فى الجحيم بعد قليل »

والتفت الى القاتل وقال له : « فتشه وأخرج الرسالة من ملابسه .. والحق بنا فاننا سنتقدم الى موضع القافلة» قال ذلك وساق جواده ، وتبعه رجاله الا القــاتل ، فانه ترجّل عن جواده ، ووضع سيفه المسلول على الأرض بجانبه حتى يمسحه من الدم بعد الفراغ من تفتيش القتيل

فتحققت لمياء ان تلك الرسالة هامة ، ولولا ذلك لم يفضل حاملها القتل على تسليمهــا ، وأعجبتها أمانته وثباته . وكانت كثيرة الاعجاب بالأخلاق العالية ، فأسفت لموته وأحست بميل الى الانتقام له . وكانت قد تجددت قواها أو لعــل حماستها نشطتها .. فتلملمت ونهضت وخرجت من الحفرة خلسة ومشت ــ والرجل مشتغل بالتفتيش ــ حتى دنت من السيف المطروح

بجانبه ، فتناولته بأسرع من البرق ، وأطلقته على عنقه ، فسقط فوق الهجان .. وثنّت عليه بضربة أخرى حتى تحققت من موته ، ثم أزاحته وأتمت التفتيش . فوجدت الرسالة وهى عبارة عن اسطوانة من القصب الفارسى فيها الكتاب ، وكان قد خبأها بين أثوابه . وهمّت بالجواد فامتطت صهوته ، وكانت قد عرفت جهة المنصورية منذ رأت الهجان قادما ، وحولت شكيمة الجواد نحو معسكر أبيها ، وقد عادت اليها قواها تحمسا فى مصلحة المعز ، وأسرعت فى ايصال تلك الرسالة لاعتقادها انها لو لم تكن عظيمة الأهمية لم يؤمر حاملها بايقاظ الخليفة من نومه لتسليمها اليه ، وكانت قد تنسمت من كلام أبى حامد انهم أعدوا مكيدة لقتل المعز. فعلمت أنها اذا أسرعت أنقذت ذلك الخليفة الذى تحبه وتحترمه . فهمزت جوادها نحو معسكر أبيها وهى لا تراه .. لكنها علمت مما حولها انها متجهة نحوه ، وقد نسيت حالها ولم تعد تفكر فى الدم الذى يسيل على عنقها ، وكان قد جمد وانسد الجرح.. ولم يكن يؤلمها لأنه سطحى ..

أما أهل ذلك المعسكر ، فكانوا حين رأوا لمياء تشير اليهم اشارة الوداع ، وركض بها الفرس .. توهموا أنها عزمت على شوط تركض به فرسها ، ثم تعود الى فسطاطها الذى كانت فيه كما تقدم ..

وكان أبو حامد هو الذى دبّر تلك المكيدة للمياء ، فدسّ أحد غلمانه بين الموكلين بمساعدة الفرسان .. وأوصاه أن يدس فى أنف جواد لمياء مادة حريفة تهيجه وتحمله على الركض بغير

هدى ، فهو عند ذلك لا يهدأ حتى يتحطم هو وراكبه

فلما تحقق من ظهور أثر العقار ، ورأى لمياء قد غابت عن أعينهم وسمعهم يتساءلون عن مصيرها ، أكد لهم أنها ودعتهم ولا تلبث أن تعود الى فسطاطها وأخذ يشاغلهم بالحديث .. وطلب الى حمدون أن يأتيهم ببعض الألعاب الغريبة ليتسلى الخليفة برؤيتها مما لا مثيل له فى القيروان ، واحتال فى الخروج من السرادق ، وكان قد أمر رجاله أن يهيئوا أحمالهم ويخرجوا بها من ذلك المعسكر الى مكان يعرفونه بجانب الطريق المؤدى الى مصر كما تقدم ..

فلما بعد عن المعسكر ، ركب هو ورجاله وأخذوا يبحثون عن لمياء ليتحققوا من موتها .. وشاهدوا جوادا فى الطريق قد سقط قتيلا بعد أن اصطدم بذلك الصخر ، وتراجع ودمه يسيل من صدره حتى وقع .. فلما رأوه ولم يعثروا على لمياء ، تأكدوا من موتها فى مكان ألقى بها فيه

— ٣٧ —

المائدة

أما حمدون فلما دنا وقت الغروب ، دعا الخليفة الى العشاء الذى أعده له فى السرادق الخاص بمائدته . وذهب الأمراء الى موائدهم فى السرادقات الأخرى ومشى الخليفة الى المائدة ، وقد أضيئت السرادقات بالشموع وأحرق البخور فى أطرافها ، ومدت الموائد فى أواسطها وعليها أنواع الأطعمة . وذهب

حمدون الى الطاهى القرطبى الذى تقدم ذكره ، وبالغ فى توصيته كى يحسن خدمة الخليفة ..

وقبل التقدم الى المائدة، حلّ موعد الصلاة فصلى الخليفة، وصلى القوم وراءه .. ثم جلس كل منهم فى مكانه ، ومائدة الخليفة لم يجلس عليها الا هو وقائده وابن قائده ، ووقف حمدون يخدمهم بنفسه بمساعدة الطاهى المشار اليه وبعض غلمان آخرين يحملون الأطباق من المطابخ. ووقف سائر الغلمان بأباريق الفضة والقوارير فيها الجوارشنات أو الأشربة الهاضمة .. وقد شغل حمدون ضيوفه عن التفكير فى لمياء لاعتقاده انها عادت الى فسطاطها

وبعد أن قدّمت ألوان الأطعمة ، وهى كثيرة ومتقنة ، أحسّ الخليفة بالعناية التى بذلها صاحب سجلماسة فى اكرامهم ، وظهر له الفرق بين الأطعمة التى تعود أن يتناولها فى قصره وماتناوله تلك الليلة .. لأن العبيديين كانوا الى ذلك الحين لايزالون ميالين الى البساطة فى الطعام والملبس لأسباب تقدم بيانها . أما حمدون فقد تعود — وهو فى سجلماسة — الترف والتأنق فى الأطعمة تقليدا للمروانيين فى قرطبة .. وكان يبتاع مثل آنيتهم للمائدة من الأباريق والأطباق من الفضة والذهب ويوصى الطهاة بمعالجة اللحوم وغيرها ، مثلما كان الخليفة الناصر يفعل فى قصر الزهراء

فلما صار حمدون فى الأسر لم يعد يستطيع ذلك التأنق ، لكنه فى تلك الليلة أوصى الطهاة أن يبذلوا أقصى الجهد فى اعداد الأطعمة ليظفر بتقدير الخليفة ويؤكد له حفاوته واكرامه .. ذلك ما أوعز به أبوحامد ، وأوصى طاهيه الخاص بأن يجعل فى جملة

الأشربة الهاضمة الشراب الذى أمره أن يضع السم فيه ..

فلم يتمالك المعز لدين الله عن ابداء اعجابه بتلك الحفاوة ، وأشاد على الخصوص بروعة الأطعمة .. فقال حمدون : « لقد تجاسرنا فى اخراج أمير المؤمنين عن عادته فى الاقتصار على الأطعمة البسيطة التى اقتضاها تقشفه ، الى ما تعوّده غيره من الملوك المنغمسين فى ملذات الدنيا . وانما فعلنا ذلك على سبيل التجربة فقط »

فقال المعز : « قد علمنا ذلك ولا بأس به .. ولكن كيف تأتى لك هذا وأنت هنا ؟ »

فقال حمدون : « عهدت بذلك الى طاه من جملة طهاة صاحب قرطبة وهو كثير التفنن » وأشار الى الطاهى الواقف فى جملة الواقفين وقال : « هذا الطاهى ياسيدى أبرع من عرفت من الطهاة فى اعداد الأطعمة »

فالتفت المعز اليه فرآه فى أنظف ما يكون من الثياب ، وقد حمل بيده ابريقا من الذهب وقدحا ، فابتسم المعز ابتسام من عرف الحق وأغضى عنه ، وقال : «بمثل هذه الأطعمة أوهنت عزائم أولئك . لكن لا خوف علينا لأننا لن نعود الى مثلها بعد الآن .. ما الذى تحمله فى هذا الابريق؟ لم تعد لنا قدرة على طعام .. »

فتقدم الطاهى وقال : « هذا ياسيدى شراب هاضم لا تلبث أن تتناول منه قدحا حتى تذهب التخمة وتشعر بالرغبة فى الطعام ثانية .. »

قال ذلك وصب منه ملء قدح منقوش من الزجاج ، وناوله الى

حمدون .. فأخذ حمدون القدح وجعل يتفرس فيما عليه من النقوش ، وهو من جملة آنية ابتاعها من تاجر حملها من قرطبة . ثم نظر الى الخليفة وقال : « هذا الشراب الهاضم لم أذقه قبل الآن ، فانه من استنباط هذا الطاهى .. ولذلك ينبغى أن أذوقه قبل تقديمه لأمير المؤمنين » .. كما كانت عادتهم فى الشروع فى تناول الطعام قبل ضيوفهم ، ويعدون ذلك مبالغة فى الحفاوة.. ثم أدنى القدح من فمه وشربه وأخذ يتلمظ ويبدى اعجابه بالشراب .. وأمر الساقى فصبَّ فى قدح آخر ناوله الى الخليفة ، وآخر ناوله الى القائد جوهر وآخر للحسين

— ٣٨ —

قادم مفاجىء

وهمَّ الخليفة أن يتناول الشراب لمجرد مجاراة حمدون لأن معدته كانت قد امتلأت بالأطعمة والأشربة .. ولكن أزعجه دبيب جواد مسرع وقف بباب السرادق وعليه راكبٌ ملثم ، والجواد يلهث لهثا شديدا ، وقد تصبَّب العرق منه من الجهد .. وترجَّل فارسه وهمَّ بالدخول بلا استئذان ، فمنعه الحرس فلم يبال .. واخترق الصفوف ركضا ، وبيده اسطوانة من الغاب الهندى حتى دنا من المعز ، فخشى القوم أن يكون من جسارته خطر على الخليفة ، فنهض القائد جوهر والقدح بيده وأمره أن يرجع .. فلم يبال وظل مسرعا وظهرت بقع الدم على لثامه ، فلما دنا من الخليفة دفع اليه الاسطوانة وأشار باصبعه أن يقرأها

« وهم الخليفة ان يتناول الشراب لمجرد مجاراة حمدون لان معدته كانت قد امتلات بالاطعمة والاشربة فازعجه دبيب جواد مسرع وقف بباب السرادق وعليه راكب ملثم »

حالا .. فتناولها منه وهو يتفرس فيه ، وكان الحضور منذ دخل الرسول قد استأنسوا بثوبه وخصوصا حمدون فانه عرف ابنته من ثوبها فصاح : « لمياء ! .. »

فلم تجبه .. وحين سمعه الخليفة يناديها ، فطن الى أنها قد تكون هي ، فقال : « هل أنت لمياء ؟ » قالت : « لا تعمل شيئا ياسيدى قبل أن تقرأ هذه الرسالة »

فلما سمع حمدون صوت ابنته عرفها ، فأراد أن يدنو منها لمخاطبتها .. فخانته قدماه وأحس بدوار شديد فسقط على الأرض، فأسرع الغلمان الى اسعافه ، ونقلوه الى فسطاط قريب.. والخليفة ينظر الى الكتاب وهو يقول للمياء : « من أين هذا ؟ » ولم يكترثوا لدوار حمدون لاعتقادهم أنه نتج من كثرة الأكل

فقالت لمياء : « هو من مكان بعيد ، وقد أمر حامله أن يعطيه للخليفة حال وصوله .. فاذا كان نائما يوقظ ، واذا كان متكئا لا يمهل حتى يجلس قبل قراءته ، وهذا ما جرأنى على ازعاجكم وأنتم على المائدة »

فدفع الخليفة الاسطوانة الى القائد جوهر، ففضها وأخرج منها لفافة عرف من شكلها انها من مصر .. لكنه لم يعهد بينه وبين أميرها صداقة أوعلاقة توجب مراسلة ، ودفع جوهر الرسالة الى المعز لعلمه أنه يجب أن يقرأ المراسلات بنفسه . وكان القدح لايزال فى يده فأدناه من فمه ليشربه قبل قراءة الرسالة ، فأسرعت لمياء وأبعدت القدح عن فمه وقالت : « قد أمر حامل الرسالة أن يمنع أمير المؤمنين عن كل عمل قبل قراءتها »

فاستغرب المعز ذلك وأخذ فى القراءة لنفسه ، والحضور يتطلعون الى وجهه وخصوصا جوهر .. فرأوا أن الخليفة قد تغيرت سحنته وبدا الغضب فى وجهه ، وساوره القلق .. وأما الحسين فكان فى أثناء ذلك لايرفع بصره عن لمياء ، وقد أدهشه ما رآه من حالها والدم قد لطخ نقابها وجانبا من ثوبها . ولم يتجاسر أن يخاطبها فى حضرة الخليفة ، ولاسيما بعد أن رأى تغير وجهه . وأطال المعز نظره فى الكتاب وأعاد تلاوته وهو كالمستغرب لما يقرأه . وتطاول الحضور بأعناقهم لمعرفة ما حواه الكتاب ، لكنهم لم يجسروا على السؤال عنه ..

وبعد هنيهة أشار الخليفة الى جوهر وابنه أن يضعا الأقداح ، ودفع الكتاب الى جوهر .. ونظر الى لمياء وقال لها : « أين حامل هذه الرسالة ؟.. ادعيه الى هنا »

قالت لمياء : « ان حاملها قتل ياسيدى ، وكدت أقتل معه .. ولكن الله أعانني لايصاله اليكم وأنا على آخر رمق »

فأشار الى من فى السرادق أن يخرجوا الا جوهرا ولمياء ، وأمر الحجاب أن يمنعوا الناس من الدخول حتى الأمير حمدون نفسه ففعلوا . وكان جوهر مستغرقا فى تلاوة الكتاب لنفسه وقد أصابه من الدهشة أضعاف ما أصاب المعز . فلما خلا السرادق من الغرباء التفت الخليفة الى لمياء وقال : « اكشفى عن وجهك وقصى علينا خبرك .. انى أرى عجبا وأقرأ أعجب منه »

فلم يسعها الا الطاعة .. فرفعت اللثام عن وجهها ، وقد لصق بعضه بعنقها من الدم ، وتغيرت ملامحها من عظم ما آلمها بها فى

تلك الليلة ، وازدادت عيناها حدة وبسالة وابراقا

فقال الخليفة : « ما خبرك ? من أين أتيت ? »

فقصت عليه ما جرى لها من أوله الى آخره ، وهو يسمع ويستغرب وينظر فى أثناء الحديث الى قائده كأنه يستطلع رأيه فيما يسمعانه من الغرائب

— ٣٩ —

نص الرسالة

فلما أتت على آخر الحديث أصبحت فى شوق للاطلاع على فحوى تلك الرسالة ، لكنها لم تجسر على طلب ذلك . أما الخليفة فانه كان يسمع كلامها ويتأمل فيما يبدو فى عينيها من صدق اللهجة والبسالة.. فلما وصلت الى الحديث عن لقاء ذلك الهجان وكيف انها قتلت قاتليه ، وحملت الرسالة لايصالها سريعا ، وهى مصابة بالجروح والرضوض ، لم يتمالك أن قال لها : «لله أنت من فتاة باسلة وصديقة صادقة.. أتحبين أن تسمعى نص هذا الكتاب فانى أعدك ابنة لى ، بل أنا لا أتوقع من ابنتى أو ابنى أن يكون غيورا علىّ مثل هذه الغيرة .. اجلسى» وأشار الى مقعد بجانبه فجلست عليه ، وأمر جوهرا أن يقرأ الرسالة فأخذ يقرأها وهذا نصها :

« الى أمير المؤمنين المعز لدين الله من عبده يعقوب بن كلس

« أما بعد فانى مابرحت أذكر نعم المولى ، وفضله علىّ، وعلى آبائى ، وأنا أترقب الفرص للقيام بما فرض علىّ فى سبيل نصرته ، لأنى وان كنت ذميا لم أتشرّف بالاسلام ، فانى قادر على أن أرى

وجه الحق بالنظر الى تنازع المسلمين على الخلافة . وهي حق صريح لآل على أبناء عم النبي وأبناء بنته . وانما اختلسها سواهم طمعا في الدنيا ، لكن الحق عاد الى نصابه بفضل أجدادك الكرام وسيتأيد على يد الامام المعز لدين الله . ولذلك رأيتني لا أدخر وسعا في نصرة الحق ، وأتحيّن الفرص لتأدية خدمة تعود على الامام بالنصر، وقدعلمت بدسيسة أعدها المبغضون لايقاع الأذى بالامام وقائده ـ أعزهما الله ـ علمت ذلك بطريقة غريبة في ليلة من ليالي القدر.. فلم أنم قبل أن أكتب هذا ، وبعثت به على جناح السرعة مع رسول غيور أوصيته أن يعجل في السير حتى يصل قبل فوات الفرصة.. فأرجو أن يكون قد فاز بذلك ، وسلّم كتابي هذا الى المولى أعزه الله ونصره على أعدائه.. وجلية الخبر ياسيدي اني علمت من قرائن مختلفة أن بين أمرائك العائشين تحت جناحك أناسا يسعون في الكيد لك ولقائدك ، ويخابرون صاحب مصر لفتح القيروان والحاقها بخلافة العباسيين .. وكنت حين أسمع ذلك أستبعده ، اذ لا يعقل أن يسعى أحد في ابدال دولة جديدة زاهية بدولة بالية خربة .. وحدّثتني نفسي أن أكتب اليكم بذلك ، وترددت حينا حتى وقفت بالصدفة على أمر أطار صوابي وأقلقني . وهو ما بعثني على كتابة هذا بوجه السرعة ، وقلبي يخفق خوفا من تأخره عن الوقت اللازم .. علمت ياسيدي من مصدر وثيق ، وقد سمعت بأذني ان صاحب سجلماسة المقيم في جوارك ، ورجلا من خاصّته اسمه أبوحامد ، اتفقا على الكيد بك ، وبقائدك الباسل، على أن ينفّذا الحيلة في عيد الفطر المبارك،

وبعثا الى مصر شابا من رجالهما اسمه سالم يزعم انه ابن أبى حامد أو ابن أخيه . فهذا الشاب سمعته بأذنى يقص خبر المكيدة — وهو فى حال سكر — على امرأة أحبَّها .. ولكى تتأكد من صدق قولى ، فأنا أذكر من أسماء الأشخاص الذين استعان بهم فى هذه المكيدة فتاة أظنها ابنة صاحب سجلماسة اسمها لمياء ، أظهر لها سالم انه يحبها ليستخدمها فى اتمام هذه المكيدة لأنها من المقربين فى قصر مولاى أمير المؤمنين . ولا يطيعنى قلبى على التصريح عما دبر أولئك الملاعين .. وقى الله مولانا الخليفة من كيد الكائدين .. واذا بلغ كتابى هذا الى سيدى الخليفة قبل عيد الفطر فهو ناج باذن الله .. والرسول رجل من المولعين بالحق أنصار العلويين ، أيَّد الله ملكهم . وأنا ياسيدى خادم مطيع لكم أبذل نفسى فى سبيل الحق ، ولا غرض لى غير ذلك .. والسلام »

ولم يتم جوهر قراءة الكتاب ، حتى استولت الدهشة على لمياء وأصابها شبه دوار من الحيرة .. لدهشتها مما سمعته عن سالم . وانكشفت لها مكيدته وتحققت انه كان يخادعها ، فأحست من تلك اللحظة بكراهيته وتحول حبها الشديد الى كره شديد ، وأصبحت لا تصبر عن الانتقام لنفسها منه . وأطرقت كأنها أصيبت بجمود وشعرت كأن الدم جمد فى عروقها ، واصطكت ركبتاها وتولتها الرعدة .. وقد خجلت مما تلى عليها من اشتراكها فى تلك المكيدة . وكيف ان يهوديا يبعث بخبرها من مصر غيرة على الخليفة وهى فى قصر المعز ، وقد اطلعت على المكيدة منذ شهر ولم تخبره بها .. لكنها التمست لنفسها عذرا

انها دافعت حتى انتهت المسألة على هذه الصورة

مرت هـذه الخواطر بذهنها فى لحظة سمعت الخليفة أثناءها يقول : « أين صديقنا صاحب سجلماسة ؟ »

فلما سمعت لمياء نداءه تحققت انه أراد أن يسأله عن المكيدة ، وخشيت أن يتعرض لأذى ، لكنها سكتت لترى ماذا يكون .. فأجاب أحد الغلمان : « ان الأمير حمدون نائم منذ نهض عن المائدة »

فقال وقد ظهر الغضب فى وجهه : « أيقظوه » ثم التفت الى القائد جوهر وقال : « وأبوحامد ؟.. أليس هو ذلك الرجل الذى قدمه لنا حمدون ؟ أحب أن أرى الأمير حمدون لأسأله عن تلك المكيدة وان كنت لا أصدق اشتراكه فيها .. ولكنه سيفصح عن التفاصيل ونرى ماذا يكون .. أين هو ؟ أيقظوه .. »

— ٤٠ —

موت حمدون

واذا بغلمان حمدون يتراكضون وقد أخذتهم البغتة ، وتقدم أحدهم الى المعز وقال وهو يغص بريقه : «لم يستيقظ ياسيدى» وأخذ فى البكاء .. فلما سمعت لمياء بكاءه أسرعت الى حيث رقد أبوها فوجدته مستلقيا على مقعدهناك، وقد تغير لونه ، فازرقت بشرته ، وغارت عيناه ، وبانت أدلة الموت فى وجهه ، فصاحت : « وا والداه .. ماذا جرى لك ؟ » وجعلت تجس يديه ووجهه فاذا هو ميت لاحراك به .. فأخذت تناديه ، وسمع الخليفة بكاءها

فأسرع ومعه القائد جوهر ، فلما رأيا حمدون تحققا من موته ، وعجبا لما أصابه .. فأمر المعز أن يؤتى بالطبيب حالا فأتى ، ولما وقع نظره عليه صاح : « مات الأمير مسموما .. ماذا شرب ؟ »

فقال المعز : « أكلنا معا من طعام واحد الا شرابا صبه الغلام لنا جميعا فشربه ولم نشربه نحن ، ولا تزال أقداحه مملوءة على المائدة . ومشى الخليفة الى غرفة المائدة ودل الطبيب على الأقداح ، فتناول الطبيب قدحا منها وتأمل السائل الذى فيه قليلا وشمه ، ثم أخرج من جيبه مسحوقا وضع شيئا منه فى ذلك الشراب ، وجعل يتفرس فيما يحدث فيه والجميع وقوف ينظرون. فلم تمض برهة حتى تحول ما فى القدح الى راسب أصفر وتغير لون الماء فصاح : « ان هذا الشراب سام .. من صنعه ؟ »

فأمر المعز بالقبض على الطاهى الذى أشرف على تلك الوليمة .. فلم يقفوا له على خبر ، وأطرق المعز فى أثناء ذلك وأعمل فكرته فيما رآه من الغرائب فى ذلك المساء ، فاتضح له سلامة نية حمدون لأنه لو اشترك فى المكيدة وعلم آن الشراب مسموم لما تناوله ..

وأسف المعز لموت حمدون ، وأمر أن يُجهَّز ويدفن .. والتفت الى لمياء فاذا هى قد وقفت لا تنبس بكلمة .. كأنها أصيبت بجمود ، فقال لها : « تعالى يا بنية رحم الله والدك .. انه مات مظلوما ، والله يتولاه برحمته فأنت الآن ابنتنا .. لا نقول لك ذلك تعزية لك ، لكنك حققت لنا ما لايأتيه الابن الغيور .. » ومد يده الى كتفها وربت عليه بحنان وعطف وقال :

« هيا بنا الى قصرنا فى المنصورية ، واعتبروا ان هذا الفرح لم يكن .. وستجدين هناك أم الأمراء وسوف تأنسين بها »

فلم تجبه .. لكنها أخذت فى البكاء ، وهى صامتة تناجى نفسها بأمور لا تخطر لأحد من الحاضرين على بال .. لكنها أحست بغضب شديد على سالم ، وجاشت عواطفها ، ورأت فى نفسها ميلا للانتقام منه . ومن قواعد الحب وطبائع المحبين ان المتفانى فى حب شخص يحتمل منه ما شاء من التجنى والدلال والاعراض ، ولا يزداد الا شغفا وتفانيا .. لكنه لايحتمل الخيانة ، فاذا تأكد انه خانه فى عواطفه ، أو خادعه ، أو داجاه ، لغرض فى نفسه انقلب حبه بغضا وصار تفانيه نقمة . فأحست لمياء بميل شديد الى الانتقام من سالم وقد تحققت من خيانته ، لأنه كان يتظاهر لها بالحب كى يفتك بأعظم المحسنين اليها واليه

وأمر المعز أن تقوض الفساطيط والسرادقات ، ويؤجل العرس الى وقت آخر ، فالتفتت لمياء عند ذلك وقد هاجت أشجانها وقالت : « تؤجله ياسيدى حتى ننتقم لأنفسنا من الكائدين .. فاذا وافقنى أمير المؤمنين على ذلك ضاعف فضله على »

فقال المعز : « سننظر فى هذا الأمر » وأمر رجاله بالرجوع الى المنصورية فاشتغلوا بتقويض الخيام . وركب المعز وقائده ولمياء والحسين وسائر الحاشية الى المنصورية ، والغلمان يحملون المشاعل بين أيديهم

وفى صباح اليوم التالى احتفلوا بدفن حمدون ، وبكته لمياء بكاء مرا لسبب لا يعرفه سواها .. وهو اعتقادها انه قتل نتيجة

سذاجته وسلامة نيته ودهاء ذلك اللعين أبى حامد

وكانت لمياء حال وصولها الى القصر فى ذلك المساء قد دعتها أم الأمراء الى غرفتها ، وأخذت فى تعزيتها بعبارات الحنان والحب كما تخاطب الوالدة ابنتها ، فأحست لمياء براحة وزادت تعلقا بها . وأيقنت أنها كانت محقة فى اخلاصها لتلك الملكة ، ولكنهم شوشوا عليها أفكارها بمكائدهم

— ٤١ —

التعزية

ولم تطل الملكة الحديث تلك الليلة والميت لم يدفن بعد .. وفى الصباح التالى ، حين علمت بدفنه بعثت الى لمياء وأمرتها أن لا تفارقها ، وبالغت فى إكرامها وتعزيتها ، وذكرت الحسين فى أثناء حديثها . فتذكرت لمياء انها لم تشاهده فى ذلك اليوم ، ولا رأته بعد عودته معهم فى المساء . فاشتغل خاطرها بشأنه ، وشعرت بميل الى رؤيته ، وودت أن تلتقى به فى خلوة لتبثه أمورا تحب أن تحدثه بها بعدما أصابها من قتل والدها وتغير قلبها على سالم . فلما سمعت أم الأمراء تذكره ، أحبت أن تغتنم الفرصة وتسأل عنه ، فغلب الحياء عليها فسكتت . ولاحظت أم الأمراء خجلها فقالت : « ان الحسين سيء الحظ يا لمياء .. انظرى ما اتفق له فى يوم عرسه .. »

فقالت وهى تغص بريقها : « بل أنا التعسة ياسيدتى لأنى فقدت سندى الوحيد وهو والدى ، فأصبحت يتيمة الأبوين »

ومنعها البكاء من اتمام الكلام ..

فهمت أم الأمراء ، وضمتها الى صدرها ، وقالت : « لست يتيمة يا لمياء و . . . . »

فقطعت لمياء كلامها قائلة : « صدقت ياسيدتى .. ان من كان تحت ظلك ، وظل سيدى أمير المؤمنين ، لا يكون يتيما .. وكفانى حظا وشرفا أن يدعونى الخليفة ــ حفظه الله ــ ابنته . انها نعمة لم أكن لأحلم بها .. ولكن .. »

فقالت أم الأمراء : « لا لوم عليك اذا بكيت أباك .. انه كان بارا وكان يحبك »

فتذكرت لمياء ما كان يضمره أبوها من السوء للخليفة وقائده ، فأحست بوخز الضمير ، فأرادت أن تصرف ذهنها عن ذلك الحديث لأنه يؤلمها فقالت : « رحمه الله .. وأنا الآن لا أعرف أبا غير أمير المؤمنين ولا أمًا سواك » وسكتت وهى تتشاغل باصلاح شعرها ، وفى خاطرها شىء يمنعها الحياء من ذكره

وأدركت أم الأمراء مرادها ، فقالت : « انى لم أر الحسين،منذ جاء معكم أمس فى المساء ، ولم أره اليوم .. فأين هو يا ترى؟ »

قالت لمياء : « لا أعلم ، رأيته يركب معنا من المعسكر ثم لم أره .. »

فقالت أم الأمراء : « هل تظنين ان الخليفة أرسله فى مهمة عاجلة ؟ »

قالت لمياء : « أنت أعلم منى بذلك »

قالت أم الأمراء : « لاريب عندى ان أمير المؤمنين يحب أن

يراك ، فهل تذهب اليه وهو يخبرنا عن الحسين ؟ »

فسرّها هذا الاقتراح .. لكنها لم تظهر رغبة فى الاجابة حياء . ولم تنتظر أم الأمراء جوابها ، فنهضت وأمسكتها بيدها ومشت بها وهى تقول : « ان أمير المؤمنين وحده فى قاعته ، وقد أخبرنى فى هذا الصباح أنه لايريد أن يرى أحدا من الأمراء »

فقالت لمياء : « لعله طلب ذلك لرغبته فى أن يخلو بنفسه .. فهل يجوز أن نزعجه بحضورنا ؟ »

فابتسمت وقالت : « لايزعجه حضورى أوحضورك ولا هو أراد الخلوة للعمل على ما أظن . ولكنه أراد الراحة من عناء ما لاقاه أمس ، وهو بلا شك كثير التفكير فيك ، هلمى بنا اليه . وانزعى حجاب الكلفة معه بعد أن دعاك ابنته .. ونعم الابنة أنت » .

وبعد هنيهة ، وصلتا الى غرفة الخليفة .. فبادر الحاجب الى القاء التحية باحترام ، فقالت أم الأمراء : « لعل أمير المؤمنين وحده ؟ »

قال الحاجب : «كلا ياسيدتى .. انه فى خلوة مع القائد جوهر»

فأرادت أن ترجع واذا بالمعز يناديها من الداخل : « اذا كانت لمياء معك فادخلى »

فأجفلت لمياء عند سماع اسمها بهذا الأسلوب .. وتصاعد الدم الى وجنتيها ، فقالت لها أم الأمراء : « ألم أقل لك انه يُسَر برؤيتك .. حتى أكثر من رؤيتى . وقد قال بصراحة أن لا أدخل الا اذا كنت معى » وضحكت وهى تتظاهر بمداعبتها .. ووسع لهما الحاجب فدخلتا

وكان المعز جالسا على مقعد والقائد جوهر على وسادة بين يديه ، وعلى وجهيهما امارات الاهتمام . فلما دخلت أم الأمراء أظهرت الاحتشام لوجود القائد، فابتدرها المعز قائلا: « ان قائدنا كواحد منا فلا ينبغى الاحتشام فى وجوده .. وأنت يا لمياء ابنتنا ، وهذا القائد أبوك أيضا» وأشار اليهما بالجلوس ، وكان القائد قد وقف عند دخول أم الأمراء فأشار اليه الخليفة أن يجلس وقال له : « نحن فى أمر هام نحب أن نشرك القادمتين فيه .. أنت تعلم رجاحة تفكير أم الأمراء .. وهذه فتاتنا لمياء قد عرفتَ ذكاءها وغيرتها على مصلحتنا ، فلا بأس من اشتراكهما فى الحديث »

فجلست لمياء وهى مطرقة حياء لهذا الثناء ، فقال لها الخليفة : « لاينبغى التهيب يا بنيّة بين يدينا ، وقد أصبحت ذات شأن فى أمورنا لما تأكدناه من تعقلك وصدق محبتك لنا ، وقد شق علينا ما أصاب والدك .. ولكن ذلك أمر الله ولا سبيل الى دفعه .. طيبى نفسا ، سنأخذ بثأره »

فلما سمعت ذكر الثأر ، تغيّر وجهها وبان الأهتمام فى عينيها .. ونظرت الى الخليفة وابتسمت ابتسام الامتنان وقالت : « أشكر لك يامولاى عطفك نحوى .. ولكنى أرى الواجب الأول أن ننتقم لأمير المؤمنين لأن ذلك الخائن أراد ايصال الأذى اليه .. وقد حماه الله »

فابتسم وقطع حديثها قائلا : « وكان الفضل لك فى ذلك يا لمياء .. فهل يكثر علينا أن نثأر لوالدك رحمه الله ؟ »

فأطرقت ، وسكتت ، ثم رفعت بصرها اليه ، وقالت : « لكننى

أرغب الى أمير المؤمنين أن يشركنى فى هـذا الانتقام .. فانى موتورة » قالت ذلك وقد قطبت جبينها وبان الغضب فى عينيها

فقال المعز : « لم نكن لنكلفك شيئا من هذا يا لمياء .. كفاك ما أصابك » والتفت الى القائد جوهر وقال : « انى لم أشاهد الحسين فى هذا الصباح .. أين هو ؟ »

قال جوهر : « لقد ذهب فى مهمة عاجلة .. هى من قبيـل ما نحن فيه »

قال المعز : « الى أين ؟ »

قال جوهر : « أرسلته الى الجهة التى قالت لمياء انها شاهدت ذلك الخائن فيها .. وذكرت أن هناك قافلة أو معسكرا ، فأمرت الحسين أن يذهب بكوكبة من الفرسان لعله يدرك القوم قبـل رحيلهم ، فيأتينا بذلك الغادر ويكفينا مئونة البحث عنه »

فقال المعز : « بارك الله فى همتك وتيقظـك » والتفت الى أم الأمراء وابتسم وهو يقول : « كيف نلام على تقديم هـذا القائد وهو لا يغفل عن مصلحتنا ؟ »

— ٤٢ —

الحسين

أما لمياء فأطرقت ، وظهر الارتباك على وجههـا ، فلاحظ الخليفة ذلك فقال : « ما بالك ساكتة يا لمياء ؟.. هل شق عليك ذهاب الحسين .. ولماذا ؟ »

قالت لمياء : « كيف يشق علىّ ذهابه فى خدمة هذه الدولة ،

والحرص على سلامة أمير المؤمنين .. ان أرواحنا فداه »

قال المعز : « انى أرى فى وجهك قلقا »

قالت لمياء : « قد أهمّنى ذهابه ، لعلمى بغدر أولئك الخائنين ومكرهم »

فقطع القائد جوهر كلامها قائلا : « لا خوف على الحسين من غدرهم .. ولا يلبث أن يأتى ظافرا باذن الله . وعند ذلك يحق له أن يكون عريسا لك »

فخجلت ، وتوردت وجنتاها ، وأحبّت أن تصرّح بما فى خاطرها من هذا القبيل فقالت : « هل يأذن مولاى أمير المؤمنين بكلمة أقولها جوابا على ما سمعته ؟ »

قال المعز : « قولى .. »

قالت لمياء : « أما وقد سمعت من القائد الأكبر ما قاله فأتقدم الى مولاى أن .. » وأسكتها الحياء والتفتت الى أم الأمراء كأنها تستنجد بها كى تنوب عنها فى التعبير عما يجول فى خاطرها .. ولم تكن أم الأمراء تعلم مرادها ، فنظرت اليها تستفهم منها .. فأسرّت اليها أنها ترجو تأجيل القران .. »

فقال المعز : « سمعت ذلك منها أمس .. طبعا ، اننا سوف نؤجله مراعاة للحداد »

فقالت لمياء : « كلا ياسيدى انما أعنى انه لاينبغى أن يتم شيء قبل الانتقام من الخونة .. » وتشاغلت برفع كمها على أناملها وقد ظهر انها لم تتم حديثها ..

فقال جوهر : « ان هؤلاء الخونة لن يمضى وقت طويل قبل

أن يكونوا فى قبضتنا كما قلت لكم ، فهل تعنين غيرهم ؟ »

قالت لمياء : « نعم .. انهم كثيرون ، والبعض لا يتيسر الوصول اليهم الا بعد أشهر لأنهم بعيدون .. ان هذه الخيانة يجب أن يتحمل صاحب مصر عواقبها .. » وأشرق وجهها بما بدا فيه من الحماسة ..

فأدرك الخليفة انها تشير الى غزو مصر انتقاما من صاحبها ، فالتفت الى القائد جوهر وابتسم ، لأنه كان يتحدث معه فى شىء من ذلك قبل مجىء لمياء

فنظر القائد الى الخليفة وابتسم ابتسامة الظافر لأنه كان يرى ضرورة المبادرة بفتحها .. والخليفة يتخوف ويتردد ؛ فسرّه أن تقترح لمياء مثل اقتراحه

وأدركت لمياء ذلك فقالت : «لاينبغى لنا أن نتردد فى تحميل صاحب مصر عواقب هذه الخيانة فانه شريك فيها.. ولاخوف منه فانه الآن عبد ذميم «كافور» وأحوال مصر فى غاية الاضطراب»

فرأى المعز أن يتحول عن الحديث فى هذا الموضوع ريثما يفكر فى الأمر.. وهو لايحب أن يقول قولا لا يكون مصمّما عليه ، فقال : « ان أمر مصر لايزال بُعيدا ، وربما فكرنا فيه فى فرصة أخرى .. فنحن نحب أن نعجل بالعقد عليك للحسين »

قالت لمياء : « أعتقد ان الحسين سوف يؤيد رأيى ، لأنه ليس أقل غيرة على مصلحة أمير المؤمنين منى.. أرجو من مولاى أن يجعل أمر مصر مقدما على كل شىء ، وأنا أضمن الظفر باذن الله»

فأعجب بتلك الحميـــة وقال : « ليس ضمان ذلك بالأمر

السهل يا بنيَّة .. انه يحتاج الى المال والرجال »

فنظرت الى الخليفة ، وقد تغيَّرت سحنتها ، وظهرت البسالة فى جبينها وقالت : « ان الرجال موجودون ياسيدى ، ومن كان فى قواده مثل القائد جوهر لايخشى بأسا ، فقد فتح المغرب على أهون سبيل .. وهل يظن أمير المؤمنين ان فتح مصر سوف يكون أعظم مشقة ؟ »

فاستحسن المعز اطراءها قائده وقال : « هذا مسلَّم به ، ولكن ما قولك فى المال ؟.. انه لابد منه لهذا العمل »

قالتْ وفى صوتها رنَّات التأكيد : « والمال موجود أيضا .. »

فبغت الجميع من تأكيدها ، وتوجهوا نحوها بأبصارهم ، وقال الخليفة : « من أين لنا المال الكافى ونحن لم نفرغ من الحروب الا بالأمس ؟ »

قالت لمياء : « قلت لمولاى ان المال موجود ، وسأبين له ذلك متى شاء .. فاذا فعلت ، هل يبقى لديه مانع ؟ »

قال المعز : « يبقى أن نستطلع حال المصريين ، وتتعرف حقيقة اتجاهاتهم وشئونهم .. لأننا لا نعلم عنهم الا ما تتلقفه من أفواه الناس »

قالت لمياء : « أما وقد أشركنى أمير المؤمنين فى هذا الحديث فانى أستأذنه فى أن أقول انى أضمن له أيضا كشف ما يريد أن يعرفه من الأحوال »

فرأى الخليفة من لمياء فوق ما كان يتوقعه ، ولم يصدقه بحذافيره وانما حمله على محمل الاندفاع ، كما يفعل الراغب فى

أمر.. فانه يراه سهلا لرغبته فى الحصول عليه . وهمّ أن يستزيدها بيانا واذا بالحاجب قد دخل وقال : « ان مولاى الحسين بالباب»

فأمر بادخاله .. أما لمياء فلما سمعت اسمه خفق قلبها ، ولم تعد تخشى خفقانه للحسين بعد أن نفضت يديها من محبة سالم .. لكنها تماسكت والتفتت فرأت حسينا قد دخل وعلى وجهه غبار السفر ، فعلمت انه عائد من تلك المهمة

أما هو ، فحيّاه .. فأمره الخليفة بالجلوس فجلس ، ووقع بصره على لمياء .. فتجاذب قلباهما وتخاطب بصراهما .. ولكنه شغل بالتوجه نحو الخليفة فقال له المعز : « ما وراءك ؟ قد أخبرنى قائدنا انك تعقبت أولئك الخائنين .. فعسى أن تكون قد ظفرت بهم وحملتهم الينا »

قال الحسين : « قد حملت اليكم أناسا وجدتهم قرب المكان الذى كان الخائنون فيه ولكنهم ليسوا منهم »

فقال جوهر : « وكيف ذلك يابنى ؟ »

قال الحسين : « قضيت ليلة أمس وأنا أبحث فى الأماكن التى ينزل فيها الناس أو القوافل فى طريق مصر ، حتى بعدت كثيرا عن القيروان فلم أجد أحدا .. »

فقطع أبوه كلامه قائلا : «أخشى أن تكون قد أخطأت الطريق»

قال الحسين : « بل هى الطريق ذاتها ..- والدليل على ذلك أنى رأيت جثة ذلك الرسول ، وبجانبها جثة قاتله ، كما قصّت خبرهما لمياء .. وأمعنت النظر فى تلك الجهات ، وبثثت رجالى فى كل جهة ، فأخبرنى أحدهم فى هــذا الصبــاح انه رأى آثار

معسكر . فسرت اليه فرأيت بقايا قوم كانوا هناك ورحلوا من عهد قريب ، ولعله المعسكر الذى كان فيه أولئك الخونة . ومع ذلك فلم أقنع بما رأيت فواصلت السير الى عين ماء تنزل عندها القوافل ، فرأيت قافلة قادمة من مصر أتيت بأصحابها معى لعلنا نستخلص منهم خبرا .. اذ توسمت من زخرف فساطيطهم وخيولهم وسائر أحوالهم ، ما لم أعهده فى سواهم من أصحاب القوافل »

فقال الخليفة : « أين هم ؟ »

قال الحسين : « أتيت برئيسهم معى .. وهو بالباب ، اذا شاء مولاى أمر بادخاله »

— ٤٣ —

بنت الاخشيد

فصفق المعز ، فدخل الحاجب فقال : « ادخل الرجل الواقف خارجا » وأشار الى أم الأمراء ولمياء بالتنحى الى مكان تجلسان فيه بحيث تريان وتسمعان ولا يراهما أحد

ثم عاد الحاجب ومعه رئيس القافلة ، وهو كهل عليه ملابس المصريين من العمامة والجبة ، وقد أخذ الاضطراب منه مأخذا عظيما لهول ذلك الموقف . فقال له الخليفة : « لا تخف يارجل ، وانما نريد منك أن تصدقنا القول .. من أنت ؟ »

قال الرجل : « أنا يامولاى من أهل مصر »

قال المعز : « وما هى صناعتك ؟ »

قال الرجل : « تاجر رقيق »

قال المعز : « ما الذي جاء بك الى هذا البلد ؟ »

قال الرجل : « جئت لأبتاع رقيقا أحمله الى مصر . وهى عادتى فى كل عام أو بضعة أعوام .. آتى الى القيروان لهذه الغاية ، فأبتاع المولدات الحسان وأنصرف »

قال المعز : « ولكن رسولنا يقول ان حالكم تدل على غنى وترف لا يتعهد فى تجار الرقيق الذين يفدون على القيروان »

فظهرت البغتة فى وجه الرجل .. ولكنه قال : « نحن يامولاى تجار رقيق كما قلت لكم .. فانى لا أكذب »

قال المعز : « هذا لايكفى .. قل لنا السبب الذى أوجب مجيئكم فى الفساطيط الفاخرة ، ومعكم الخيول المطهمة .. كأنما أنتم من رجال الدولة أو الأمراء »

قال الرجل : « السبب فى ذلك يامولاى اننا نبتاع الجوارى بأمر خاص .. ونحن ننفق على حساب مرسلنا .. »

فقال الخليفة : « لمن تبتاعون الجوارى ؟ ومن هو مرسلكم ؟ أصدقنى والا فانك لن تنجو من القتل »

فخاف الرجل، واصطكت ركبتاه ، وارتعدت فرائصه ، وقال : « اننا نبتاع الجوارى لمولاتنا ابنة الاخشيد صاحب مصر »

فضحك الخليفة والتفت الى جوهر وهو يقول : « آلا ترى التلون فى كلامه؟ يقول انه يبتاع الجوارى الحسان لابنة الاخشيد ولو قال انه يبتاعها للأخشيد نفسه لصدقناه » والتفت الى الرجل وقال : « قل الصدق.. لماذا لم تقل انك تبتاع الجوارى للأخشيد أو غيره من الأمراء ، هل خشيت أن يكون عليك من ذلك بأس ؟ »

قال الرجل : « كلا يامولاى .. بل أنا أقول الصدق ، لقد مرت علىّ عدة أعوام وأنا آتى الى القيروان بأمرها كى أبتاع لها الجوارى الحسان بالأثمان الباهظة »

قال المعز : « ماذا تفعل بهن ؟ »

فتوقف الرجل عن الجواب ، وظهر الارتباك فى وجهه .. لكنه خشى السكوت ، فقال : « لتستمتع بهن »

فبغت الخليفة والقائد والحسين ، وأخذوا ينظرون بعضهم الى بعض فقال القائد : « تشترى الجوارى لابنة الاخشيد لتستمتع بهن هى ؟ »

قال الرجل : « نعم ياسيدى.. وهذا أمر يعرفه أهل مصر لأنها كثيرا ما تنزل سوق الرقيق فى الفسطاط بنفسها على حمار فتساوم صاحب الرقيق على الجارية اذا أعجبتها وتشتريها لنفسها . واذا كانت لا تجد هناك مايعجبها من الجوارى الحسان تبعث بى فى قافلة خاصة لهذه الغاية ، وتنفق فى سبيل ذلك الأموال الطائلة»

فلما سمع المعز كلامه وصدق لهجته تملكته الدهشة .. وأشار اليه أن ينصرف . فلما خرج التفت المعز الى قائده وقال : « قد كنت منذ قليل أتردد فى فتح مصر وأخاف جندها . وأما الآن فقد هان علىّ أمرها لأن بلدا بلغ الترف من أهله حتى صارت المرأة من بنات الملوك فيهم تخرج بنفسها وتشترى جارية لتتمتع بها ، لا يخشى بأسهم .. لأن ذلك من ضعف نفوس رجالهم وذهاب غيرتهم (١) انما يلزمنا المال » والتفت الى لمياء

---

(١) المقريزى ٣٥٢ — الجزء الاول

فتقدمت أم الأمراء وأجابت عنها قائلة : « ان ابنتنا لمياء قد قصّت عليّ خبر المال الذى أشارت اليه وهو مضمون ، وانما يحتاج الى نظر خاص »

فقال المعز : « هل ترين بأسا من التصريح به بين أيدينا وليس فينا غريب .. قولى يا لمياء ، قولى »

— ٤٤ —

فج الأخيار

فتقدمت لمياء ووقفت وقفة رجل جسور وقالت : « ان المال ياسيدى مخبأ فى مكان بعيد . وكان قد خزنه عدوك هناك ليحاربك به .. ولكن الله قدر أن يكون لك كى تحارب به أعداءك ، وأنت ظافر باذن الله »

فاستغرب الجميع قولها ، وتطاولوا بأعناقهم لسماع حديثها فقالت : « سأقول لكم ما أعرفه . ولكن قبل كل شىء أرجو من أمير المؤمنين أن يوافقنى على طلبى الأول وان كان لا يحسن بى أن أصرّح به »

فعلم انها تشير الى تأجيل الاقتران بالحسين فقال : « أنا أوافقك ولكن الشأن فى هذا الأمر هو للحسين» والتفت اليه فوقف الحسين متأدبا .. فقال له المعز : « ان لمياء الشجاعة الباسلة تطلب تأجيل العقد الى مابعد فتح مصر والتنكيل بالخائنين ، فماذا تقول ؟ »

قال الحسين : « هذا ما كنت أتمناه ولم أجسر على طلبه ، أما وقد طلبته هى فأنا أوافق عليه وأشترط أن أكون فى مقدمة

المحاربين فى هذا السبيل »

فقالت لمياء : « طبعا كلانا يجب أن يكون فى مقدمة المحاربين . ولا أعنى بالمحاربة استلال الحسام أو الهجوم على صفوف الأعداء فقط ، فان هناك أعمالا تسبق امتشاق الحسام .. سنأتى على ذكرها .. »

ثم وجّهت خطابها الى الخليفة ، وقد أبرقت عيناها ، وظهرت الحماسة فى طلعتها وقالت : « هل أقول ياسيدى ؟ »

قال المعز : « قولى بارك الله فيك .. والله ان كلامك ليبث الحماسة فى قلوب الرجال ، وقد هونت علىّ اقتحام الأهوال فى سبيل الفتح .. قولى »

قالت لمياء : « سمعت مولاى يقول انه لابد لنا قبل الاقدام على فتح مصر من شيئين هامين : الأول المال ، والثانى استطلاع أحوال القوم وقواتهم وداخليتهم . أما المال فأقص عليكم ما عرفته عنه ، ولذلك حديث سمعته عرضا من ذلك الخائن القاتل.. ولم أكن أفهم مغزاه . فلما ظهرت خيانته أدركت مكايده .. علمت منه أن فى جبل ايكجان من بلاد كتامه مكانا يقال له « فج الأخيار » كان فيه بلد يسمى دار الحجرة بناه أبو عبد الله الشيعى وخزن الأموال فيه »

فلما سمع الخليفة اسم البلد ، تغيّر وجهه لأنه تذكر بلاء أبى عبدالله فى نصرتهم وكيف قتلوه . ولاحظت لمياء ذلك فتجاهلت وأتمت حديثها قائلة : «وحينما قام أبوعبدالله بدعوة جدك المهدى ــ رحمه الله ــ وجمع كلمة القبائل فى نصرته وتمكن من التغلب

على أعدائكم ، أتى فنزله وقسّم البلد على كتامة ونادى بالامام المهدى خليفة ، وحمل اليه الأموال التى كانت مخزونة فى جبل ايكجان . ولكن يظهر انه كان ينوى الخروج على الطاعة فضرب نقودا جديدة لم يذكر فيها اسم الامام المهدى ، وانما اكتفى بأن ضرب على أحد وجهى الدينار « بلغت حجة الله » وعلى الآخر « تفرق أعداء الله » وضرب على السلاح « عدة فى سبيل الله » ووسم الخيل سمة « الملك لله » ثم ذهب الى سجلماسة فى طلب المهدى ، وما زال حتى أتم الفتح وسلم الأمر اليه .. ويظهر انه ندم على عمله ، فبعث الأموال الى ايكجان سرا واختزنها هناك حتى يعود فيقلب ظهر المجن ويطلب الأمر لنفسه .. فعلم الامام بذلك وما زال به حتى قتله كما تعلمون ، لكنه لم يعرف خبر تلك الأموال فبقيت مطمورة هناك.. ولعله أسرّ بأمرها الى أبىحامد اللعين ، فقام يسعى سرا فىاخراج الملك منأيديكم علىأن يُفسد قلوب القبائل عليكم ، ويستعين بذلك المال عند الحاجة . وآخر مكائده قد فشلت أمس وانما أصابت المأسوفعليه والدى،فهرب ذلك اللعين والأموال لا تزال فى فج الأخيار .. فاذا بعث الخليفة من يأتى بها أعانته فى نصرة الحق.. هذا ما أعرف منأمر الأموال»

ولم تتم كلامها حتى كلّل العرق جبينها ، وبان الاهتمام على محياها ، والخليفة ينظر اليها ويتفهم كلامها . وقد أعجب بما كشفته من أمر هذا السر العظيم فقال : « بورك فيك يا لمياء اننا سنبعث فى طلب ذلك المال . ولكننى أفكر فى مكيدة هذا الرجل كيف انطلت علينا وعلى والدك كل هذه الأعوام . ان

فضلك فى كشف هذا السر يزيد على فضلك فى انقاذنا من القتل.. لأنك أطلعتنا على مساع متواصلة لو نجونا من تلك المكيدة ولم نطلع عليها لظلت الدولة فى خطر من مكيدة أخرى . أما الآن فسنتعقب الخائنين حتى نفنيهم بعد أن نأخذ أموالهم »

فأطرقت لمياء حياء ، عند سماع ذلك الثناء ..

فتصدى الحسين للكلام فقال : « هل يأذن لى مولاى أن أذهب فى طلب هذا المال ؟ »

قال المعز : « لك ذلك .. ولكن هل علمت ما يعترض هذا العمل من المشاق ؟ ان جبل ايكجان فى أواسط بلاد كتامة فى البادية والذهاب اليه مهمة شاقة »

قال الحسين : « فليكن حيثما يكون .. كل ذلك هيّن فى خدمة أمير المؤمنين » فضحك الخليفة ضحكة الاستحسان

فقالت لمياء : « هذا من حيث المال .. أما من حيث استطلاع دخائل القوم بمصر فأنا أقوم به »

فبغت الخليفة لهذا الاقتراح وقال : « كيف تفعلين ؟ .. أليس ذلك شاقا عليك ؟ »

قالت لمياء : « انه هيّن .. واستأذن مولاى أن لايسألنى كيف أصنع ، وانما أتعهد له بأن آتيه بالخبر اليقين ، وأطلب اليه أن لا يستزيدنى بيانا »

فاستغرب القوم رغبتها فى كتمان سعيها ، ولكنها لم تَدع لهم بابا للاستفهام فسكتوا ، فقال الخليفة : « لم يمر بى يوم اطلعت فيه على أمور هامة مثل هذا اليوم .. والفضل لك

يا لمياء . بارك الله فيك ، وقوّاك فى نصرة الحق .. »

— ٤٥ —

الحسين ولمياء

وتزحزح الخليفة فنهض القائد وانصرف ومعه الحسين ، وانصرفت أم الأمراء ولمياء من جهة أخرى . وعلمت أم الأمراء أن لمياء تحب أن تجتمع بالحسين بعد ما وقع من الأحداث الغريبة . ولكن الحياء يمنعها من طلب ذلك .. فلما وصلتا الى غرفتها بعثت أحد الصقالبة يدعو الحسين اليها وأمرت لمياء بالجلوس . وأخذت تتحدث معها فيما جرى فى تلك الجلسة .. وهى تريد استبقاءها ريثما يأتى الحسين ..

وبعد قليل جاء الصقلبى وقال : « ان القائد حسينا أتى »

فلما سمعت لمياء ذلك ، كان أول ما تبادر الى ذهنها أن تنهض وتنصرف .. فأقعدتها أم الأمراء وقالت : « الى أين ؟ »

فجلست وهى ترتعد من تلك المفاجأة ، وأحسّت أم الأمراء بذلك حين أمسكت يدها لتجلسها .. فقد كانت باردة كالثلج ، فقالت : « ما بالك ترتعشين من سماع اسم الحسين ؟ ألا تزالين تفكرين فى سواه ؟ ماذا حدث لمنافسه القديم ؟.. أين هو .. ؟ »

وحين سمعت لمياء ذلك ، اقشعر بدنها وامتقع لونها وأخذها الغضب .. اذ تذكرت خيانة سالم ، فاكتفت بالتنهد ولم تجب .. فقالت أم الأمراء : « لم تقولى لى عن اسمه بعد .. ألعله كان

فى جملة أولئك الخائنين ؟ أرجو أن يكون كذلك ، فنكون قد تخلصنا منه .. »

فلم تزد لمياء على الاطراق ، وقد ترقرقت الدموع فى عينيها ، وتذكرت ان الحسين يعرف سالمًا من تلك الليلة . أما أم الأمراء فقالت : « لقد أبطأنا فى الاذن للحسين بالدخول » والتفتت الى الصقلبى وقالت : « يدخل »

وبعد لحظة دخل الحسين ، وهو لايزال بثياب الركوب ، كما كان ساعة وصوله .. دخل وهو لم يكن يتوقع أن يرى لمياء هناك ، وانما ظن أن أم الأمراء تحتاج اليه فى خدمة .. وكثيرا ماكانت تدعوه وتكلفه ببعض المهام. فلما دخل، ووقع بصره على لمياء ، أجفل كما أجفلت هى .. وألقى التحية على أم الأمراء ، ثم حيًّا لمياء عن بعد باحناء الرأس . فقالت أم الأمراء : « لايلذ لى أن أراكما بعيدين .. وقد بذلت جهدا فى جمعكما ، فانك ابن قائدنا وهذه لمياء ابنتى . ومع ذلك فقد جعلت نفسى والدتك وقمت بتأدية المهر عنك » قالت ذلك بلطف ومداعبة .. فتلعثم لسان الحسين عن الجواب .. ولكن الامتنان ظهر فى ملامحه ..

وتقدم نحو لمياء وهو يقول : « ان لمياء صاحبة فضل كبير علىّ لأنها أنقذت والدى من القتل.. ولست أدرى بماذا أكافئها »

فقالت لمياء : « انى لم أفعل شيئا يستحق الذكر. واذا كنت قد فعلت شيئا فهو فى سبيل خدمة مولاى أمير المؤمنين الذى نفديه بأرواحنا .. ولست أراك أقل تفانيا فى سبيل مصلحته منى »

فأشارت أم الأمراء الى الحسين أن يجلس على وسادة أمام

الوسادة التى كانت لمياء جالسة عليها ، وتظاهرت بأنها ذاهبة فى أمر ذي شأن خطر لها فجأة . وهي انما فعلت ذلك رغبة فى انفراد الحبيبين لأنها وجدت نفسها ثقيلة بينهما .. وكانت من أرق الناس احساسا ، وأكثرهم تعقلا ، لاتفوتها ملاحظة .. فهل شعر الحبيبان أنها خرجت عمدا مراعاة لاحساسهما ؟ هب انهما أدركا ذلك .. ولكن الحب يشغل المرء عن سواه ، أو أن المحب يرى مايمر به من الأحوال مغشاة كأنه ينظر اليها من وراء حجاب .. هو الحب . وقد يأتى فى سبيل حبه أعمالا يحسبها خافية على الناس ، وهم يرونها بأجلى مما يراها هو .. ولكنهم لايصارحونه بها ، فيحسبهم غافلين

جلس الحسين وهو ينظر الى لمياء ، وهي مطرقة حياء ، وقد مر فى خاطرها تاريخ حياتها منذ عرفت سالما .. وكيف تعلقت به وتعشقته حتى أبت أن تجيب دعوة سواه . وتذكرت الليلة التى لقيت فيها حسينا لأول مرة وما أبداه من الشهامة فى معاملتها ، وكيف انتهت ليلتهم بفشل سالم .. وتذكرت ماقاله الحسين عند وداعها من كتمان أمر سالم ، وانه عرفه وعفا عنه .. وكيف انها رضيت بالحسين أولا اذعانا لأمر سالم ، ثم أصبح هذا أعدى أعدائها .. فأحست بعطف الى الحسين .. وكان محور هذا العطف الاعجاب بشهامته ومروءته

مر ذلك كله فى خاطرها سريعا والحسين جالس بين يديها ، يحاول أن يخاطبها ولا يعرف بماذا يبدأ .. ثم خطر له أن يعزيها لوفاة والدها ويشجعها ، فقال : « لقد ساءنى يا لمياء ما أصاب أباك الأمير رحمه الله ، ولكننا سنثأر له من ذلك الخائن .. واعلمى انى غير راجع عنه حتى أذيقه حتفه »

فرفعت بصرها اليه وقد ذبلت عيناها وقالت : « عرفت شهامة الحسين من قبل على غير تعمد.. عرفتها عفوا ، فأنا لا أنسى تلك الأريحية التى أسرنى بها .. لا أنسى قولك تلك الليلة وقد أدركنا ذلك الرجل الملثم وأوشك أن يقع فريسة .. فأنقذته وطلبت كتمان أمره » ..

فقطع كلامها قائلا : « لا أزال أريد كتمان أمره ، دعينا منه.. انما أحب أن أعلم : هل للحسين مكان عندك ؟ » قال ذلك وعيناه تبرقان . فرآها ساكنة ولاحظ دمعتين انحدرتا على خديها خلسة ، فأحس بنار اتقدت فى بدنه ، وهبّ جسمه كأنك صببت عليه ماء ساخنا .. فندم على سؤاله مخافة أن يكون فى غير أوانه ، وهى فى حال الحزن على أبيها فابتدرها قائلا : « أظننى تعجلت فى الحديث وأنت فى شاغل من أمر والدك — رحمه الله — فاصفحى عن جسارتى »

فمسحت عينيها بمنديل أخرجته من جيبها وقالت : « انحزنى على والدى شديد ، لكن حديثك تعزية كبيرة لقلبى الكسير » وتنهدت والتفتت نحو الباب كأنها تحاذر أن يدخل أحد عليهما

فقال الحسين : « هل فى الدنيا أرق عاطفة وأطيب قلبا من هذه الملكة .. انى لا أظن أنها تركتنا وحدنا الا عمدا ، فلاينبغى أن نضيع هذه الفرصة .. هل أعددت للحسين مكانا فى قلبك ؟ »

- ٤٦ -

تعاهد

فتنهدت ورفعت بصرها اليه، وهى تهم بالكلام، فلم تستطع.. فأطرقت ، وتشاغلت بمنديلها تطويه بين أناملها وقد تصاعد الدم الى وجنتيها.. فلاحظ ارتباكها ، فأراد مداعبتها ، فقال : « لم يكن عهدى بلمياء الفارسة الشجاعة انها ترتبك فى حديث مثل هذا. ولكننى أقرأ الجواب فى عينيك.. لم أكن أجهل مغزى نظراتك الىّ من قبل ، ونظراتك الىّ اليوم..كنت أشعر انك تساقين الى حبى كرها . لعل قلبك كان مشغولا بسواى.. لاأدرى.. أما الآن فانى أقرأ شيئا آخر فى عينيك . انما أطلب اليك أن تقولى كلمة ونحن منفردان هنا باذن أم الأمراء ، وهى لم تخل لنا المكان الا باختيارها .. قولى : هل تحبيننى ؟ وانما أسألك ذلك لأننا سنفترق وربما طال فراقنا.. فاذا سمعت منك الكلمة التى أريدها ، كانت لى ذخرا فى أثناء الفراق أتعلل بها ريثما نلتقى »

فتنهدت ثانية وتجلدت وقالت : «انك تتحدث عنى وتعبّر عن أفكارى.. أما لمياء الفارسة الشجاعة كما تقول ، انما تكون كذلك فى حومة الوغى ، وأما فى هذا الموقف فانى أسيرة مسكينة . سألتنى سؤالا لا أجيبك عنه الا بعد أن تجيبنى على سؤالى »

فاستبشر وقال : «سمعا وطاعة.. انى رهن اشارتك ياحبيبتى» قال ذلك ، وقد أخذ منه الهيام مأخذا عظيما ..

قالت لمياء : « انى أسألك هل تعاهدنى على التفانى فى مصلحة

المعز لدين الله حتى ننتقم له أو نموت »

فأعجب بتفانيها فى حب المعز ، وكيف أنها فضلت التعاهد على نصرته قبل كل شيء فقال : « نعم أعاهدك أن أكون طوع ارادتك فى كل شيء وهذا من جملة الأشياء .. انى أحبك يا لمياء وأعجب بخصالك ومروءتك ، كنت أحسبنى مؤديا ما يجب علىّ فى خدمة أمير المؤمنين ، فلما رأيت ما أنت فيه من الغيرة عليه رأيتنى مقصرا عاجزا . ها قد أجبتك على سؤالك فأجيبيني على سؤالى » ..

قالت لمياء : « وما هو ؟ »

قال الحسين : « هل تحبينني ؟ هل تعاهدينني على الحب حتى نلتقي ؟ » ..

قالت لمياء : « نعم ، انى أحبك وهذا يكفى .. أما الثبات فى الحب حتى نلتقى فانه متعلق بما نحن آخذون به من نصرة أمير المؤمنين .. ونصرته هى واسطة عقدنا ، وقد تعاهدنا على ذلك ويسرنى انك أخذت على نفسك الذهاب الى جبل ايكجان لحمل الأموال المدفونة هناك .. ولكن .. » وسكتت وقد ظهرت امارات التفكير فى عينيها ..

فقال الحسين : «ما بالك؟.. ما الذى خطر لك حتى سكت ؟.. أظنك خفت علىّ مما يعترض هذه المهمة من المشاق؟» قال ذلك ونظر فى عينيها ، ففهم منها انها تجيب : «نعم» . فقال : « لاتخافى علىّ يا لمياء .. انى لا أهاب الموت ولا سيما بعد أن زودتنى بتلك الكلمة الثمينة . انها ستكون تعزيتى فى أشد ضيقى ..

وهى تشجعنى على مواجهة الأهوال .. لا تخاف على من شىء»
فتنهدت وقالت : « آه من الحب .. ما أحلاه وأمره ..
الأحباء يبذلون كل مرتخص وغال فى سبيل اللقاء ، أما نحن فنتعاهد على الفراق ، ولكن خدمة أمير المؤمنين واجبة .. انى أشعر بفضله علىّ ، وانى يجب أن أنصره و .. » وسكتت وقد خطر لها انها تطلب شيئا آخر غير نصرة أمير المؤمنين.. تطلب الانتقام من ذلك الحبيب الخائن ، فلم يدرك الحسين مرادها وانصرف خاطره الى مهمتها فقال لها : « قد غلمت مهمتى الى فج الأخيار لحمل ما فيه من المال .. ولكننى لم أفهم مهمتك »

فتحركت واعتدلت فى مجلسها وقالت : « قد قلت لأمير المؤمنين انى سأسعى فى استطلاع دخائل المصريين وأحوالهم ، وانى سأفعل ذلك بطريقة لا أقولها الآن .. لا تغضب ياحبيبى اذا لم أصارحك بها .. »

فلما سمعها تناديه « حبيبى » اختلج قلبه فى صدره ونسى ما كان يسأل عنه . ولم يشأ أن يستزيدها ، بل انه تهيّب من الالحاح عليها . وكان منذ خاطبها وهو يشعر بسلطان لها عليه فلم يجسر على تكرار السؤال فقال : « افعلى ما بدا لك وكفانى انك ناديتنى بلفظ الحب وهذا تذكار سأحفظه .. ربما لا يتاح لنا الاجتماع فى مثل هذه الفرصة مرة أخرى قبل سفرى . ولذلك فانى أحب أن لا تنقضى هذه الساعة .. ما ألطف أم الأمراء وما أكثر فضلها »

قالت لمياء : « ان هذه الساعة مباركة سنذكرها ماحيينا.وعسى

أن يكون اجتماعنا الثانى فى مصر تحت ظل أمير المؤمنين »

فأعجب بتعبيرها ، وكِبَر نفسها ، وشـدة رغبتها فى فتح مصر ، واستهاتتها بفتحها وقال : « أرجو أن نوفق الى ذلك ياحبيبتى . انها أمنية تتمناها جميعا وخصوصا أنا ، لأن ذلك الاجتماع سيكون أكيدا لنا لا نخشى بعده فراقا باذن الله .. اذ تكون لمياء حينئذ لى وأنا لها »

فقالت وهى تبتسم : « ألا تشعر بارتياح عند تفكيرك فى ذلك النصر ، ألا يلذ لك أن تتصور راية المعز تخفق على ضفاف النيل وقد امتد سلطانه الى هناك .. ان نشوة غامرة تتملكنى بمجرد تفكيرى فى دخول جيش أميرالمؤمنين الى الفسطاط ، واسمع أهله يؤذنون بحى على خير العمل ، ويصلون على علىّ المرتضى ، وعلى فاطمة البتول وسائر الأئمة الطاهرين ، ولابد أن ينصر الله أبناء فاطمة الزهراء فانها بنت الرسول وهم أصحاب الحق فى الخلافة ، ولابد أن يملكوا الدنيا كلها ..» قالت ذلك وقد أشرق جبينها وأبرقت عيناها ، كأنها ظفرت بنعمة لم تكن تتوقعها ..

فازداد عجبـا بمروءتها وغيرتهـا ، وودّ لو كانت أم الأمراء حاضرة لتسمع ما قالته لمياء ، ولكنه عزم على أن ينقله اليها فى فرصة أخرى ، فقال : « أحس أننى أخاطب ملاكا هبـط من السماء .. وأعدّ قولك الهاما لابد من تحقيقه باذن الله »

— ٤٧ —

حضور أم الأمراء

وبينما هما فى ذلك ، اذ سمعا خفق نعال فى الخارج .. عرفا أنها نعال أم الأمراء .. وسمعاها تخاطب أحد الغلمان فى شأن من شئون القصر .. وهى انما تريد بذلك أن تنبّه الحبيبين الى قدومها قبل دخولها عليهما حتى لا تدخل فجأة . وفى ذلك من دقة الاحساس وسلامة الذوق ما فيه

فاستعدا لاستقبالها .. ثم دخلت وهى تهش لهما ، وبادرت الى الاعتذار بأن أمير المؤمنين شغلها فلم تستطع أن تبقى معهما .. فقال الحسين : « كم كنت أحب أن تكونى هنا لتسمعى ما قالته لمياء .. أنت تعلمين تعلقى بمولاى أمير المؤمنين وأنا صنيعته وعبده وابن عبده ، لكننى رأيت من تعلق لمياء أضعاف ما أعرف من أحد من الناس »

فضحكت أم الأمراء وقالت : « تعنى تعلقها بك ؟ »

قال الحسين : « كلا .. انما أعنى تعلقها بأمير المؤمنين والتفانى فى خدمته حتى لقد اشترطت علىّ أن يكون أول شىء نتعاهد عليه انما هو التفانى فى نصرته »

فقالت أم الأمراء : « ألم أقل انك لا تجد مثلها فى القيروان ولا فى المغرب كله ؟ »

فأجاب على الفور : « ولا فى مصر أو بغداد .. »

فظلت لمياء ساكتة من الحياء ، فنهض الحسين وودع أم الأمراء

ثم تقدم الى لمياء وقال : « استودعك الله الى أن نلتقى » ومدّ يده لمصافحتها ..

فمدّت يدها ، ونظرت اليه وصافحته ، وهى تقول : « فى مصر ان شاء الله »

فوقع قولها وقعا جميلا فى أذنى أم الأمراء ، وفهمت منه ما يكفى .. فأكبّت عليها ، وضمّتها ، وقبّلتها ، وقالت : « بارك الله فيك يا ابنتى ياحبيبتى ، لله أنت من فتاة نادرة المثال »

ثم تحول الحسين وهو يقول : « لا أظننى أستطيع مثل هذا الاجتماع قبل سفرى الى فج الأخيار ، ومتى عدت فأين أراك ؟ »

فقالت لمياء : « فى الفسطاط .. فى قصر مولاى المعز لدين الله .. على ضفاف النيل ان شاء الله »

فكان لقولها تأثير فى قلب أم الأمراء لما ينطوى عليه من التفاؤل الحسن مع التفانى الصادق .. والتفتت اليها ، ثم نظرت الى الحسين وابتسمت وهى تقول : « المراد أن تجتمعا وتسعدا معا ، وذلك غاية ما يرجوه أمير المؤمنين »

ثم أومأت الى الحسين مودّعة ، فودعها وهمّ بالخروج وهو ينظر الى لمياء نظرة المحب الولهان ، ولم تكن هى أقل تأثرا منه .. لكن عواطف الغيرة والنقمة هاجت فى نفسها ، فقالت له : « الى أين ياحسين ؟ »

فرجع اليها وقال : « الى فج الأخيار .. »

قالت لمياء : « وهل أنت على بيّنة من مكانه وسائر أحواله ؟ »

فبغت من هذا السؤال وأطرق خجلا لأنه كان عازما على أن

يسألها عنه ، فشغل بذلك الحديث ، ثم رفع رأسه وقال : «أعرفُ قليلا وسأبحث وأسأل .. فهل تزيديننى علما ، وهل تعرفينه ؟ »

قالت لمياء : « لا أعرفه لأنى لم أصل الى ذلك المكان لكننى أسمع انه فى بلد بعيد فى أواسط الصحراء من بلاد كتامة . ولا يهمنّى بُعده ، وانما يهمنّى ماهناك من وسائل الدفاع عنه لأنى كثيرا ماسمعت بما اتخذه أصحابه من الطرق لاخفاء الأموال وصيانتها»

فقطع كلامها قائلا : « لاتبالى يا لمياء بشىء من ذلك .. فان ما رأيته من حماستك وغيرتك ومروءتك يصغر كل كبير ويهوّن كل صعب .. كونى مطمئنة » ومد يده لمصافحتها وهو يقول : « أعود فأودعك ثانية وأطلب اليك أن تفكرى فىّ أحيانا . وهذا يكفينى لنجاح مسعاى » ثم ودعها وخرج وهى تقول : « سر فى حراسة المولى ، فانه آخذ بيدك فى نصرة الحق والانتقام من الظالمين » ..

— ٤٨ —

الكتاب

وبعد خروجه أرادت لمياء أن تودع أم الأمراء ، فأمسكتها وأجلستها فجلست .. وهى تنظر اليها كأنها تستفهم منها عما تريده . فقالت أم الأمراء : « هـذا الحسين قد عرفنا وجهته وخطته .. أما أنت فـ .. »

فقطعت لميـاء حديثهـا رغم ارادتها وقالت : « أستأذنك ياسيدتى أن لا تسألينى عن ذلك »

قالت أم الأمراء : « ولماذا هذا التستر ؟ »

قالت لمياء : « أرى فيه فألا حسنا . وماذا يهمك اذا عرفت خطتى أو وجهتى ؟ وانما يهمك أن آتى مولاى أمير المؤمنين بأخبار تلك الدولة »

قالت أم الأمراء : « ولكن أمرك يهمنى .. وأخشى أن تلقى بنفسك فى تهلكة نظرا لما فى مهمتك هذه من الأخطار ، مما يزيد على مهمة الحسين »

قالت لميـاء : « لا تخافى ياسيدتى لأن تصـير أمير المؤمنين سلالة بنت الرسول لابد من أن ينجيه الله وينصره على أعدائه . غير أنى أتوسل اليك فى أمر هو واجب فى ذاته »

قالت أم الأمراء : « قولى ماذا تريدين ؟ »

قالت لميـاء : « ان يعقوب بن كلس اليهودى المقيم بمصر أرسل تلك الرسالة المستعجلة الى سيدى المعز لدين الله ، فهو صاحب فضل كبير .. أليس كذلك ؟ »

فحنت أم الأمراء رأسها اذعانا للحق وقالت : « نعم انه صاحب الفضل الأكبر .. ولولاه لنفذت حيلة ذلك الشرير »

فقالت لمياء : « ألا ترين أن يكتب أمير المؤمنين كتابا يشكره فيه حتى يواصل خدماته فى مصلحة هذه الدولة .. »

قالت أم الأمراء : « صدقت .. وأظنه سوف يفعل ذلك »

قالت لمياء : « ومع من يرسل الكتاب ؟ »

ففطنت أم الأمراء لغرض لمياء من هـذا السؤال ، فقالت : « لا أدرى وأظنه يرسله مع أحد غلمانه فى قافلة أو بطريق آخر.

وهل يهمك هذا الأمر ؟ »

فقالت وهى تحك وراء أذنها : « لا .. لكن .. » وأطرقت

فقالت أم الأمراء : « قولى يا لميـاء .. ماذا يخطر لك ؟.. لا تخفى عنى شيئا »

قالت لمياء : « أريد أن أحدثك فى أمر يهمنى أن يظل سرا .. هل أفعل ؟ »

قالت أم الأمراء : « افعلى ولا تخافى بعد أن ارتفع حجاب الهيبة من بيننا ، وأنت بمنزلة ابنتى تماما كما قلت لك مرارا ، بل لا أرى ابنة أو ابنا يعامل والديه بما تعاملييننا به يا لمياء » قالت ذلك ، وقد ظهر الاهتمام على وجهها ..

فابتسمت لمياء وأبرقت عيناها عند سماع ذلك الاطراء وقالت : « ان سرّى ياسيدتى يتعلق بالطريق المؤدى الى خدمة أمير المؤمنين » ..

قالت أم الأمراء : « قولى ياعزيزتى »

قالت لمياء : « أحب أن أكون أنا رسول أمير المؤمنين الى يعقوب هذا .. ولا أريد أن يطلع سيدى الخليفـة على ذلك ، فهل تدبرين وسيلة لذلك ؟ »

فاستغربت أم الأمراء هذا الطلب بهذه الصورة ، وقالت : « وما هو غرضك من هذا التكتم ولماذا ؟ »

قالت لمياء : « لعلمى ان السر اذا جاوز الاثنين شاع ، ولولا حاجتى الى مساعدتك فى الظفر بالكتاب لكتمت هـذا عنك . ولذلك أتوسل اليك بالحاح أن تكتمى خبرى . وقد قلت لأمير

المؤمنين انى سأسعى فى استطلاع حال مصر بطريقة لا أحب أن يعرفها أحد . وكنت أود أن أفعل ذلك بدون أن أكاشفك بأمر الكتاب .. فلا تسأليني عن الأسلوب الذى سأتخذه فى البحث .. انما أتوسّل اليك أن تستحثى سيدى أمير المؤمنين على كتابة الكتاب ، وأن توحى اليه بأنك سترسلينه مع أحد الغلمان ، أو توصى الرسول اذا أخذ الكتاب أن يأتى به اليك أو كما تشائين . والمراد أن تسلمى اليّ الكتاب ، وتطلقى سبيلى بدون أن يعلم أحد بجهة سفرى »

فضحكت أم الأمراء وقالت : « انى لا أحتاج فيما أطلبه من المعز لدين الله الى حيلة أو وسيلة وسأفعل ذلك اكراما لخاطرك .. ولكننى سأشتاق الى رؤيتك ، فقد تعودت جوارك و . . » ودمعت عيناها ..

فأثر ذلك المنظر فى لمياء ، وأحست بشىء يجتذبها نحو تلك المرأة .. فلم تتمالك عن الترامى على كتفيها ، وقد سبقتها دموع الامتنان .. فضمّتها أم الأمراء الى صدرها وقبّلتها وقالت لها : « ولكن عسى أن تعودى سالمة ظافرة ، ويعود الحسين أيضا فائزا فتزفان فى هذا القصر ، وتنسى ما قاسيته من الشقاء »

فتجلدت لمياء واعتدلت ، وقد فاضت الحماسة من عينيها ، وقالت : « انما يكون ذلك فى الفسطاط باذن الله »

فأعجبت أم الأمراء بغيرتها وضحكت ، وضمتها ثانية وودعتها على أن تدبّر أمر الكتاب ..

وانصرفت لمياء الى غرفتها وأخذت تفكر فيما هى قادمة عليه

من الأمر العظيم ـ سفر وخطر وبعد وشوق ـ لكنها تجلدت واستحثت شجاعتها .. وقالت فى نفسها : « لابد لى من الصبر حتى أنتقم لوالدى وأثأر لنفسى من ذلك الخائن الذى خدعنى وأراد أن يجعلنى ضحية مطامعه »

وسكتت وأطرقت وهى واقفة أمام المرآة تنزع ثيابها . وتصورت ما كان لسالم من المنزلة عندها ، فخفق قلبها وسبق الى ذهنها حسن الظن به فقالت : « قد يكون ابن كلس منافقا أو مخطئا . هل يمكن أن يكون سالم خائنا الى هذا الحد ويخدعنى عدة سنين ؟ لا .. لا .. اذن كيف أفسّر عمله ؟ ولو كان صادقا فى حبّه لِمَ يوافق على الفتك بأبى ؟.. ولكننى سأتحقق من ذلك بمصر قريبا .. »

وكانت قد فرغت من نزع ثيابها فاستلقت على الفراش للراحة والتأمل.. وأجّلت الحكم على كل شىء الى مابعد وصولها الى مصر

وبعد بضعة أيام أتتها أم الأمراء بكتاب المعز لدين الله الى يعقوب بن كلس .. فتناولته وودعتها سرا ، وكان وداعا مؤثرا . وكانت لمياء قد أعدت كل مايلزم للسفر من الخدم والأدلاء ، لأن الطريق من القيروان الى مصر بعيد الشقة لا تقطعه الا القوافل ، وقد أعدت شبه بريد مؤلف من أربعة أفراس مع ما يلزم من الخدم والحرس ، ونظمت ذلك البريد بحيث يبدو كأنه يحمل غلام أمير المؤمنين الى مصر .. ولما أتاها الكتاب تنكرت فى ثوب غلام صقلبى وركبت ، ولم يكن يشك من يراها فى انها غلام الخليفة يحمل رسالة فى مهمة .. وسار الركب قاصدا مصر ..

- ٤٩ -

الفسطاط

كانت الفسطاط عاصمة الديار المصرية ، ومقر الامارة منذ بناها عمرو بن العاص . فلما تولى أحمد بن طولون جعل مقره فى القطائع ، كما ذكر فى رواية أحمد بن طولون .. ثم ذهبت الدولة الطولونية وأفضت الامارة الى محمد الاخشيد ، فجعل مقره الفسطاط ، فعادت الى رونقها ، وزادت عمارتها ، وتزاحمت الأقدام فيها حتى فاقت البصرة والكوفة فى كثير من الوجوه ، وبلغ طولها على ضفة النيل ثلاثة أميال . وذكر مؤرخو العرب من مقدار عمارتها انه كان فيها ٣٦٫٠٠٠ مسجد ، و ٨٫٠٠٠ شارع ممهّد ، و ١١٧٠ حمّاما .. وقد يُستبعد ذلك ، ولكن ذكره يدل — فى كل حال — على العظمة والعمران . ومما نظمه الشعراء فى مدحها قول الشريف العقيلى :

أحن الى الفسطاط شوقا واننى
لأدعو لها أن لا يحل بها القطر
وهل فى الحيا من حاجة لجنابها
وفى كل قطر من جوانبها قطر
تبدت عروسا والمقطم تاجها .
ومن نيلها عقد كما انتظم الدر

وبلغ من تزاحم الناس فى الفسطاط أن جعلوا المنازل طبقات عديدة ، بلغ بعضها خمس طبقات الى سبع . وربما سكن فى

البيت الواحد ٢٠٠ من الناس .. وبلغت نفقات بناء احدى هذه الدور ٧٠٠٫٠٠٠ دينار ، وهى فى دار الحرم لخمارويه ..

واشتهر من تلك الأبنية دار ضُرب المثل بعظمتها وغنى أهلها تسمى « دار عبد العزيز » كانت مطلة على النيـــل ، بلغ من سعتها وكثرة ساكنيها انهم كانوا يصبّون فيها أربعمائة راوية ماء كل يوم .. ونقل بعضهم أن الأسطال التى كانت بالطاقة المطلة على النيل بلغ عددها ١٦٫٠٠٠ سطل مؤيدة ببكر وأطناب لها ترخى وتملأ .. وذكر رجل دَخَلَها فى أواخر القرن الثالث للهجرة فى زمن خمارويه بن أحمد بن طولون قال : « طلبت بها صانعا يخدمنى فلم أجد فيها صانعا متفرغا لخدمتى : وقيل لى ان كل صانع معه اثنان يخدمهما وثلاثة ، فسألت كم فيهـا من صانع فأخبرت ان بها سبعين « كذا » صانعا قلّ من معه دون ثلاثة سوى من قضى أو خرج »

وفى ذلك دليل على غنى أهل الفسطاط وترفهم ، ومن هذا القبيل استكثارهم من الفرش . فقد يقتنى أحدهم ألف فرشة ، أوعشرة آلاف فرشة.. وذكروا أن رجلا من أهل الفسطاط كانت عنده ثلاثمائة فرشة كل فرشة لحظيّة .. وكذلك كانوا يفعلون بالثياب ونحوها ، وقد تكون أثمانها فاحشة فلا يبالون لغناهم . قال القضاعى ان قطر الندى ابنة خمارويه كان فى جملة جهازها ألف تكة ثمن كل واحدة عشرة دنانير ، فبلغ ثمنها كلها عشرة آلاف دينار .. فاذا كان ذلك شأن الفسطاط فى زمن آل طولون ودار الامارة فى القطائع ، فكيف بعد أن عادت دار الامارة اليها فى

عهد الدولة الأخشيدية ؟

وأشرفت لمياء على مدينة الفسطاط من جهة الشمال الغربى فى صباح يوم صفا جوه .. فوقع بصرها على المدينة عن بُعد ، فظفر باعجابها جامع عمرو فى وسطها وحوله الأبنية الكبيرة ، بينها المآذن العديدة .. ووراءها النيل قد رست فيه السفن فى ميناء الفسطاط من جهة الغرب ، وبانت سواريها مصطفة كالرماح اذا تقلدها صف من الفرسان وقف بنظام . وبين الفسطاط والمقطم البساتين والغياض ، وفيها الأشجار الناضرة وأنواع الرياحين والأزهار .. أجملها بين المقطم والخليج بستان الاخشيد أو البستان الكافورى (فى محل الأزهر والسكة الجديدة من أبنية القاهرة اليوم) والى جنوبى الخليج ناحية المقس ومناخ المهرانى وأرض الطبالة (وهى الأماكن التى نشأت فيها بعد ذلك الفجالة والظاهر والتوفيقية والأزبكية وغيرها) فأخذت لمياء تسأل دليل الركب عما يقع بصرها عليه من البساتين ، وهو يقص عليها .. ثم استوقف بصرها بستان واسع فيه بقعة كالميدان قد نصبت فيها الخيام فقالت للدليل : « وما هذا البستان ؟ » .

قال : « هو بستان الاخشيد ياسيدى »

قالت لمياء : « أراه جميلا .. فلنذهب اليه للراحة ثم نواصل السير .. »

قال الدليل : « لايمكننا ذلك الآن .. ولو جئنا فى غير هذا اليوم ربما استطعنا دخوله »

قالت لمياء : « ولماذا ؟ »

قال الدليل : « ألم تر ياسيدى الخيام المنصوبة فى وسطه وعليها الأعلام ؟ »

قالت لمياء : « بلى وما هى ؟ »

قال الدليل : « هذه سرادقات نصبوها للأمير كافور الاخشيدى صاحب مصر الآن لأنه منحرف الصحة ، وأشار عليه طبيبه أن يقيم فى الخلاء لعله يستفيد من ذلك »

قالت لمياء : « هل كافور هو أمير مصر الآن ؟ »

قال الدليل : « نعم يامولاى هو أميرنا منذ عامين .. ونعم الأمير .. »

فسكتت وتحولت الى مرتفع بجانب المقطم يطل على ما تحته الى النيل .. فأعجبها مارأته من الأبنية التى لم تعهدها فى القيروان ، ولا فى غيرها من البلدان التى مرت بها .. وأثار اعجابها على الخصوص لمعان سطح النيل وراء الفسطاط .. ووراء النيل بساتين الروضة والجيزة ، ووراءها الأهرام تناطح السحاب . وقد اكتنف النيل على ضفتيه بساتين النخيل الباسقة تختلط برءوسها السوارى البارزة عن السفن السابحة فى مياه الفسطاط ، تحمل اليها الغلات والسلع وضروب الأنسجة من كل صقع وبلد .. فزادت رغبتها فى أن تصير هذه البلاد الى المعز لدين الله . وتصورت الخليفة قد دخلها فاتحا ، ورفع أعلامه فوقها فاختلج قلبها فرحا

— ٥٠ —

الشيعة بمصر

ثم ما لبثت أن عادت الى التفكير فى المهمة التى قطعت تلك الصحراء من أجلها ، فكان أول همها أن تبحث عن منزل يعقوب ابن كلس ، ولكنها أمرت صاحب الركب أن يسوق الأفراس الى فندق أو خان كى ينزلوا فيه .. فتوجّه بهم الى فندق قديم يعرف بفندق ابن حرمة بأول سوق العدسيين . وكانوا وهم يمرون فى الأسواق لا يلفتون الأنظار لكثرة من كان يدخل الفسطاط يومئذ من القوافل القادمة ، من الشام ، والعراق ، والمغرب ، والسودان ، وغيرها .. تحمل البضائع والغلال والريش والصمغ والجوارى والغلمان على البغال أو الأفراس أوالجمال.. هذا عدا ما ينقل بحرا عن طريق النيل .

ومازالوا سائرين حتى بلغوا الفندق ، فأمرت لمياء صاحب الركب أن يهتم بالأفراس وهو لا يشك فى أنها غلام . وبعد الاستراحة قليلا فكرت فى السؤال عن بيت يعقوب بن كلس .. فطلبت صاحب الخان الى غرفتها فجاء .. فرحبت به ، وكانت قد بالغت فى اكرامه ودفعت اليه أضعاف ما طلبه من الأثمان أو الأجور ، فأصبح طوع ارادتها .. فلما دعته اليها وقف بين يديها وقد أدهشه جمال ذلك الغلام الصقلبى ، وما فى عينيه من الذكاء

وكان الخاناتى « صاحب الفندق » شيخا لطيف الحديث ، قد عركه الدهر ، وشهد تقلب الدول على مصر منذ أواخر دولة

آل طولون . وكان فى جملة من شــاهدوا الفتــك بالطولونيين وكثيرا ما مرَّ به النزلاء من ســائر الطوائف والعنــاصر من الأتراك ، والأرمن ، والشــوام ، والمغــاربة ، والشراكسة ، والسودانيين ، وغيرهم ..

وأصحاب الفنادق والخــانات والقهوات ونحوها من الأماكن العامة ، أقرب الى اللطف ودماثة الخلق من سائر طبقات العامة .. لأنهم يتعودون الصبر على الضيم وسعة الصــدر لاضطرارهم الى مسايرة الناس على اختلاف أهوائهم وطبائعهم .. فيأتيهم السكران والمعربد ، والثقيل ، والبارد ، والمتكبر ، والمحتال ، وهم مضطرون بحكم الارتزاق الى أن يرضوهم كما يرضون سواهم .. فاذا لم يكن لديهم استعداد للقيام بذلك ، هجروا تلك المهمة وعدلوا عنها الى سواها .. واذا استمروا فيها فان الحوادث تظل تعركهم ، والتجارب تحنكهم حتى تصير أخلاقهم وطباعهم فريدة .. لينا ودماثة ..

فكان صاحبنا « صاحب الخان » من هذا القبيل ، فلما رأى لمياء وهو يعتقد انها غلام صقلبى ــ وأكثر ما كان يأتى الصقالبة يومئــذ من جهات المغرب ــ عرف انها قادمة من بلاد المغرب فضلا عما دله على ذلك من ملابس رفقائها وكلامهم . فقالت :

« يظهر انك فى هذا البلد منذ زمان طويل ياعماه .. »

قال : « نعم .. أنا ياسيدى هنا منذ زمان طويل »

قالت لمياء : « وقد مر بك ألوف من الزائرين من ســائر الملل .. أليس كذلك ؟ .. »

قال وهو يمشط لحيته بأنامله : « نعم ياسيدى .. انى أعرف من أحوال الناس أكثر من شعر هذه اللحية .. » وضحك

فارتاحت لمجونه مع شيخوخته ، وهمّت بالسؤال عما يفيدها فقالت : « أتعرف رجلا اسمه يعقوب بن كلس ؟ » .

فهز رأسه هزة الاعجاب وقال : « كيف لا أعرفه وهو من كبار رجال الدولة وقد رأيته أمس مارا على بغلته .. ويندر بين اليهود من يؤذن له بركوب البغال »

فقالت لمياء : « وكيف أُذن له بذلك ؟ .. »

قال صاحب الخان : « لأن كافورا أميرنا فتن بذكائه ومهارته فجعله من خاصته ، وعظمت منزلته عنده حتى أصبح لا يوقّع ورقه الا بعد توقيعه »

فاستغربت ذلك وقالت : « أين يقيم الآن ؟ »

قال صاحب الخان : « يقيم فى منزل فخم بجانب زقاق اليهود على مقربة من هذا المكان »

قالت لمياء : « هل ترسل معى من يرشدنى الى منزله ؟ »

فنهض الشيخ وقال : « أنا أسير فى خدمتك الى منزله »

فقالت : « لا حاجة لأن تكلف نفسك المشقة .. ويكفى أن تدلنى عليه من هنا »

فمشى وهو يظن انه يكرمها بهذه الخدمة ، وقال : « لا .. لا .. بل امشى فى خدمتك ياسيدى .. ولهذا المنزل طريقان : أحدهما قصير ، لكنه ضيق مظلم ، والآخر طويل منير جميل .. والأحسن أن نسير فى الطريق الطويل » قال ذلك ومشى وهو

يتوكأ على عكازه ..

فأطاعته لمياء ومشت فى أثره ، وهى بملابسها الخاصة بغلمان الصقالبة .. وانما اختــارت تلك الملابس لأن أصحابها أقرب بوجوههم وأصواتهم الى النساء ، فلا يشك فى أمرها من يتوهم فى صوتها غنة النساء .. فمشيا فى زقاق ينتهى الى رحبة واسعة رأت لميــاء فيها الجماهير يتزاحمون ويتراكضــون فسألته عن المكان فقال : « هذا جامع عمرو بن العاص ياسيدى »

قالت لمياء : « قد سمعت عنه كثيرا .. وكنت أود أن أصلّى فيه ، لكننى سأفعل ذلك فى فرصة أخرى »

فقال : « تفضل ياسيدى لأريك الجامع ثم نسير فى طريقنا » ومشى أمامها مسرعا وهو ممسك بطرف ثوبها كأنه يجرها الى هناك ..

ولم يكد يصل بها الى الباب ، حتى سمعت صوتا أدهشها .. ورأت شيخا واقفا بالباب ينادى : « معاوية خالى » فيرد عليه شيخ آخر فى الجانب الآخر بمثل قوله ــ وهم يفعلون ذلك نكاية فى الشيعة لأنها تحتقر معاوية ــ فأحست لمياء عند سماع ذلك بغضب لأنها تجل الشيعة اكراما للمعز وأم الأمراء . وحدثتها نفسها أن تصيح بالشيخين وتسكتهما ، فتذكرت أنها غريبــة وليس هذا وقت خصام . وهى تعلم تعصب حكومة مصر وأهل مصر يومئذ ضد الشيعة .. لكنها كانت تسمع ذلك عن بعد ، فلما رأته رأى العين استغربته ، فتحوّلت عن باب الجــامع ، وصاحب الخان يتبعها ويقول : « ما بالك ياســيدى لم تدخل

« قالت لمياء لصاحب الخان : هل ترسل معى من يرشـــدنى الى منزله ؟ . فنهض الشيخ وقال : أنا أسـير فى خدمتـك الى منزله »

الجامع لنراه على الأقل ؟ »

فقالت لمياء : « سأرجع للصلاة فى فرصة أخرى .. ولكن ما بال هذين الشيخين يناديان هذا النداء ؟ »

قال صاحب الخان : « يناديان بذلك اغاظة للشيعة »

قالت لمياء : « ولعلك شيعى ؟ »

فصاح : « استغفر الله .. لماذا تقول لى ذلك يامولاى كأنك تريد أن توقعنى فى مصيبة ؟ »

قالت لمياء : « ولماذا ؟ .. ألعل الشيعى كافر ؟ »

فأشار بسبابته على شفته السفلى ، كأنه يطلب منها أن تسكت أو يستمهلها فى الجواب الى فرصة أخرى

فسكتت حتى اذا دخلا فى زقاق منعزل ، قال الشيخ : « احذر ياسيدى أن تجاهر بأمر الشيعة .. يظهر انك منهم .. »

فقالت : « نعم أنا منهم .. وهل من بأس علىّ ؟ »

قال : « كلا .. ربما هابوا ملابسك وقيافتك .. أما الفقير اذا كان شيعيا ضربوه وأهانوه . وقد يضربون الكبراء ويسجنونهم ويهينونهم بلا شفقة »

فلما سمعت ذلك الكلام لم تتمالك أن صاحت : « ويل لهم .. ألا يخافون الله ؟ ! .. »

فتقدم الشيخ وقال بصوت ضعيف : « انصح لك ياسيدى أن تغضّ النظر عما تراه ، ولا تعرّض نفسك للاهانة .. »

فقالت لمياء : « أليس فى هذا البلد أحد من أهل الشيعة ذو مقام ؟ »

قال : « بلى ياسيدى .. هنا رجل شريف من سلالة الحسين اسمه مسلم بن‌عبيدالله الشيعى ، والناس يهابونه ولا يتعرض له أحد بسوء (١) ، لكن ما لنا ولهذا فقد دنونا الآن من زقاق اليهود .. وهذا منزل يعقوب بن كلس »

— ٥١ —

يعقوب بن كلس

تقدم الشيخ الى الباب ، وطرقه بحلقة من الحديد فى وسطه.. فرد عليه البواب ، وقد فتح خوخة الباب وأخرج رأسه منها ، وهو يقول : « من هذا ؟ »

فقال صاحب الخان : « ضيف يسأل عن المعلم يعقوب »

فأجال البواب نظره فى الطريق فرأى لمياء واقفة بثوب الرجال فأعجبه هندامها فقال : « تفضل ياسيدى .. ان المعلم فى المنزل» قال ذلك وفتح الخوخة على مداها ، وتنحّى حتى دخلت لمياء بعدَ أن أشارت الى صاحب الخان اشارة الوداع وابتسمت .. فمضى صاحب الخان معجبا بلطف ذلك النزيل الكريم..

أما لمياء فأشار اليها البواب أن تجلس على مقعد فى مندرة عند الباب ، وذهب لينادى يعقوب .. وبعد قليل سمعت صوت يعقوب يقول لبوابه : « أين الضيف ؟ »

فأجابه : « فى المندرة »

ثم أقبل يعقوب على المندرة ، فوقفت له لمياء فحيّاها بلطف ،

(١) ابن خلكان ١١٠ — الجزء الاول

وقال : « مرحبا بالضيف الكريم .. تفضل اجلس » وجلس على كرسى بين يديها وهو ينظر الى نظافة ثوبها ، وهى تنظر الى سحنته ، وتتبيَّن ملامحه ، فرأته على أبواب الكهولة وقد لبس الجبَّة والعمامة الصغيرة ، وأرخى سالفيه أمام أذنيه . ويظهر من شكل أنفه وحاجبيه انه يهودى .. ولكن الشرر يكاد يتطاير من عينيه لفرط ذكائه ، وحدة ذهنه ..

وكان أول شىء تبادر الى ذهنها أن تطلب الخلوة به ، لكنه سبقها الى الكلام قائلا : « من أين الضيف ؟ »

قالت لمياء : « من بلدة بعيدة .. هل تأذن بخلوة ؟ »

قال يعقوب : « نحن فى خلوة »

قالت لمياء : « بل أريد خلوة أبعد عن أبصار الناس ومسامعهم .. »

فعرف من رنة صوتها انها من بلاد المغرب،وحدثته نفسه لأول وهلة أن يكون لمجىء هذا الصقلبى علاقة بكتابه الى المعز .. وكان ينتظر ورود الجواب اليه كل يوم . فلما طلبت الخلوة نهض ومشى أمامها فى حديقة كبيرة الى مصطبة صعد عليها الى بيت ، ثم دخلا غرفة منعزلة منه .. وأوصى يعقوب أن لا يقترب أحد من بابه

وفى تلك الغرفة بساط من السجاد ، ومساند ، ومقاعد .. فأشار يعقوب الى ضيفه أن يجلس على الوسادة .. وجلس هو بين يديه وعيناه شائعتان ليرى ما وراء هذه الخلوة ، فقالت لمياء : « انى رسول اليك من الامام المعز لدين الله »

فلما سمع يعقوب اسم الخليفة تأدب فى مقعده مبالغة فى

الاحترام وقال : « مرحبا بك ياسيدي .. كيف حال أمير المؤمنين ؟ كيف صحته ؟ »

قالت لمياء : « ان مولاى أمير المؤمنين بعثنى اليك لأحمل شكره لك ، ورضاءه عن رسالتك التى بعثتها اليه .. »

قال يعقوب : « أرجو أن تكون قد أتت بفائدة .. وأنا فى قلق لأن رسولى لم يعد بعد »

فقالت لمياء : « ولن يعود لأنه قتل .. ! »

فأجفل وقال : « وكيف وصلت الرسالة الى الخليفة ؟ »

قالت لمياء : « وصلت بمحض المصادفة.. أنا أوصلتها الى أمير المؤمنين وهو على وشك الوقوع فى الفخ (وتنهدت لأنها تذكرت مقتل والدها) ولكن وصول الرسالة نجّاه وحاشيته من الموت »

فأبرقت أسرّة يعقوب لنجاح مهمّته ، لما يتوقعه من الارتقاء والتقدم ، على أيدى الفاطميين ، وقال : « وكيف حدث ذلك ؟ .. ألا تقص علىّ الخبر ؟ قل بالله قل »

قالت لمياء : « أحب قبل كل شىء أن أكاشفك بسرٌ آخر يخصنى .. »

قال يعقوب : « تفضل ياسيدى »

قالت لمياء : « أنت تخاطب فتاة لا رجلا »

قال يعقوب : « أصحيح ذلك ؟ قد توسمت فى هذا الصوت لطف النساء .. لكننى رأيت فى هاتين العينين قوة الرجال ، أما وقد أطلعتنى على هذا السر فهل تتمين جميلك وتفصحين لى عن حديث رسولى ، وكيف وصلت الرسالة اليك ؟ »

قالت لمياء : « لذلك حديث طويل سأقصه عليك باختصار ، وفيه أشياء كثيرة لا تهمك .. ولكننى سأقولها لك ليقينى باخلاصك ، واعتمادا على غيرتك وشرفك لأستعين بك فى بعض الأمور التى تهمنى شخصيا »

قال يعقوب : « قولى ياسيدتى وثقى انى خزانة أسرار ، وانى أبذل كل ما فى وسعى للأخذ بيدك فى كل ما تريدينه .. »

فأخذت تقص عليه خبرها مع سالم مختصرا الى أن غلب أبوها على أمره وصار فى حوزة المعز.. وكيف خطبها لابن جوهر، وما ظهر من كيد أبىحامد حتى أخفق بفضل وصول الرسالة ، وكيف قتل رسوله ، وقتلت هى قاتله .. وانها قادمة لاستطلاع الأحوال وللانتقام لنفسها الى آخر الحديث . وهو مصغ كل الاصغاء ، فلما فرغت من حديثها قال لها : « أنت اذن لمياء المسكينة ؟ »

قالت لمياء : «نعم أنا لمياء .. ولكننىلست مسكينة لأنىسأنتقم لنفسى من ذلك الخائن الغادر» قالت ذلك وصرّت على أسنانها ، وظهر الغضب فى عينيها .. وأدرك يعقوب انها فتاة ليست كسائر الفتيات ، فقال لها : «كونى على ثقة من انى سأبذل وسعى فى سبيل رضاك .. ان أمّة فى نسائها فتاة مثلك أحرى بها أن يتسع سلطانها ، وستقيمين هنا وتعرفين كل شىء فى مدة قصيرة »

قالت لمياء : « بلغنى ان فى هذا البلد رجلا من الشيعة اسمه مسلم بن عبيد الله .. هل تعرفه ؟ »

قال يعقوب : « انه من أعز أصدقائى وهو الذى حبّب الىّ الأخذ بناصر الشيعة مع انى اسرائيلى ، لكنى صرت أعتقد أن

الحق بجانب الامام على »

فهزّت رأسها ، وقالت : « الحق يعلو ولا يعلى عليه .. وسوف يظهر أصحاب الحق أبناء بنت الرسول» قالت ذلك ومدت يدها الى جيبها وأخرجت لفافة من الحرير أخرجت منها ورقا ملفوفا وقدمته اليه وقالت : « هذا كتاب من أمير المؤمنين اليك » ثم أخرجت حجرا من الماس كبير الحجم ، كان قد ظفر به المعز فى احدى غزواته ، وهو يساوى بضعة آلاف من الدنانير ، وقالت : « وهذا هدية من مولاى الخليفة اليك »

فتناوله وقبّله ، وفضّ الكتاب وقرأه ، فاذا فيه :

« من المعز لدين الله أمير المؤمنين الى يعقوب بن كلس

« ان اخلاصك الصحيح قد تأكد لنا من رسالتك التى وصلتنا فى ابان الحاجة اليها ، فوجب علينا شكرك.. وقد بعثنا اليك هذا الشكر شفاها مع رسولنا حامل هذا الكتاب . وسنذكر لك هذه الأريحية والغيرة الحقيقية فى وقت يكون لك منه نفع صحيح . واذا زدتنا من عنايتك وصدق اخلاصك تضاعف تقديرنا لك .. والله يتولاك بنعمته »

— ٥٢ —

مسلم بن عبيد الله

فلما أتم القراءة قبّل الكتاب ووضعه على رأسه ، ثم أعاده الى اللفافة وخبأه فى جيبه ، فنهضت لمياء .. فأحس يعقوب انها تريد الذهاب للتعرف بمسلم بن عبيد الله الشيعى ، فنهض ومشى بين يديها فقالت : « لعل منزل الشريف بعيد من هنا »

قال : « هو جارنا لا نحتاج فى زيارته الا الى خطوات قليلة بعد خروجنا من هذا الزقاق » فاغتنمت فرصة وجودها معه فى الطريق ، وقالت : « لم أحادثك بشأن سالم بعد .. »

فقال يعقوب : « لا حاجة الى زيادة الايضاح ياسيدتى ، كونى مطمئنة .. »

ولم يسيرا طويلا حتى وصلا الى بيت مسلم المذكور ، فتقدم يعقوب فطرق الباب وخاطب البواب . فلما عرفه فتح له ورحب به .. ودخلت لمياء معه ، ومشى فى الحديقة أمامها حتى بلغ خبر قدومه الى مسلم فناداه من الداخل : « ادخل يا معلم »

فأسرع يعقوب اسراع المحتفى بمخاطبه ، وقال : « لست وحدى ياسيدى .. ان معى ضيفا تسَر بمشاهدته »

فقال مسلم : « تفضل أنت ومن معك »

وكانت لمياء قد صارت على مقربة من باب الغرفة التى فيها مسلم ، فلما وقع بصره عليها تزحزح من مكانه كأنه يهم بالنهوض فأسرع يعقوب اليه وأقعده وهو يقول : « لا تقم باسيدى »

فقال مسلم : « أهلا وسهلا بالقادم .. من معك ؟ »

فقال يعقوب : « رسول من أمير المؤمنين المعز لدين الله .. »

فقال مسلم : « من أمير المؤمنين المعز لدين الله ؟ » قال ذلك ووقف وهو يقول : « فلماذا منعتنى عن الوقوف ؟ ان كنت لا أقف لرسول صاحب الحق ، فلمن أقف ؟ » وترقرقت الدموع فى عينيه فرحا ..

فأكبت لمياء على يده فقبّلتها وهى تقول : « العفو ياسيدى

هذا اكرام لا أستحقه »

فقال مسلم : « بل يجب عليّ أن أقف اكراما لابن عمنا صاحب القيروان .. ولقد طالما تمنيت أن أحظى بهذا اللقاء .. كيف فارقت أمير المؤمنين ؟ » وجلس وهو يشير اليها بالجلوس ، فجلست متأدبة وقالت : « فارقته وهو بخير وسلامة .. ان قلبى يفيض سرورا بهذه المقابلة فى هذا البلد البعيد »

وأشار مسلم الى يعقوب ، فجلس وهو يقول : « وأزيدك علما ياسيدى ان هذا الرسول فتاة تتفانى فى نصرة أمير المؤمنين . وقد كانت السبب فى حفظ حياته من كيد الكائدين .. »

فقال مسلم : « وكيف ذلك يا يعقوب ؟ »

قال يعقوب : « ألا تذكر ياسيدى ما قصصته عليك عن المكيدة التى دبّرها بعض الخونة للفتك بابن عمك .. حفظه الله ؟ »

قال مسلم : «بلى وعلمت انك بعثت رسولا يحذّره من ذلك..»

قال يعقوب : « نعم ، ولكن الرسول قتل قبل وصوله الى القيروان ، فأتيح لهذه الباسلة أن تأخذ الرسالة وتوصلها الى صاحبها .. ولو تأخرت لحظة لنجحت حيلة أولئك الخونة » وقصّ عليه الخبر باختصار

فلما علم بما تكنه جوارح لمياء من الغيرة على الشيعة ، وعن غرضها من القدوم الى مصر ، قال : « بارك الله فيك يا بنيّة .. كيف فارقت أمير المؤمنين ؟ »

فطمأنته وأخبرته بما أوتيه من النصر .. وما ترجوه من تغلّبه وفوزه . فأبرقت أسرّته وقال : « الحمد لله الذى نصر قومه

وتتوسل اليه تعالى أن يتم فضــله علينا وينقــذنا من القوم الظالمين .. ألم يعزم الامام على القدوم الينا ؟ »

قالت لمياء : « انه فاعل باذن الله .. وانما جئت لأســتطلع الأحوال ، وأرى حال الشيعة فى هذه البلاد »

فتنهد تنهدا عميقا وقال : « ان شيعتنا فى ضنك شديد .. ان هؤلاء الظــالمين يسومونهم مر العــذاب من الاهانة والضرب والحبس ، بسبب وبغير سبب .. »

قالت لمياء : « قد تفطّر قلبى لما شاهدته من ذلك فى هــذا الصبــاح وأنا قادمة الى منزل المعلم يعقوب .. رأيت شيخين جالسين بباب المسجد يصيحان : « معاوية خالى » يقولان ذلك بكل وقاحة .. »

فقال مسلم : « انك لم ترى شيئا بعد يا بنيّة .. ان شيعتنا مغلوبون على أمرهم ، يذوقون العذاب ألوانا من الحبس والقتل »

فقالت لمياء : « الحبس والقتل ؟ .. ولماذا ؟ »

قال مسلم : « بغير سبب .. انهم يسومون شيعتنا العذاب لأنها تجلّ أبناء الرسول .. ولو قصصت عليك جانبا من الحقيقة لبكيت لحالنا .. »

قالت لمياء : « أحب أن أعرف شيئا أنقله الى مولاى أمير المؤمنين .. لعله يعجل خطواته لانقاذهم »

قال مسلم : « أذكر لك مثالا صغيرا من مظالمهم .. كان فى الفسطاط منذ سنوات رجل من الشيعة اسمه ابن أبى الليث الملطى بلغ خبره الى صاحب مصر .. فبعث فى طلبه ، فحملوه اليه

فأمر بضربه فضربوه مائتى سوط .. ووضعوا فى عنقه غلا ثقيلا وحبسوه وجعلوا يبصقون فى وجهه وهو فى السجن ، حتى مات رحمه الله» قال ذلك وغصّ بريقه.. فلم تتمالك لمياء عن البكاء ..

فاستأنف مسلم الحديث ، بعد أن بلع ريقه ، قائلا : « لم يكتفوا بموته .. فبعد أن دفنوه نهضت جماعة ممن لا خلاق لهم وهمّوا بنبش قبره (١) .. هل سمعت بأفظع من ذلك ؟.. هـذا مثال صغير مما قاساه الشيعة فى هذا البلد .. وناهيك بما نسمعه بآذاننا من الاهانات والنكايات ، فانهم يتعرضون للمارة فيطلبون من أحدهم أن يقول : « معاوية خالى » أو : « معـاوية خال على » فاذا لم يقل أهانوه أو قتلوه »

— ٥٣ —

القلق

كانت لميـاء تسمع ذلك القول ، وبدنها يقشـعر ، وعيناها تذرفان الدموع ، ومسلم يغص بريقه من فرط التأثر ، ويعقوب يظهر التألم مما يسمعه .. ثم تصدت للكلام ، وقد أبرقت عيناها من التفكير وقالت : « لا تحزن ياسـيدى .. فقد دنا الوقت لانقاذ هذه الشيعة المظلومة .. ان الله مع الصابرين »

فتنهد الشريف مسلم ، وقال : « لقد طال صبرنا يا بنيّة .. ولا أحسب أننا سوف نصل الى ثماره .. كأنه قد كتب علينا الاضطهاد ، وكتب على الخلافة أن تبقى فى غير أهلها لحكمة لا نفهمها »

(١) المقريزى ٣٤٠ — الجزء الثانى

فقالت لمياء : « أليست الخلافة الآن فى بيت الرسول بالقيروان ، انها ستبقى فيهم مدى الزمان .. قد كتب لهم النصر ولا يمضى كثير حتى ترى أعلامهم تخفق على سائر البلدان باذن الله » ..

وكانت لمياء تتكلم ، ومحياها يشرق سرورا ، كأنها تقول ما تقوله عن ثقة .. فأعجب الشريف بما بدا من حماستها ، وقال : « ان وجود مثلك بين أنصارنا يبشرنى بفوز عظيم »

قالت لمياء : « أنا مسكينة حقيرة .. انما الأنصار هم القواد والأمراء ، وفيهم جوهر الصقلى الذى دوّخ المغرب بسيف العبيديين .. ان ذلك الفتح سيكون على يده وأيدى الأمراء من كتامة ، وصنهاجة ، وغيرهم من البربر الذين باعوا أنفسهم فى سبيل الحق » ثم اعترض تيار تفكيرها صورة أبى حامد وسالم ، وما كان من كيدهما حتى قتل أبوها ، فانقبضت نفسها وسكتت وهى مطرقة تفكر فى سالم وانها تحب أن تطلع على حقيقة حاله ، وتود أن تسمع عن خيانته بأذنها .. وأدركت انه لا يستحسن ذكره بين يدى الشريف ، فرأت أن تستأذن فى الانصراف حتى تخلو بيعقوب وتطلب منه ذلك .. فتزحزحت وأظهرت انها تحب أن تنصرف ، فاستوقفها الشريف قائلا : « الى أين يا ابنتى ؟ .. انك ستقيمين عندنا بين أهلنا على الرحب والسعة »

فقطعت كلامه قائلة : «كان يحسن بى ذلك ، وهو شرف كبير لى ، ولكننى لأسباب قهرية لا أستطيع أن أقيم هنا .. وأتوسل اليك بجدك سبط الرسول أن تكتم أمرى عن كل انسان ..

حتى عن أهلك ، فهل تعدنى بذلك ؟ »

قال مسلم : «نعم..كونى مطمئنة . والآن الى أين تذهبين ؟ »

قالت لمياء : « انى سائرة مع المعلم يعقوب .. وسأذهب الى الخان أو غيره كما يتفق ، ولا غنى عنك فى كل حال .. فاذا بدت لنا حاجة أسرعنا اليك ، فادع لنا الآن .. »

فقال مسلم : « فى حراسة المولى . ومهما يخطر لك من أمر فانك تجدينني ملبيا مطيعا .. ولا حاجة بى الى أن أوصيك بالتكتم لأنى رأيت من حزمك وتعقلك ما يضمن ذلك »

ثم قبّلت لمياء يده ، وخرجت وخرج أيضا يعقوب .. ولما صارا خارجا قال يعقوب : « الى أين يا لمياء الآن ؟ »

قالت لمياء : « قد استأنست بك ياسيدى .. ولعل السبب فى ذلك ، انك اطلعت على جانب من حياتى الخاصة قبل أن تتقابل » وتنهدت وسكتت ..

— ٥٤ —

يعقوب وكافور

وقد أدرك يعقوب انها تعنى صلتها بسالم .. وكان يعقوب قد أخلص النية للمياء ، لأنها وقعت من نفسه موقعا عظيما ، وأعجب بما رآه من صدق غيرتها ومروءتها ، وهو شريكها فى غرضها السياسى .. فقد كان يرى ابدال الدولة الاخشيدية بالفاطمية ، ليس حبا فى الشيعة أو انتصارا للحق .. لكنه كان ذا مقام عند كافور ، وكان يتوقع حدوث انقلاب ولاسيما بعد

مرض كافور .. وقد أسرّ اليه الطبيب بأن كافورا سيموت قريبا . وهو يعلم تغير قلوب الاخشيدية واضطراب أحوالهم . فرأى أن يصادق الفاطميين فيمسك الحبـل من الطرفين . ونظرا لثروته ووجاهته كان يخشى مطامع الاخشيديين ، وهو يرى قرب زوال دولتهم نتيجة ضعفهم .. فلم ير بأسا من أن يكون وسيلة لنقل هذا الوادى الى دولة جديدة فتية ، فاذا جرى ذلك على يده أتته المنافع من وجوه كثيرة

وكان عدوه اللدود فى ذلك الحين ابن الفرات الوزير .. وكان يعقوب يخشاه على الخصوص اذا مات كافور ، لأنه كان يحسده على منزلته عند كافور وينافسه على النفوذ . أما كافور وهو أمير مصر ، فكان يقرب يعقوب ويكرمه ، وقد جعله موضع ثقته .. فلما أشارت لمياء الى أمر سالم ورغبتها فى استطلاع حقيقته رأى أن يسهل عليها ذلك ، وأن يطلعها على دخائل الظروف السياسية وأحزابها ، فقال : « أظن أنك تعنين أمر ذلك الخائن »

وأدركت أنه يعنى سالما فأجفلت .. ولم تطق أن تسمع تلقيبه بهذا اللقب مع انها حكمت عليه بالخيانة من تلقاء نفسها . لكن ما رسخ فى قلبها من حبه ، كان ما يزال له صدى فى خاطرها ريثما تتحقق من الأمر ، فقالت : « اسمح لى ياسيدى أن أعترض على ما ذكرته عن سـالم فانه يشـق علىّ أن أسـمعه وان كان صحيحا .. وزد على ذلك انى لم أتحقق منه بعد »

فقال يعقوب : « أما أنا فقد تحققت منه ، كما ذكرت فى كتابى الى المعز لدين الله »

قالت لمياء : « أليس من سبيل الى التحقق من ذلك بنفسى ؟»
وكانا قد خرجا من الزقاق واقتربا من منزله ، وسمعا المؤذن فى جامع عمرو يؤذن لصلاة الظهر . فقال يعقوب : « هذا وقت الغداء .. فلندخل الى منزلنا تتغدى ، ثم ننظر فى هذا الأمر »

فدخل منزله وهى فى أثره ، فأمر غلامه أن يهيىء المائدة فى المندرة ، ولم يحضر معهما أحد من أهل يعقوب ــ ذلك ما أرادته لمياء ــ وبعد الغداء جلسا وكل منهما يفكر فى أمره ، ويعقوب يدبر وسيلة لاجابة طلبها . وبينما هما فى ذلك اذ طرق الباب وأتى الخادم يقول : « الطبيب شالوم بالباب »

فلما سمع اسمه أبرقت أسرّته كأنه كان فى ضيق وأفرج عنه وقال للخادم : « أدخله الى ردهة الاستقبال ريثما آتى »

وبعد خروج الخادم قال يعقوب للمياء : « تعبت وأنا أفكر فى وسيلة لاجابة طلبك بحيث أريك خيانة الرجل .. فأتى هــذا الطبيب .. ففتح باب الفرج »

قالت لمياء : « من هو ؟ »

قال يعقوب : « هو طبيب الأمير كافور يتردد عليه كثيرا ، ولا سيما فى هذه الأيام بسبب انحراف صحته .. ولكافور ثقة فى علمه وطبه .. وكانا صديقين قبل أن يصير هذا العبد أميرا »

قالت لمياء : « أى عبد تعنى ؟ .. » .

قال يعقوب : « « أعنى كافورا ، ألا تعلمين انه عبد !.. فلا بد اذن من أن أقص عليك خبره ليتيسر لك تفهم أحواله . اعلمى يا بنيّة ان كافورا هذا كان فى شبابه عبدا لأحد أهالى مصر ..

ثم اشتراه محمد بن طغج الاخشيد مؤسس هذه الدولة منذ بضع وأربعين سنة ، فخدم عنده وترقّى فى خدمته حتى صار«أتابك» ولديه .. أى مربيا لهما . وصار يعرف بالأستاذ كافور. وتمكنت قدم الاخشيد بمصر وصـار أميرا مستقلا تحت رعاية الدولة العباسية ــ كما هى حالنا الآن ــ وتقدّم كافور معه . وتوفى محمد الاخشيد سنة ٣٣٤ هـ ، فخلفه ابنه الأكبر انوجور ومعناه بالعربى « محمود » فزاد نفوذ كافور فى الدولة لأنه كان مربيا لأنوجور ، فصار وزيرا له ، فقام بتدبير دولته أحسن قيام . ولما توفى أنوجور سنة ٣٤٩ تولى بعده أخوه على بن الاخشيد ، فاستمر كافور على وزارته أو نيابته حتى توفى سنة ٣٥٥ ، فلم ير بين الاخشيديين من يليق بالحكم »

ثم خفّض صوته ، وقال : « ولعله طمع فى الاستقلال فاحتال فى اظهار خلعة قال انها جاءته من العراق .. وهى شارة الولاية عندهم يرسلها الخليفة العباسى لكل والجديد ، فيلبسها فى احتفال شائق.. وزعم انه لقب بأبى المسك،فاستبد بأمور الدولة،واستوزر رجلا فظّا اسمه أبو الفضل جعفر بن الفرات ، وهو وزيره الآن ، ولولا ابن الفرات هذا لكان كافور من أحسن الأمراء »

فأعجبها ما سمعته عن أصل هذه الدولة ، ومن هو كافور لكنها ظلت ترغب فى أن تستزيد من خبره ، فقالت : « قلت ان كافورا كان عبدا ، وهل تعنى انه كان أسود اللون أو هو مملوك أبيض ؟ »

فقال يعقوب : « هو عبد أسود اللون شديد السواد.. لكن

سواده لم يمنع من خضوع القوم له وان لم يخضعوا جميعا. لقد طال بنا الكلام ، والطبيب شالوم فى انتظارنا .. لكن لابأس من اتمام الحديث باختصار، اذ ربما لا تتمكن من ذلك فى حضوره »
قال ذلك ونهض فنهضت لمياء معه ، فأتم حديثه وهما واقفان فقال : « اعلمى يا لمياء ان أمراء هذه المملكة وجندها الآن قسمان : قسم مع كافور ينصرونه ويأخذون بيده ويقال لهم الكافورية.. وقسم مع آل الاخشيد، ويعدون كافورا مختلسا،ويقال لهم الاخشيدية وهم كثيرون .والنقطة الهامة اليوم ان كافورا مريض ولا ندرى هل مرضه خطر أم لا.. فاذا انتهى هذا المرض بالموت فان أحوال مصر سوف تضطرب وتسوء .. اذ ليس من يتولى الامارة من أصحاب الحق بعده الا غلام لايتجاوز عمره ١١ سنة .. وسنعرف أحوال كافور وصحته من الطبيب شالوم .. هيا بنا اليه »

قال ذلك ومشى ، فمشت لمياء معه وهى تفكر فيما سمعته عن اضطراب أحوال هذه الدولة ، وقد استبشرت بنجاح مهمتها

— ٥٥ —

الطبيب شالوم

وأطلا على الطبيب شالوم فى ردهة الاستقبال .. فتقدم يعقوب مسرعا نحوه ولمياء وراءه تمشى الهوينى لتبقى بعيدة ريثما يدعوها .. لكنها جعلت تتفرس فى الطبيب عن بعد فاذا هو كهل ، والذكاء يتدفق من عينيه ، وعليه زى الأطباء فى ذلك العصر ، وملابسه ثمينة لتقربه من أمير البلاد وحظوته عنده .

وحول خصره منطقة مذهبة فيها دواة من عاج ، وقد التحف رداء كالعباءة من حرير عنابى اللون ، وعلى رأسه كساء كالقبعة أو الطاقية عليها طراز مزركش .. وقد أرسل لحيته وسالفيه بغير نظام ، كما كان يفعل كبراء اليهود ..

وكان شالوم جالسا على وسادة فى صدر القاعة ، وفى يده كتاب يطالع فيه باهتمام .. فلما سمع خطوات يعقوب ، نهض وحيّاه ، وابتسم له ــ والاهتمام باد فى عينيه ــ فدعاه يعقوب للجلوس وهو يقول : « مالى أرى حبيبنا شالوم فى شاغل ؟.. ما هذا الكتاب ؟ .. »

وقبل أن يجيبه شالوم ، لمح لمياء بملابس الغلمان فى الحديقة واقفة تتلهى بقطف الزهور ، وكان يعرف غلمان يعقوب فاستغرب أمرها .. وفطن يعقوب لدهشته ، فابتدره قائلا : « هذا غلام صقلبى جاءنى برسالة فى هذا الصباح »

قال شالوم : « من أين ؟.. يظهر لى من زيّه انه من بلاد المغرب ، فهل أتاك برسالة من صاحبك المعز ؟ »

فعض يعقوب على شفته السفلى اشارة التكتم وقال : « صاحبى ! وهل تعتقد ذلك فىّ ؟ وأنا فى خدمة الأمير كافور . ما لنا ولهذا ؟.. قل لى .. رأيتك تقرأ فى هذا الكتاب باهتمام . اجلس .. قل ما هو سبب اهتمامك ؟ كيف صحة مولانا ؟ »

فجلس شالوم وجلس يعقوب بين يديه ، فقال الطبيب : « ان صحة الأمير فى خطر ، وقد أعيتنى الحيل فى علاجه .. وهذا كتاب جاءنى أمس ، ألّفه طبيب من أشهر أطباء العراق .. »

فقطع يعقوب كلامه قائلا : « أظنك تعنى الرازى .. فهل هذا كتابه الحاوى ؟ »

قال الطبيب شالوم : « هو جزء منه يتعلق بالعلة التى يشكو الأمير منها »

قال يعقوب : « هل وجدت شيئا جديدا ؟ »

فأومأ برأسه الى أعلى ، وهو يقول : « لا »

فقال يعقوب : « فأنت اذن يئست من شفاء الأمير ! »

قال الطبيب : «تقريبا »

فأطرق يعقوب وظهر الانقباض على جبينه.. وعرف الطبيب سبب انقباضه فقال له : « انت الآن تفكر فيما سيصير اليه أمرك اذا مات هذا الرجل . كم قلت لك أن تساير الوزير ابن الفرات وتداجيه فانه شديد الوطأة حسود ، وله مطمع لايخفى عليك »

فتنهد يعقوب وقال : « انه لايداجى .. ولا فائدة من مداجاته لأن الحسد يعمى ويصم » وأطرق وهو يفكر .. ثم قال : « لن أبالى به .. ان الأمر لن يطول فى يده ، بل أنا لا أرى ان مصر سيطول أمرها فى قبضة هذه الدولة و . . . » وتوقف عن الكلام بغتة ..

فلم يفت الطبيب ما جال فى خاطره فقال : « لماذا تداجينى يايعقوب ! ونحن قد شببنا معا ومصلحتنا فى هذا الأمر مشتركة. حين قلت عن المعز انه صاحبك غضبت.. لاينبغى لنا أن تتداجى ، وهؤلاء القوم وان قدمونا وأكرمونا فانهم يكرهوننا ، ولولا حاجة هذا الأمير الأسود الى طبّى لما هش لى ولا كلمنى . وأنت

مع طول عشرتك له ، منذ أن توليت عمارة داره وأنت شاب حتى صرت ملازما لبابه ، ثم أجلسك فى ديوانه الخاص وصرت تخدمه وتتولى أعمال الحسابات وتقوم بمعاونته فى كل شىء .. فانه لايحبك ، وانما هو فى حاجة الى عقلك وتدبيرك .. هل غرّك انك كلما دخلت أو خرجت وقف لك الحجاب والأشراف ؟ انه انما يأمر بذلك لأنك خدمت مصلحته باخلاص وغيرة ، ولم تطلب منه مالا .. وأنا أعلم الناس بالمال الذى رددته اليه ، ولم تأخذ منه الا القوت .. فأنت الآن موضع ثقته ، لايمضى دينار ولا درهم الا بتوقيعك (١) ومع ذلك هل تظنه يحبك ؟ انه لايستطيع أن يحبك ولا أن يحبنى .. لا أقول ذلك لأنك لا تعرفه ، بل أنا على يقين انك أعلم به منى .. ولكنى قلته لأسهل عليك التصريح لى بما تحاول كتمانه عنى وأنا أتوسمه فيك ».

وكان يعقوب يسمع كلامه ويعتقد فى صحة كل كلمة منه .. ويعلم ان ميله الى الفاطميين ، لم يَخْفَ على صديقه الطبيب ، وهو لم يفعل ذلك ليغدر بمولاه كافور ، ولكنه توسم قرب سقوط هذه الدولة.. ويعلم ان ابن الفرات يكرهه حسدا منه لتقدمه ، وأنه حين يموت كافور يصبح هو فى خطر على ماله وحياته لذلك أحب أن يصل حبله بحبل الفاطميين مع البقاء على ولاء كافور، لكنه كان يشق عليه أن يصرح بذلك بين يدى أحد.. فلما سمع تصريح الطبيب شالوم هان عليه الدخول فى الموضوع ، فقال يعقوب : « أراك ياصاحبى سيىء الظن بهذا الرجل كثيرا »

(١) ابن خلكان ٣٣٤ ــ الجزء الثانى

قال شالوم : « كلا ، أنا لا أسيء الظن به خاصة ، لكنني لا أرى شيئا يجمعنى به غير المصلحة وأرى أسـباب التفريق كثيرة . فنحن الآن لا ينبغى لنا أن نخون هذا الأمير أو نقصّر فى خدمته لكننى أخشى على حيـاتنا بعـده .. أليس كذلك يا معلم ؟ .. قل .. لا تخف ، انى أسر اليك بأشياء كثيرة .. ومع ذلك لايهمنى أصرّحت أم لم تصرح . فأنت صديق المعز لدين الله الفاطمى ، وهذا الغلام رسوله اليك فى شـأن يتعلق بالدولة . اصدقنى لعلّى أستطيع خدمتك »

فلم ير يعقوب بدا من الكلام ، وهو يثق بصديقه ، فقال : « أنظر ياصاحبى شالوم .. لا تظن أن تأخرى عن التصريح لك نتيجة ضعف ثقتى بك ، فأنت تعلم ما بيننا من الأسرار القديمة والجديدة .. ولكنى مضطرب الرأى فى الأمر .. ان هذا الغلام رسول من المعز ، نعم .. ولكن كن على يقين انى لم أصاحب المعز لأخون كافورا ، فانى خادمه مقيم على ولائه مادام حيا . وأما اذا مات فانى أخشى خلفاءه كبيرهم وصغيرهم .. بل أخاف منهم على مصر وأهلها ، انهم لايصلحون للحكم لما تعلمه من انقسامهم واضطراب أحوالهم.. فلا بد منخروج هذه البلاد من أيديهم. واذا لم يكن بد منخروجها ، فمن تراه أولى بها ؟.. ان القوم فى بغداد مشغولون بأنفسهم.. ان بغداد مسقط رأسى وأنا أحبها كثيرا ، لكنىأراها بعيدة عن مصلحة مصر .. وهؤلاء الفاطميون دولة جديدة رشيدة كثيرا ماسمعت عن حكمة خلفائهم وعدلهم .. فاذا تولوها كان ذلك من أسباب سعادتها »

ثم تدارك ما قاله بلهفة قائلا : « أما اذا اتفق الاخشيديون وولوا من يصلح للولاية ، ولم يؤذونا فى آموالنا وأرواحنا فمن ضعف الرأى أن نستبدلهم بسواهم .. ألا توافقنى على ذلك ؟»

فأبرقت أسرة الطبيب شالوم من سماع ذلك الكلام لأنه لسان حاله تماما ، فابتسم وقال : « بارك الله فيك يا معلم ، لقد نطقت بلسانى وعبرت عن جنانى . نحن متفقان و . . . »

فقطع كلامه قائلا : « لم أشاهد الأمير كافورا منذ أمس لأنى شغلت عن الذهاب اليه لسبب سأقصه عليك .. كيف هو اليوم ؟ كيف حاله ؟ »

قال وهو يرفع حاجبيه : « انه ليس على ما يرام .. كانت الحمى شديدة عليه فى هذا الصباح.. وكنت أتوقع هبوطها ، فلم تهبط رغم ما اتخذته من الوسائل المرطبة . ولما أعيتنى الحيلة رجعت الى كتاب الرازى وأخذت أطالع فيه. وخطر لى ماتتوقعه من تبدل الأحوال فرأيت أن آتى اليك ، فحملت الكتاب معى ولم أكلف غلامى حمله فى جملة ما يحمله من الأدوات والعقاقير »

— ٥٦ —

غلام الطبيب

فلما ذكر الطبيب غلامه ، فطن يعقوب لأمر يتعلق بلمياء ، فالتفت نحوها فرآها تتمشى فى الحديقة كأنها تتشاغل بمشاهدة الرياحين والمياه الجارية فى القنوات ، وبينها الحصى مرصوصة صفوفا .. وهناك عدد كبير من الطيور بألوانها الزاهية بين سارح

وحبيس ، ولا نظن أن لمياء كانت ترى ما بين يديها كما يراه المتفرج لاشتغال خاطرها بسالم ، والطريقة المؤدية الى لقائه

ثم التفت يعقوب الى الطبيب وقال له : « لقد ذكرتنى أمرا أتوسل اليك فى قضائه .. هل ترى هذا الغلام ؟ »

قال الطبيب : « نعم أراه .. أليس هذا هو الرسول الذى تتكلم عنه ؟ »

قال يعقوب : « بلى .. وأحب أن أكلفك أمرا يتعلق به ، هل تقضيه ؟ »

قال الطبيب : « حبا وكرامة .. ما هو ؟ »

فقال يعقوب : « هل تعرف ذلك البربرى الذى يتردد على مجلس الأمير ؟ »

قال الطبيب : « أظنك تعنى الرجل غريب الأطوار صاحب العينين البراقتين الغائرتين ، والأنف الأعقف ، والشارب المسترسل ؟ »

قال يعقوب : « نعم أعنيه ... وأعنى شابا يرافقه فى أكثر الأحايين »

قال الطبيب : « هو ابنه أو ابن أخيه سالم على ما أظن .. نعم أعرفهما .. وهما يترددان على الأمير كثيرا كما تعلم ، وأنا أستغرب أمرهما ولا أعلم لهما محلا سوى .. »

فقطع يعقوب كلامه قائلا : « أنا أعلم انهما يحرضان أميرنا على فتح القيروان »

فدهش الطبيب وقال : « أين نحن والقيروان ؟ .. ألا

يكفينا ما يشغلنا من أنفسنا ؟ .. ما الذى تريده منى ؟ »

قال يعقوب : « ان هذا الغلام يريد أن يحضر مجلس كافور ويسمع ما يدور فيه ، وخاصة أثناء وجود سالم وعمه .. ولكى لا أخفى عنك شيئا ، أخبرك ان هذا الرسول ليس غلاما وانما هو فتاة بملابس الغلمان ــ احفظ ذلك سرا ــ ولها شأن خاص مع سالم هذا .. وقد بلغها عنه أقوال قالها لكافور لم تصدقها ، فأحبَّت أن تسمعها بأذنيها .. فالذى أراه أن تأخذها معك بدل غلامك الذى يحمل لك الأدوات والعقاقير ، وتجتهد فى أن تدخلها معك دار الأمير »

فاستغرب شالوم كونها فتاة وقال : « لابد لهذه الفتاة من حديث هام وقد تاقت نفسى لرؤيتها ، ادعها وقدمها لى وأوصها أن تثق بى.. وسوف أخبرها عما ينبغىأن تعمل ليتم لها ماتريده»

فحوَّل يعقوب بصره نحوها .. فانتبهت لمياء ، فأشار اليها بالقدوم ، فأسرعت وقد توردت وجنتاها فظهرت الأنوثة فيها . ولكن القوة كانت بادية فى وجهها وسائر حركاتها .. فأعجب الطبيب بهيبتها وجمالها وبريق عينيها . فلما دخلت قال يعقوب : « هذا الطبيب شالوم طبيب مولانا الأمير كافور .. وهو صديق حميم أثق به كثيرا ، وقد أطلعته على ماتهدفين اليه ، واتفقنا على طريقة تحضرين بها مجلس كافور حتى تشهدى كل مايدور هناك» وضحك ..

فأدركت من مخاطبته اياها بصيغة التأنيث ، أن الطبيب مطلع على حقيقة أمرها ، فظهرت البغتةفى عينيها وأطرقت .. فابتدرها

يعقوب قائلا : « لاتخجلى يابنية من اطلاع الطبيب على حقيقتك فانه على رأيى من كل وجه.. والمطلوب الآن أن تكونى هنا بعد قليل ، وسيأتيك بثياب خاصة ، تتنكرين بها .. فلا يظن من يراك الا انك غلام الطبيب شالوم ، وتمكثين هنا حتى يأتى هو فتذهبين معه فى أصيل هذا اليوم ، وأكون أنا قد سبقتكما الى هناك .. ولابد لى من الذهاب حالا لأنى أطلت الغياب عن المجلس .. وانما شغلنى عنه تدبير أمرك ، فامكثى هنا ريثما تأتى الثياب وتلبسينها ، وسأوصى قيّمة المنزل بك خيرا ، وكل ما تطلبينه يقضى »

فلم يسعها الا السكوت .. وقد شغل خاطرها بهذه المهمة بما فيها من التجسس وهو يخالف ما فطرت عليه من استقلال الفكر وحرية القول . ولكنها تحمّلت ذلك فى سبيل كشف حقيقة ذلك الرجل الذى خانها فى عواطفها ..

ثم نهض الطبيب وودعها وانصرف على أن يبعث بالثوب والأدوات والعقاقير .. وودعها يعقوب بعد أن لبس الثوب الذى يتردد به على الأمير عادة .. ومضى اليه

وبعد قليل أتت تلك الأشياء ، فلبست لمياء ثوب غلام الطبيب ، كما كانت العادة يومئذ .. وعلّقت جرابا من الديباج فى عنقها وفيه أدوات الجراحة وبعض العقاقير الضرورية . فأصبح من يراها لايشك فى انها غلام الطبيب شالوم ، فمكثت فى انتظاره ، وكانت الشمس قد مالت نحو الأصيل ، وكافور فى سرادقه فى البستان الكافورى كما تقدم

– ٥٧ –

سرادق كافور

ثم جاء الطبيب على بغلته ، وأومأ الى لمياء أن تتبعه على بغلة ساقها اليها .. فركبت وقد علّقت الجراب فى عنقها ، ولم يمض وقت طويل حتى أشرفا على البستان الاخشيدى وفيه السرادقات والأعلام ، وقد وقف الحجاب ببابه ، والجند حول السرادقات بين ماش وواقف .. ولم يدن الطبيب من باب البستان حتى تصدّى له كبير الحجاب بلهفة وقال : « ان الأمير فى انتظارك على أحر من الجمر .. »

فقال الطبيب : « كيف هو الآن ؟ »

فهز الحاجب كتفيه ، وقال : « يقولون انه أحسن »

فارتاب الطبيب فى هذه الاشارة ، لكنه ترجّل وأشار الى غلامه «لمياء» أن تترجل وتتبعه ، ففعلت ومشت وهى ترقب كل شىء . فرأت الوجوه متغيرة والقوم هنـاك يجتمعون زرافات كأنهم يتساءلون عما سيكون اذا مات كافور . فمرت بين السرادقات فى طريق مستقيم يؤدى الى سرادق كبير مبطن بالحرير الأحمر، وقد أرخيت عليه الستائر المزركشة ، ونصب العلم فى قمته ، ووقف ببابه حاجبان فى يد كل منهما رمح قناته مكسوة بالديباج ..

فلما دنا الطبيب من باب السرادق ، وسّع له الحاجبان بدون استئذان لأنهما يعلمان شدة حاجة الأمير اليه ، فدخل وأشار الى غلامه «لمياء» أن تدخل معه ، فلما دخلت كان أول شىء لفت

اتباهها سعة ذلك السرادق «الصيوان» واحمرار باطنه ، وقد فرشت أرضه بالبسط الجميلة ، وأقيمت فى جوانبه منائر من الفضة قد غرست فيها الشموع ، وموائد عليها المباخر يتصاعد البخور من بعضها . وقد علقت على أعمدته الأسلحة من السيوف والأتراس والحراب والأقواس . وفى وسط السرادق دكة فوقها قبة قائمة على أربعة أعمدة كالمظلة ، وقد استرسلت الستائر من جوانبها الثلاثة وترك صدرها مكشوفا ليظهر سرير الأمير للداخل من باب السرادق.. والسرير مصنوع من الأبنوس المطعّم بالعاج، مكسو بالفرش الوثير .. وأصله من أسرّة بنى طولون

وكان كافور متوسدا على ذلك السرير ، ولكن لمياء لم تره لأنه كان غارقا فى الفراش المصنوع من ريش النعام . ورأت الى جانبى القبة جماعة واقفين باحترام واهتمام ، وعلمت أنهم خاصته وأحباؤه غير الغلمان والأعوان .. فأجالت نظرها فيهم لعلها تجد سالما بينهم ، فلم تجده .. وأدركت اهتمام القوم من وقوفهم على الأقدام برغم وجود المقاعد والأرائك والوسائد لجلوسهم

أما الطبيب فظل ماشيا نحو السرير ، وقبل أن يدنو منه برز له من جانب القبة رجل عرفت لمياء انه يعقوب بن كلس ، وقد لبس ثوبا يليق بذلك الموقف . وتقدم يعقوب للقاء الطبيب بلهفة كأنه لم يره من قبل وقال له : « لقد أبطأت علينا أيها الطبيب »

فقال الطبيب : « فارقت مولانا الأمير وأنا أرجو أن تتقدم صحته فهل طرأ عليه طارىء ؟ »

فأجاب يعقوب : «لابأس عليه انه اليوم أحسن من ذى قبل..»

قال ذلك بصوت عال ليسمعه كافور على عادتهم فى طمأنة المريض وتخفيف جزعه .. لكنه أشار اليه همسا ان الحال تدعو الى القلق

فتقدم شالوم حتى دنا من السرير وأشار الى غلامه أن يتبعه ليكون قريبا منه عند الحاجة الى عقار .. فدنت لمياء من ذلك السرير المزيَّن بالأغطية المزركشة بالألوان الزاهية ، تكسوه كله الا بقعة صغيرة عند الرأس سوداء مظلمة ، هى وجه كافور قد أزيح عنه الغطاء لأنه كان شديد السواد ، جلده يلمع.. لكن شدة الضعف أذهبت لمعانه حتى تكاد ترى الاصفرار يخالط ذلك السواد . وكان قد أغلق عينيه كأنه نائم ، وقد برز فكّاه من الضعف ، فافترقت شفتاه وبرزت أسنانه البيضاء من بينها

فلما أحس كافور باقتراب الطبيب منه فتح عينيه وأجال بصره حتى وقع نظره على الطبيب ، فبان الاهتمام فى تينك العينين الحمراوين . وكأنه أراد أن يبتسم فلم يزدد منظره الا تكشيرا ، فأسرع الطبيب الى يده فأخرجها من تحت الغطـاء باحترام ، وجس نبضها وهو يظهر السرور من حال النبض .. والتفت الى كافور وقال : « ان مولاى أحسن حالا من أمس بحمد الله » والتفت الى أحد الغلمان الواقفين فى خدمة كافور وقال : « أين قارورة الماء ؟ » .. يعنى زجاجة البول ..

فأتوه بزجاجة فيها السائل .. فتأمله وتفحصه ، ثم عاد نحو السرير وهو يتبسم ويظهر السرور ، وقال : « كيف ترى نفسك ياسيدى ؟ »

قال كافور : « انى أشعر بضعف ودوار .. »

فقال الطبيب : « هذا أمر بسيط .. الىَّ ياغلام » وأشار الى لمياء ..

فتقدمت وفتحت الجراب ، فأخرج الطبيب منه قارورة صغيرة فتحها وأدناها من أنف كافور .. وحين استنشقها أحس براحة وانتعاش وظهرذلك فىعينيه وجبينه ، فتحرك فى فراشهكأنه يريد الجلوس فأعانه الطبيب على ذلك وساعدهما يعقوب ، وأسنداه من الخلف ، وتناول مذبة كانت بجانبه يتلهى بها ويطرد الذباب عنه .. وهو يكثر من تلك الساعة .. ولم يشأ أن يتولى ذلك عنه أحد ، فتقدم يعقوب وهو يبدى الاهتمام وقال : « ان الذباب كثير فى هذه الساعة وسيدى الأمير منحرف المزاج . ألا تأذن لى أن آخذ المذبة « النشاشة » عنك أو تأمر أن يقوم هذا الغلام باستخدامها » وأشار الى لمياء .. والتفت نحو الطبيب كأنه يستشيره فى هذا الاقتراح ..

فتقدم الطبيب وقال : « ان الأمير فى حاجة الى الراحة » ومد يده وتناول المذبة من يده ودفعها الى لمياء ، وأشار اليها أن تقف وراء السرير تطرد الذباب عن وجه كافور بدون أن تزعجه . فأطاعت وقد سرَّها ذلك حتى تكون قريبة منهم .. وأدار كافور عينيه فى جوانب السرادق كأنهما سراجان موقدان . ثم نظر الى شالوم وقال : « بارك الله فيك أيها الطبيب .. انى أشعر الآن براحة وسرور »

فقال الطبيب : « وستشعر بأحسن من ذلك بعد قليل » ومد يده الى الجراب فأخرج منه قارورة فيها سائل صب منه قليلا

فى قدح ودفع القدح الى كافور فشربه ، فازداد انتعاشا..والتفت الى يعقوب وقال : « اننا لا ننسى فضل طبيبنا هذا بارك الله فيه ، انه صديق محب »

فقال يعقوب : « كلنا عبيد مولانا نفديه بأرواحنا فالحمد لله على سلامته ، ولا أرانا مكروها فيه »

قال كافور : « لله أنت يا يعقوب .. انك موضع ثقتنا وسوف نكافئك على مودتك وصدق خدمتك »

فقال يعقوب : « ان ما تتمنّاه هو شفاء الأمير .. وهذا خير مكافأة .. »

فقال الطبيب : « ان حال مولانا بحمد الله حسنة جدا ولا يلبث أن يخرج على جواده فى البساتين ، أو يركب سفينته يتنزّه بها فى النيل .. »

فهز كافور رأسه وقال : « ان شاء الله .. ان شاء الله » وفى غنّة صوته انه لايصدق هذا الكلام ..

ثم بدا الاهتمام فى وجهه ، وأشار الى الواقفين بالخروج .. ولم يبق الا الطبيب ويعقوب ولمياء واقفة عند رأسه

— ٥٨ —

أبو حامد وسالم

فلما خلا بهم المكان التفت كافور الى يعقوب وقال : « ان الطبيب — حفظه الله — طمأننى وخفف عنى وقد صدقته لكننى ضعيف وأخاف .. » واختنق صوته

فابتدره الطبيب قائلا : « لاينبغى لمولانا أن يشك فى قولى ولا أن يفكر فى أمر يسوءه .. ولا أعول فيما أقوله على فعل العقاقير ، ولكنى استبشرت أيضا من دلالة النجوم .. فقد تفقدت الطالع فى مساء أمس فوافق ما أتوقعه . انت يامولاى فى صحة والتوفيق حليفك » ..

قال كافور : « ذلك الذى أريده .. ولكن كيف أطمئن لحالى وأنا أرى ما أراه من الضعف » ثم وجه كلامه الى يعقوب وقال : « بل كيف يرتاح خاطرى وأنا أرى أحوال هذه الدولة . انت تعلم يا يعقوب ما فى قلبى .. وأحب أن أشرك طبيبنا فى الأمر لثقتى به ، وقد سلمت اليه روحى .. أفلا أبوح له بسرى ؟ أنا لا أثق بأحد من هؤلاء الذين ترونهم حولى . انهم لا يلبثون اذا لفظت نفسى الأخير أن ينقلبوا على .. لايهمنى ذلك ولكنى أخاف على هذه الدولة . اذا مت أنا فان الامارة تفضى الى غلام فى الحادية عشرة من عمره ، وهو صاحب الحق فيها .. أو يتنازعها أعمامه والقواد فتفسد الأمور و .. » وتنحنح وكأنه ندم على ما قاله فعـاد وقال : « ولكن لا .. انى سـأعيش ريثما أدبر شئونها .. أليس كذلك أيها الطبيب ؟ »

فأسرع الى الجواب بلهفة وقال : « بلى ياسيدى هـذا هو اعتقادى » فتزحزح كافور فى فراشه ، فنهض الطبيب وقال : « هل يحب مولاى أن ينام ؟ »

قال كافور : « لا .. لا أحس ميلا الى النوم ، لكنى أحببت أن أغير وضعى . هل رأيت وزيرنا أبا الفضل « ابن الفرات »

اليوم يا يعقوب ؟ » »

قال يعقوب : « كلا ياسيدى لم أره .. هل تأمر بشىء أبلغه اياه ؟ أم تحب أن ندعوه اليك الى هنا .. أم ماذا ؟ »

قال كافور : « لا .. لكننى استبطأته ، ولعله لم يشأ أن يأتينى لئلا يشغل ذهنى بأمور الدولة ففضل لى الراحة . لا بأس من ذلك »

وهمّ يعقوب أن يجيبه ، فرأى الحاجب قد دخل ووقف فى المكان الذى يقف فيه اذا كان آتيا بخبر ، فقال له كافور : « ما وراءك ؟ .. »

قال : « ان أبا حامد بالباب ياسيدى »

فلما سمعت لمياء اسمه أجفلت ، وتسارعت دقات قلبها حتى كاد ذلك يظهر عليها ، ولاحظ يعقوب اضطرابها فأومأ اليها أن تتجلد . ولم يكن أسرع منها الى التجلد لما فطرت عليه من قوة النفس ورباطة الجأش .. فانزوت وراء عمود القبة والمذبة بيدها بحيث لايظهر وجهها ولا ينتبه لها أحد . وكان كافور يستأنس بالطبيب لما فى كلامه من الذكاء وما يبسطه بين يديه من الآمال فقال له : « هل ندخل الرجل علينا الآن .. هل ترى بأسا من ذلك ؟ انه طلى الحديث حاد الذهن ولا يختار من الأحاديث الا ما يسرنا . وكلما زدناه اهتماما بسماع حديثه زادنا مغالاة فى غرائبه ، لا بأس به .. انه لطيف المعشر »

فقال الطبيب : « انك يامولاى فى حاجة الى من يؤانسك بالأحاديث الشائقة المفرحة .. فاذا كنت ترى فى حديثه شيئا

من ذلك فادعه .. »

ونظر كافور الى يعقوب كأنه يستشيره فقال : « اذا شاء مولاى أن يدخله ، فليشترط عليه أن يقص علينا مثلما قصه مرة من الأخبار المفرحة »

قال كافور : « لكنه قصّها علينا سرًّا .. »

فتصدى الطبيب للكلام قائلا : « أما أنا فاذا كان وجودى مانعا من سماع الأخبار المفرحة فانى منصرف » وتحفز للانصراف

فأشار اليه كافور بكلتا يديه أن يبقى وقال : « اذا استغنيت عن رجال الدولة جميعا لا أستغنى عنك . ولا أرى بعد ما رأيته من صدق مودتك وعظيم فضلك أن أخفى عنك سرا كهذا . فليدخل الرجل ويقص ما يقصه وأنت حاضر ، ولنفرح معا اذا كان فيه ما يفرح » وأشار الى الغلام أن يدخله

فقال الغلام : « ادخله وحده أو مع رفيقه ؟ »

قال كافور : « ليدخل الاثنان .. »

فأدركت لمياء ان رفيقه انما هو سالم بعينه فأخذت تتجلد . وكانت الشمس قد مالت الى الغروب وأخذ الفراشون فى انارة الشموع ، فأصبحت لمياء فى موقفها تخفيها ظلال الستائر بحيث لا يفطن لها أحد ، وهى ترى كل حركة وتسمع كل صوت . ولم تبق حاجة الى المذبة بعد الغروب وقد خفت وطأة الذباب .. ونسى كافور وجودها عند رأسه فوقفت لا تتحرك . وبعد قليل دخل أبوحامد ، وقد تزيّا بغير زيّه المعهود ودخل سالم فى أثره ، وقد تغير شكله وهندامه حتى كادت تنكره ، لكنها ما لبثت أن

سمعته يلقى التحية حتى تحققت انه هو بعينه .. فخفق قلبها وارتعدت فرائصها وهى تتجلد وتتمالك لترى ماذا يكون . على انها لم يكد يقع بصرها عليه حتى تذكرت تاريخ معرفتها به ، وكيف كانت تستميت فى حبه .. وودت فى تلك الساعة أن تتضح براءته من تلك التهم ، واستعاذت بالله أن يكون كما قيل لها عنه ، وندمت على مجيئها الى ذلك المكان لتسمع أقواله بأذنها . وخشيت اذا سمعت شيئا يثير غضبها أن لا تقوى على امساك عواطفها فيفتضح أمرها ، لكنها استجمعت قواها وتجلدت

— ٥٩ —

الحديث

فلما دخل الرجلان ألقيا التحية ، فأشار اليهما كافور بالجلوس على كرسيين بين يديه ، فجلسا متأدبين.. وتصدى أبو حامد للكلام فقال : « كنا فى قلق عظيم على صحة مولانا الأمير — أعزه الله — ونرجو أن يكون قد تعافى »

فناب الطبيب شالوم بالاجابة عن كافور تخفيفا للعبء عنه قائلا : « ان سيدى الأمير بخير .. وهو اليوم أحسن من ذى قبل ، ولا يلبث أن ينهض من الفراش »

فقال كلاهما معا : « الحمد لله .. الحمد لله على ذلك .. ان اعتلال صحة الأمير يسبب اعتلال الأمة كلها .. ولاسيما الآن ، وقد دنا الوقت الذى يعلو فيه نجمه ويتسع سلطانه .. »

فقال الطبيب : « ان مولانا الأمير فى حاجة الى التسلية بما

يدخل البهجة فى نفسه .. فهذا هو العلاج الذى يفيده حقيقة ، فهل عندكما شئ من هذا القبيل ؟ »

وتقدم يعقوب فقال : « لا أنسى حديثا سمعته منكما فى حضرة الأمير ، رأيت مولاى انبسطت نفسه منه »

فقال أبو حامد : « أظنك تعنى حديثُ .. » والتفت نحو الطبيب ولسان حاله يقول : « ان هذا الحديث لايتلى جهارا »

وكان كافور يسمع ويرى ، فلما رأى اشارة أبى حامد قال : « لا تحتشم من وجود طبيبنا .. انه موضع ثقتنا »

فوقف الطبيب وأظهر أنه مستعد للخروج.. فأشار اليه كافور أن يجلس فجلس ، والتفت الى يعقوب كأنه يستشيره هل يقول .. فقال : « تفضل ياسيدى ، قل .. »

فاعتدل أبو حامد فى مجلسه وقال : « ان حديثنا فى المرة الماضية لا يحلو تكراره ان لم يكن مشفوعا ببشائر النجاح . وقد جئنا الليلة نحمل بشارة يفرح لها كل مسلم يريد أن يستقر الحق فى نصابه .. »

فقال يعقوب : « وما ذلك ؟ »

قال أبو حامد : « قصصت عليكم فى المرة الماضية ما دبرناه فى سبيل نصرة الحق بانقاذ الدولة الاسلامية من أدعياء الخلافة فى المغرب .. اعنى القوم الذين انتحلوا لأنفسهم نسبا كاذبا فى القيروان ، وزعموا انهم من نسل فاطمة الزهراء وهم أدعياء فى هذا النسب .. ان زعيمهم الذى سمّى نفسه المعز لدين الله ، قد أصبح الآن فى عالم الأموات . ولابد من اضطراب دولته وقيام

أمراء كتامة وصنهاجة عليه ، وانما تحتاج الى جند يبعث به الأمير ـ أعزه الله ـ الى أولئك الأمراء هناك ، حتى يلتفوا حوله ويسلموا الأمر اليه .. فيدعى له على منبر القيروان ، كما يُدعى له الآن على منابر مصر ، والشام ، والحجاز ، وحلب ، وانطاكية ، وطرسوس .. فيستقيم له الأمر وحده ، ولا يبقى لمنافسيه هنا مطمع فى شىء ، لأن البـاقين من آل الاخشيد غلمان ونساء لايستطيعون عملا »

وكان كافور جالسا ينظر الى أبى حامد ، وقد بدا الانبساط على وجهه ، فلما سمع قوله زاد انبساطا لكنه تنهد وقال : « انى لا ألبث أن أعمل بذلك حالمـا أنهض من الفراش باذن الله » والتفت الى الطبيب ، كأنه يستشيره فى ذلك ..

فقال الطبيب : « قريبا ان شاء الله .. » والتفت الطبيب الى أبى حامد وقال : « يظهر انك واثق من نجاح هذه المهمة »

فقال أبو حامد : « انى لا أقول غير الحق ، وأنا منذ أعوام أعد العدة ، وأهيىء الأحزاب ، وأجمع الأموال .. انى على ثقة من انضمام قبائل البربر كلها فى نصرة الأمير أبى المسك أعزه الله . وانما كان ينقصنا أن نتخلص من رجلين هناك ، خدمهما الحظ حينا فغلب عليهما الغرور وقد ماتا الآن »

قال يعقوب : « من تعنى ؟ »

قال أبو حامد : « أعنى المعز ، وجوهر قائده .. انهما ماتا الآن ولا تمضى سوى بضعة أيام حتى تأتينا كتب الأمراء بذلك »

فأحب يعقوب أن يُسمع لمياء كلام سالم عن نفسه ، فوجّا

الخطاب اليه قائلا : « ان الفضل فى هذا النجاح ليس للأمير أبى حامد فقط وانما هو لك أيضا .. وان حيلتك التى قصصتها فى المرة الماضية غريبة فى بابها » وضحك ليشجّعه على التصريح

فقال سالم : « ان الفضل الأكبر لهذا الأمير .. وهو صاحب الرأى الأعلى وعنده الرجال والأموال .. وأما أنا فعملى مقصور على اغراء فتاة جاهلة ، توهمت انى أحبها .. فاتخذناها وسيلة لخدمة صاحب مصر أيده الله »

ولا تسل عن لمياء وما أصابها عند سماع هذا الكلام . ورغم تجلدها وتمالكها ، أحست بأنها مدفوعة لتكذيب ما سمعته ، وحدثتها نفسها أن تتقدم فى تلك اللحظة وتكشف عن الحقيقة . وكان يعقوب يلاحظ حركاتها ، ويشير اليها خلسة أن تتجلد ..

وبينما هم فى ذلك ، اذ رأوا كافورا يتحرك فى سريره حركة غير عادية ، وقد تغيرت سحنته .. فانتبه له الطبيب ونهض اليه فرآه قد أصيب بنوبة سعال شديدة ، فأومأ الى القوم بالانصراف حالا .. فنهض أبوحامد وسالم وخرجا ، وشغل الطبيب بمعالجة كافور ، فنادى غلامه «لمياء» أن يأتى بالجراب ، فأسرعت وفتحت الجراب ويداها ترتعدان من التأثر وقد احمرت عيناها من الغضب ، فتناول الطبيب قارورة الاستنشاق وقربها من أنف كافور وأعانه يعقوب باسناده ، وهو لا يزداد الا سعالا حتى كاد يغمى عليه ..

وشغلت لمياء بذلك المنظر عما جال فى خاطرها ، وقضوا ساعة وهم يسعفون الأمير بالعلاج حتى سكن السعال ومال الى النوم ثم جس الطبيب نبضه وقال : « انه مرتاح الآن .. وينبغى أن

نتركه نائما »

فقال يعقوب : « هل نخرج نحن اذن ؟ »

قال الطبيب : « نعم .. أما أنا فلا ينبغى أن أتركه ، اذ أخشى أن تعاوده النوبة »

فقال يعقوب : « أنا ذاهب مع غلامك هذا .. وسأترك عندك أحد غلمان الأمير يقدم لك الجراب اذا دعت الحاجه اليه »

ففهم الطبيب مراده فوافقه ، فدفعت لمياء الجراب اليه وخرجت مع يعقوب وركبتاها ترتعدان من هول ما سمعته ورأته ، وعيناها شائعتان خارج المعسكر تبحث عن أبى حامد وسالم فلم تعثر لهما على أثر ..

ولاحظ يعقوب قلقها .. وأدرك ما يجول فى خاطرها ، فأشار اليها أن تتبعه . فوقفت وهى تكاد تسقط من شدة الاضطراب والغضب وقالت : « لا أستطيع المشى ياسيدى .. بالله ماذا رأيت ؟ الويل لذلك الخائن .. »

فالتفت يعقوب اليها فوجد وجهها قد امتقع وتغيرت سحنتها ومشت وهى تتساند وتخشى السقوط .. فأشار الى السائس أن يقدم الدابة فأسرع الى تقديمها وأعانها حتى ركبت ، وركب هو على دابة أخرى فى أثرها ، ولاحظ فى أثناء الطريق ان لمياء منزعجة .. فأحس انه مسئول عن سبب انزعاجها لأنه هو الذى جمعها بذلك الخائن ، واذا أصابها سوء فمن شدة تأثرها مما سمعته ورأته ..

وبعد قليل وصلا الى منزل المعلم يعقوب ، فترجل والتفت الى

لمياء فاذا هى لا تزال على بغلتها لا تتحرك.. ولم يعهد فيها ذلك التوانى ، فتقدم نحوها ومد يده ليعينها على النزول . ولما لمست يده أحس بسخونتها وجفافها ، فاقشعر بدنه .. وطلب اليها أن تنزل فنزلت وهى لا تستطيع حراكا ، فنادى بعض الخدم فأعانوه على حملها الى دار النساء وهى غائبة عن رشدها كالميتة

فتأسف يعقوب لما أصابها ونادى قهرمانة منزله ، وأشار اليها أن تسعف الفتاة بالتدابير العاجلة ريثما يأتى الطبيب . وبعث رجلا يدعو الطبيب شالوم ، اذ لم يكن يريد أن يعرف أحد غيره أنها عنده ..

ظلت لمياء غائبةعن الوعى رغم مااستخدموه فى ايقاظها من المنعشات والمنبهات ، وأبطأ الطبيب عن الحضور لاشتغاله بالأمير كافور ، فاشتد القلق بيعقوب وأصبح لايدرى ماذا يعمل ، فخطر له أن يطلع الشريف مسلم على حالها لأنه ذو شأن فى الأمر ، فبعث اليه وقد أظلم الظلام .. فجاء ولمياء لا تزال على تلك الحال ، فسأله عن أمرها فقص عليه حقيقة خبرها . فجس نبضها فاذا هو يسرع كثيرا فعلم انها مصابة بحمى شديدة ، ورأى أن ينقلها الى منزله ليخدمها أهله ريثما يأتى الطبيب ، ويرى ماذا يكون ، وكان قد استلطف الفتاة قبل أن يطلع على حقيقة أمرها مع الحسين بن جوهر وغيرتها على المعز وخبرها مع سالم ، فلما اطلع على الحقيقة أحس بعطف شديد نحوها

وأمر بمحفة حملوها عليها الى منزله ، وأخذ على عاتقه أن يعالجها طبيب منزله ..

– ٦٠ –

الحلم

قضت لمياء فى تلك الغيبوبة أياما لا تأكل ولا تشرب غير ما يسقونها اياه رغم ارادتها .. ثم أفاقت وقد شحب لونها وبان الضعف فى عينيها ، وحالما أفاقت التفتت الى ما حولها وقد استغربت كل شيء .. لكن الناظر فى عينيها كان يرى انها لا تزال ضائعة رغم حركتها والتفاتها .. وكان فى الغرفة حينذاك الشريف مسلم نفسه وامرأة من أهله ، فتقدمت المرأة نحوها وقالت : « ماذا تريدين ياحبيبتى ؟ »

فلم تجبها .. لكنها عادت الى استغراقها .. وكانوا قد أعدوا لها لبنا تشربه فلم تستطع ذلك لأنها عادت الى النوم ، فأمر الطبيب أن تسقى اللبن كرها . وكانت الحمى قد انخفضت والغيبوبة هذه المرة لم يطل بقاؤها .. وفى صباح اليوم التالى سمعوها تئن أنينا شديدا كأنها تشكو ضيقا . فأسرع مسلم اليها فسمعها تقول بأعلى صوتها : «حسين ! حسين ! تبا لهم قبضوا عليك .. دعوه قبحكم الله .. أما كفاكم مافعلتموه بأبى ؟.. آه آه ..» وسكتت ثم فتحت عينيها فجأة والتفتت الى مسلم وهو واقف الى جانبها وتفرست فيه ، وقد عاد اليها رشدها ، فعرفته فقالت : « العفو ياسيدى.. انت هنا ؟ أين أنا ؟ ماذا جرى لى ؟.. أين الحسين ؟ قد قبضوا عليه ؟ ويل لهم » وشرقت بدموعها

ثم تراجعت ، وكأنها فطنت الى انها فى يقظة ، وليس هناك

حسين فخجلت ، فتقدم الشريف نحوها بلطف وقال لها : « ما بالك يابنية ؟ انك تهذين أو تحلمين .. لا تخافى ، انك فى منزلى ، وأنت أعز من أبنائى .. »

فأخذت تفرك عينيها بكلتا يديها ، وهى تنظر الى ماحولها ، وقالت : « لست خائفة ياسيدى .. لست خائفة .. ولكن الحسين ابن جوهر ، رأيتهم أخرجوه مغلولا فى فج الأخيار .. وأولئك اللصوص حوله كالزبانية .. رأيتهم رأى العين »

فقال الشريف : « أنت يا لمياء فى الفسطاط .. وبيننا وبين فج الأخيار عدة أيام .. خففى عنك .. وعودى الى رشدك .. لابأس عليك . وبعد هنيهة يأتى الطبيب ويشير بما يجب أن تفعلى »

قالت لمياء : « الطبيب ! وأى طبيب ؟ انى لا أشكو مرضا ولكننى أشكو ظلما وخيانة » قالت ذلك وغصت بريقها وأغرقت فى البكاء حتى ملأ نحيبها الدار . فبعث الشريف يتعجل الطبيب فأتى والفتاة مستغرقة فى البكاء ، فجس نبضها ثم أشار عليهم أن لايخاطبوها ، ولا يقصوا عليها خبرا .. بل يكتفوا بالغذاء الخفيف . ووصف لهم ما ينبغى عمله .. ولكنه ألح عليهم أن يتركوها هادئة ساكنة بقدر الامكان

ظلت لمياء فى الفراش عدة أسابيع لايخاطبها أحد الا عند الضرورة ، وهى تصحو تارة وتغيب أخرى ، والطبيب يتردد عليها ويصف الأدوية والأغذية حسب الحاجة .. ويعقوب يأتى كل يوم للسؤال عنها ويأسف أشد الأسف لما أصابها على يده .. رغم اشتغاله فى تلك الأثناء بأمور ذات شأن أهمها : موت كافور ، وانتقال الامارة الى أحمد بن على بن الاخشيد .. وهو

غلام لم يتجاوز الحادية عشرة . وتحول النفوذ الى جعفر بن الفرات وزير كافور المتقدم ذكره . ولم يكن ابن الفرات يستطيع عملا فى حياة كافور ، فلما صارت الامارة الى ذلك الغلام استبد هو بالأمر وأخذ فى مطاردة رجال الدولة ومصادرة أموال الأغنياء .. وكان يعقوب من جملة المهددين ، وخشى أن يصل الدور اليه فاستتر . وكان يقضى أكثر أوقاته عند الشريف مسلم ابن عبيد الله المشار اليه بحجة السؤال عن لمياء ، ويتحادثان فى شئون الدولة ويرون قرب سقوطها .. لكنهما لا يتحدثان فى شىء من ذلك أمام لمياء عملا باشارة الطبيب

وبعد مدة شعرت لمياء بتقدم فى صحتها ، وأصبحت فى شوق الى استطلاع الأحوال ، والطبيب يأمرها أن تلزم الصمت .. وبعد مدة أخرى أذن لهم أن يخاطبوها فى الشئون التى تريدها . وكانت لا تزال تتردد الى الفراش ، أو تنزل الى الحديقة ، أو تمشى فى المنزل . ورأت وجهها فى المرآة فانزعجت مما صارت اليه من الضعف فبكت ، ثم عاد اليها رشدها ، فتذكرت ما انتابها فى تلك المدينة ، وكيف خلفت أهل القيروان على مثل الجمر فى انتظار أخبارها من مصر . وتذكرت انها رأت الحسن خطيبها مغلولا أو رأتهم يوثقونه ويضربونه كأنها رأت ذلك فى يقظة

كانت هذه الخواطر تمر بذهنها فى أواخر أيام النقاهة ، وهى لا تجسر على مفاتحة أحد بها . فلما أذن لها الطبيب بذلك طلبت يعقوب وسألته عما جرى فى أثناء مرضها .. فقص عليها ما كان من موت كافور وتنصيب أحمد بن على

فقالت لمياء : « ألم تبعثوا بذلك الى القيروان ؟ »

فابتسم يعقوب . ونظر الى مسلم ، فابتسم أيضا ..

فقالت : « ما الخبر ؟ »

قال يعقوب : « الخبر خير يا لمياء .. ان أهل القيروان علموا بكل ما جرى هنا ، وقد جاءوا الينا بخيلهم ومعداتهم »

فصاحت : « أتوا الى هنا ؟ القائد جوهر أتى ؟ أين هم ؟ »

فقال يعقوب : « المعز لم يأت ولكن القائد جوهر جاء بجند كثير ونزل الاسكندرية ، فوقع الرعب فى قلوب المصريين .. ولا ندرى ماذا يكون »

فأطرقت لمياء وقد بان الشر فى محياها وأحست بنشاطها الأول ، كأنها كانت فى نوم وأفاقت . وتذكرت مهمتها التى جاءت من أجلها وانها لم تستطع عملا تخدم به المعز لأن المرض أعاقها . وتذكرت للحال ما رأته من سالم فاقشعر بدنها فقالت : « وماذا جرى لذلك الخائن وعمه ؟ »

قال يعقوب : « لا أدرى .. لأنى لم أعد أراهما منذ تلك الجلسة ، وأظنهما يعملان على دس الدسائس فى قصر السيدة زينب بنت الاخشيد بعد موت كافور وضياع أملهما »

فلما سمعت اسم بنت الاخشيد ، تذكرت أشياء أخرى أهاجت أشجانها ، فأطرقت ومسلم ويعقوب يلاحظانها ولا يتكلمان . ثم انتبهت فجأة ، وقالت : « ماذا جرى بأمتعتى وجوادى ؟ »

قال يعقوب : « أى أمتعة تعنين ؟ »

قالت لمياء : « أعنى ماحملته معى من الثياب والأمتعة من

القيروان وتركته فى الفندق مع الجواد والخادم والدليل »

قال يعقوب : « أى فندق ؟.. ان الفنادق كثيرة هنا .. »

فقالت لمياء : « فى الفندق الذى أهدانى صاحبه الى منزلك»

قال يعقوب : « لم أنتبه له »

قالت لمياء : « أنا أعرفه .. وقد آن لى أن أخرج من البيت ولا خوف علىّ .. أخرج بالثوب الذى يعرفنى صاحب الفندق به فألاقيه وأدفع له أجرته وآتى بالأمتعة .. والحق يقال انى أحس بتقصيرى فى خدمة أمير المؤمنين .. وقد شغلت عن خدمته بخدمة نفسى ، ثم شغلنى المرض »

قالت ذلك ووقفت ، وقد عاد اليها نشاطها ، والتفتت الى مسلم وعيناها تنطقان بالشكر على ما أبداه من الغيرة . فأجابها على الفور : « انك ستعودين الينا وتنزلين فى دارنا .. أو الأفضل أن تمكثى هنا ونرسل من يأتى اليك بالأمتعة والجواد »

قالت لمياء : « بل أفضل الذهاب بنفسى .. وسأعود الليلة أو فى صباح الغد ان شاء الله »

فقال مسلم : « بل تأتين الليلة »

— ٦١ —

فى اليقظة

فأشارت مطيعة ، واختلت فى غرفة.لبست فيها ثوب الصقالبة الذى دخلت به الفسطاط ، واستأذنت فى الانصراف وخرجت وهى تذكر الطريق التى جاءت منها ، وتتوهم أنها مرت فى تلك

الطريق منذ بضعة أيام ، وقد مر على ذلك عدة أشهر .. وصلت الى الفندق فرآها صاحبه وقابلها بالترحاب ، وأبدى غاية الدهشة لما رآها فيه من الضعف .. وسألها عن سبب غيابها ، وأخبرها أنه شغل عليها كثيرا حتى خشى أن تكون قد ماتت .. قال ذلك بين الجد والهزل ..

فاستلطفت مجونه وقالت : « الحمد لله انى لا أزال حيا (لأنه يعرفها غلاما صقليا).. ولو مت .. ما الذى كنت تصنعه بالجواد؟»

قال صاحب الفندق : « أى جواد ياسيدى ؟ »

قالت لمياء : « الجواد الذى جئت عليه »

قال صاحب الفندق : « ان الجواد أخذه رفيقاك ومضيا.. » يعنى الدليل والخادم ..

قالت لمياء : « وكيف أذنت بذهابهما ؟ »

قال صاحب الفندق : « لما استبطأ قدومك استأذنا فى الانصراف » وضحك لهذا التعبير

فقالت لمياء : « وماذا فعلتم بثيابى وأمتعتى ؟ »

قال صاحب الفندق : « هى باقية فى الغرفة التى كنت نازلا فيها ، وهى فى صندوق مقفل .. ولكن جاء بعض المسافرين واستأجروا الغرفة منى ، فأبقيت الصندوق فى أحد جوانبها على ما أظن »

قالت لمياء : « أعطنى الأمتعة .. أين هى ؟ »

قال صاحب الفندق : « هى هنا .. تفضل ياسيدى » ومشى نحو الغرفة التى باتت فيها ليلة وصولها الى الفسطاط ، وهى

على الحسين .. ! »

فلما سمعت لمياء ذكر الحسين اختلج قلبها وتسارعت دقاته حتى شوشت عليها سماع الحديث ، فاذا سالم يقول : « قبضوا على الحسين ؟ لا لم أعلم بذلك بعد .. أين قبضوا عليه ؟ »

قال أبو حامد : « فى فج الأخيار .. لأن لمياء اللعينة أفشت السر وأخبرت المعز بوجود المال هناك ، فتطوع هو بالذهاب ليحمل ذلك المال اليهم .. وجاءنى الرسول أمس وأخبرنى أن رجالنا هناك قبضوا عليه وأوثقوه ، وقد سألنى عما يفعلونه به .. فطلبت اليه أن يحملوه الى هنا .. فاذا جاء حبسناه وجعلناه رهنا .. ما قولك ؟ »

فقال سالم : « لم أكن أعلم ذلك .. بارك الله فيك .. كيف لم تخبرنى به حتى الآن .. ؟ »

قال أبو حامد : « لأنى لا أثق بأحد ، ولو لم أتحقق من خوفك لم أخبرك به .. لكننى لم أعلم أين ذهبت تلك الفتاة المفتونة ، فقد أخبرنى الجواسيس أنها خرجت من القيروان .. ولكنى لم أعلم الى أين ، لأنها أخفت جهة مسيرها .. »

قال سالم : « ما ظنك بها ؟ »

قال أبو حامد : « أظنها أتت الى هنا لأن يعقوب اليهودى هو الذى أنبأ المعز بعزمنا على قتله فنجا بذلك . ويغلب على ظنى أن لمياء أتت الى الفسطاط ، لكننى لم أستطع البحث عنها فى حياة كافور لأنه كان يقرب ذلك اليهودى ويصغى اليه . أما الآن وقد مات كافور ، فانى أوغرت صدر ابن الفرات عليه ..

فأصبح يطارده ولا يلبث أن يصادر أمواله .. وهو يسعى الآن فى اقناع القواد بالاستسلام لجوهر .. ولكنه لن يفلح لأنهم مختلفون لا رابطة بينهم ، وكل منهم يطمع فى المال لنفسه ، وهم طوائف أهمها الاخشيدية والكافورية والأتراك وليس عليهم أمير حازم يجمع كلمتهم . وفى عزمى أن أجمع شتاتهم بواسطة السيدة زينب بنت الاخشيد لأنها كانت نافذة الكلمة عليهم ، لكنها امرأة ولا تعلم كيف تعمل ، فضلا عن اشتغالها بأمر نفسها .. لا تخف يابنى ، كن على ثقة من تدبيرى »

وكانت لمياء تسمع كلامه وفرائصها ترتعد فاذا بسالم يقول : « قد أدهشتنى يا عماه بهذا التدبير .. بارك الله فيك »

فقال أبو حامد : « كيف لا وقد قضيت عمرى فى دس الدسائس ، عملا بوصية ذلك المقتول ظلما . انى منتقم له .. اطمئن ، ولكن تلك الملعونة أين ذهبت ؟ .. لست أدرى »

قال سالم : « مالنا ولها ؟ .. فلتكن حيثما شاءت .. »

وتلت ذلك فترة صمت .. وكأن الرجلين ناما ، وأخذت تفكر فيما سمعته ، فرأت انها اطلعت على أشياء كثيرة لم تكن تعرفها وخاصة أمر الحسين والقبض عليه ، وان المصريين يسعون فى مصالحة جوهر والتسليم له ، وان الأمر موقوف على بنت الاخشيد . وقد صدقت انهم قبضوا على الحسين لأنها رأت ذلك رأى العين فى أثناء الغيبوبة. فلم تعد تستطيع البقاء هناك واحتالت على الخروج فلقيها صاحب الفندق فسألته عن الثياب فقال : «هل أتى الضيوف؟» قالت : « أظنهم أتوا لأنى سمعت حركة»

فقال : « قبحهم الله.. يدخلون كاللصوص ؟» وأسرع وعاد اليها بالثياب . فتناولتها ودفعت اليه أجره ، وانطلقت تطلب بيت الشريف مسلم بن عبيدالله . وكان الليل قد أسدل ستاره فأسرعت حتى وصلت فرأت الخيول متزاحمة أمام البيت ، والناس وقوف بالباب فاستأذنت فى الدخول فأذن لها ، وسألت عن الشريف فقيل لها انه فى خلوة مع جعفر بن الفرات .. فجلست وهى فى غاية الاضطراب ، وأصبحت فى شوق لمعرفة ما يدور بين الرجلين

- ٦٢ -

الصلح

وبينما هى جالسة ، اذ رأت جماعة عليهم ملابس المصريين الوطنيين من التجار والمزارعين ، وقد تجمعوا أزواجا وأثلاثا وهم يتذمرون ويتأوهون.. وسمعت أحدهم يقول: «مالنا وللحروب ، لقد خربت البلاد واختنق الناس من القحط والغلاء حتى فرغت أيدينا من النقود ، وهؤلاء الجند لايزيدوننا الا فى قيمة الضرائب.. وهم منعمون لايهمهم الا أخذ الأموال. انهم معذورون طبعا اذا خافوا على سيادتهم ، وأحبوا أن يحاربوا أولئك المغاربة »

فأجابه آخر : « مالنا ولهم ؟ .. الصلح أفضل لنا .. وهذا الوزير قد وافقنا على طلب الصلح . ان هــذه الدولة الجديدة رشيدة وقد سمعت الثناء على خليفتها ، وأنه زاهد فى الأموال يعمل على اسعاد رعيته »

فتقدم ثالث وقال : « وقد بلغنى ان هــذا الجند قادم الينا

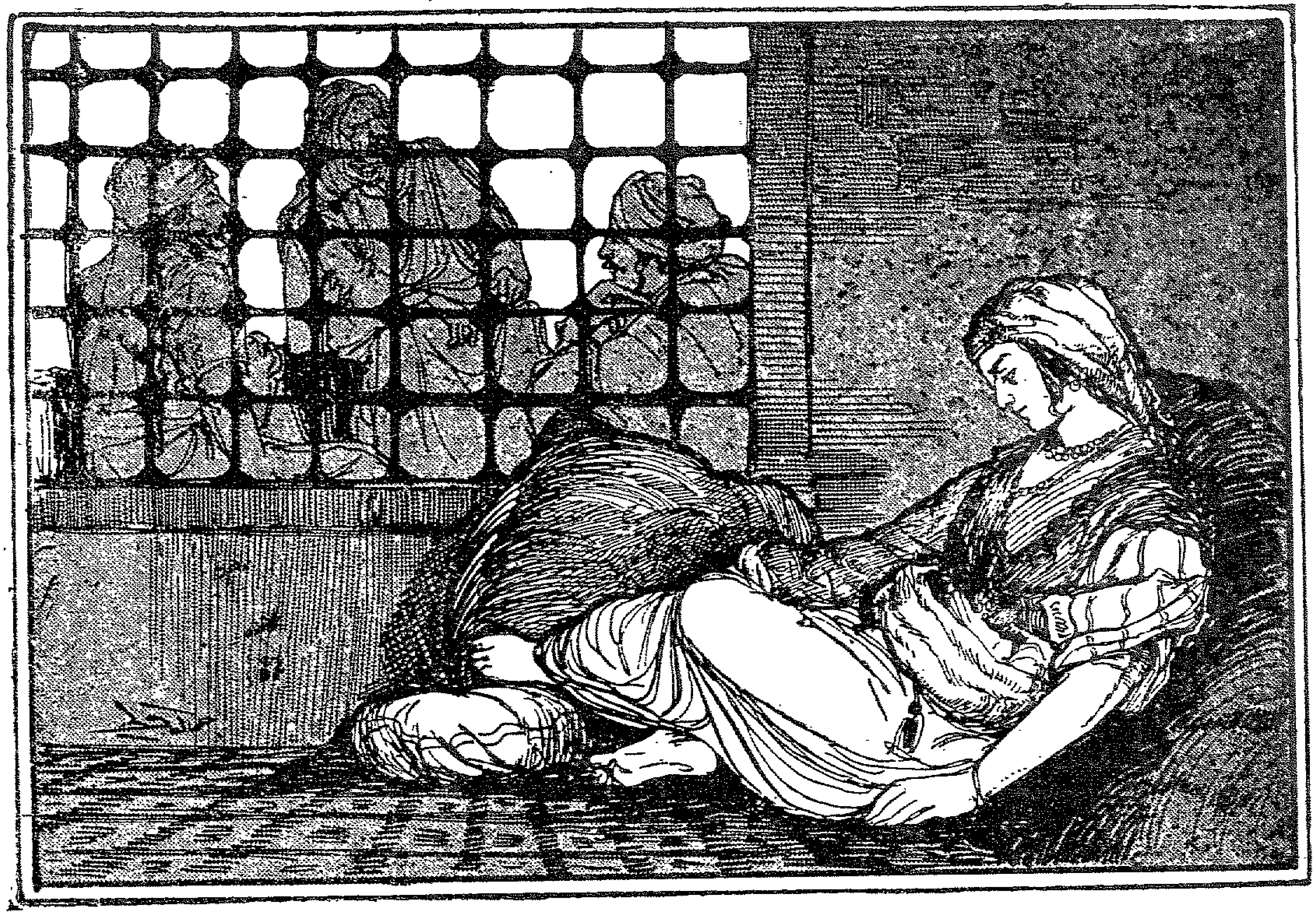

« .. وسمعت احدهم يقول : مالنا وللحروب ؟ .. لقد خربت البلاد
واختنق الناس من فرط القحط والغلاء ، حتى فرغت ايدينا من النقود .. »

وقد حمل أثقالا من الذهب على الجمال .. أين ذلك من اغتصاب جندنا وحكومتنا لأموالنا ؟ »

ثم سمعت رجلا يضحك وفى وجهه هيأة المجون وقال : « كيف تدعون الفقر ياقوم ؟ .. أليست الأموال مخزونة فى بيت الاخشيدية والكافورية ؟ هذه بنت الاخشيد قد فرشت منزلها بما لم تبلغ اليه زبيدة زوج الرشيد وعندها الجوارى بالمئات .. وتقولون مع ذلك اننا فقراء ؟ » .. فضحك الجميع من مجونه ، ثم شغلوا بحركة وضوضاء ظهرت هناك ، فالتفتت لمياء فرأت ابن الفرات خارجا ، وقد خرج الشريف مسلم لوداعه وابن الفرات يبالغ فى احترامه والثناء عليه . ولما ودعه ، قال ابن الفرات : « أتعدنى ياسيدى بالذهاب غدا الى الاسكندرية ؟ »

قال الشريف : «كن مطمئنا .. انى سأبذل أقصى الجهد فى اقناع القائد أن يقبل الصلح ، وأنا ضامن ذلك باذن الله ..»

ففهمت أن ابن الفرات يسعى فى الصلح .. وتذكرت ماسمعته من أبى حامد فى هذا الشأن . وأرادت أن تخاطب الشريف فرأته قد تحول الى غرفته كأنه فى شاغل عن المقابلات ، فأجلت مقابلته الى فرصة أخرى وذهبت الى دار الحريم .. وكانت قد تعبت فاستلقت على الفراش ، ومالت الى الخلوة .. وأخذت تفكر فيما سمعته ، فغلب عليها النوم فنامت رغم ارادتها

ولم تستيقظ الا فى الصباح على ضوضاء القوم فى الدار ، فنهضت وسألت عن الشريف فقيل لها انه سافر الى الاسكندرية

مع وفد من أعيان المصريين ، ومعه كتاب الوزير ابن الفرات فى طلب الصلح (١)

أما هى فانها ظلت فى قلق لما علمته من مساعى أبى حامد ، وأسفت لأنها لم تستطع مقابلة مسلم قبل ذهابه . وبينما هى فى ذلك اذ رأت يعقوب داخلا ، فأحست براحة وأسرعت اليه .. فلما رآها هش لها وتقدم نحوها ، فأومأت اليه أن يجلس وقصت عليه ما سمعته بالأمس .. فاستغرب قولها ، وأدهشه عزم أبى حامد وما دبره فقالت : « لا حاجة بى أن أخبرك عما هو أهم مما قصصت عليك »

قال يعقوب : « أما من حيث الحسين ، فاذا صح ما قالوه عنه وانه آت الى هنا فهو فى مأمن ولا شك .. ان ذلك الغادر مغرور » ثم أطرق وهو يحك أنفه وقال : « ولكن .. » وسكت

فقالت لمياء : « ولكن ماذا ؟ هل أستطيع أن أعمل شيئا ؟.. انى أشعر بتقصير فى أداء مهمتى لأنى شغلت بنفسى عن خدمة مولاى المعز ، ما بالك ؟ قل .. »

قال يعقوب : « فهمت من حديثك ان ذلك الملعون يهدد سعينا فى الصلح بدسائسه عند بنت الاخشيد .. ولا سبيل لى الى هناك وأنا رجل ، فلا أستطيع التنكر .. »

فأدركت انه يلمح الى أنها تستطيع ذلك لأنها فتاة ، فأطرقت ثم قالت : « هل أقدر أنا على ذلك ؟ »

قال يعقوب : « طبعا .. ولكن .. »

(١) ابن خلكان ١١٩ — الجزء الاول

قالت لمياء : « ماذا ؟ .. قل .. قد أدركت الآن مركز بنت الاخشيد فى هـذه الدولة ، ويظهر ان الجميع يثقون بها رغم ما بلغنا من تهتكها وانغماسها فى الملذات .. فما الذى ترى أننى أستطيع أن أفعله ؟ »

قال يعقوب : « أرى أن تدخـلى دار بنت الأخشيـد .. وتتسلطى على عقلها حتى تصير أطوع لك من بنانك »

فعلمت انها لابد لها من التجسس وهى أكبر نفسا من ذلك فتوقفت عن الجواب لحظة وهى تنظر فى مرآة معلقة فى الحائط أعجبها شكلها لأنها من صنع مصر ، ولم تكن قد رأت مثلها من قبـل .. كانت تنظر الى المرآة وهى تفكر فى أمر تنكرها ، فابتدرها يعقوب قائلا : « لا ترددى يابنيّة .. اذا كنت تحبين المعز وتريدين الفوز لجوهر .. فالأمر فى يدك ، ولا يستطيع أن يحققه سواك .. »

فلما سمعت قوله ، تحمّست وهان عليها كل صعب ، فقالت : « روحى فداء أمير المؤمنين ، وأحسب انى مت فى مرضى هذا .. فما العمل ؟ »

قال يعقوب : « هل تعلمـين شغف بنت الاخشـيد باقتناء الجوارى الحسان ؟ »

فقالت لمياء : « نعم أعلم ذلك »

قال يعقوب : أرى أن تتنكرى فى ثوب جارية مغربية وأن أقدمك هدية لبنت الاخشيد .. ولا ريب عنـدى انها ما أن تخاطبك حتى تستسلم لرأيك .. والأمر بعد ذلك لفطنتك »

فنهضت وقالت : « أنا مستعدة للذهاب ، من يأخذنى ؟.. وكيف أصنع ؟ »

قال يعقوب « تمهلى .. انى عائد بعد قليل ، وانما أرجو أن تلبسى ثوبا مثل أثواب الجوارى .. » قال ذلك وخرج

فأصلحت شعرها ، وغيرت هندامها ، حتى أصبح من يراها لا يشك فى انها جارية ، وقد زادها الضعف جمالا وهيبة . ثم جاء يعقوب ومعه رجل عرفت انه تاجر الرقيق الذى قبضوا عليه فى القيروان ، ووقف بين يدى المعز واعترف انه جاء ليبتاع جوارى لبنت الاخشيد فتجاهلت

ثم تقدم يعقوب وقال : « هذه هى الجارية ياسيدى .. كيف تراها ؟ »

قال الرجل : « لا بأس بها »

فضحك يعقوب وقال : « لا تقل لا بأس .. بل قل انها جميلة ، وأظنها تعجب مولاتنا كثيرا نظرا لما فطرت عليه من الذكاء والأدب فضلا عن الجمال »

فقال الرجل : « ما اسمها ؟.. وكم ثمنها ؟ »

قال يعقوب : « اسمها سلامة ، وأما الثمن فانى لا أتاجر بالرقيق كما قلت لك ، وانما أردت أن أفعل ذلك خدمة لمولاتنا . خذها اليها ويكفينى أن تقبل هذه الهدية منى . ولكن هذه الفتاة عزيزة علىّ لأنى أعرف منشأها ، فلا ينبغى أن تعامل مثل سائر الجوارى .. أوص السيدة بنت الاخشيد بذلك اذا شئت »

قال : « سأفعل » وأشار الى لمياء فتبعته وهى تتجلد

- ٦٣ -

بنت الاخشيد ولمياء

وكانت بنت الاخشيد تقيم فى قصر قرب دار عبد العزيز أكبر دور الفسطاط ، وقد تقدم ذكرها.. وتحدثنا عما فيها من الغرف وعدد من فيها من الناس ، وهى تقع على ضفة النيل الشرقية ، يقابلها فى الغرب جزيرة الروضة . وقصر بنت الاخشيد فخم يطل على النيل ، قد فرش بأثمن الرياش . والدولة الاخشيدية يومئذ فى ابان بذخها ، تقلد العباسيين بما فى دورهم من الرياش الفاخر والأثاث الثمين ، والأبسطة المطرزة والستائر المزركشة قد شدت الى الجدران بمسامير الفضة ، وغرف النوم فيها أسرّة من الذهب أو الأبنوس المطعم بالعاج .. ونصبوا منائر الفضة عليها العنبرية اذا أوقدت فاحت رائحتها حتى تملأ الفضاء .

فلا غرو اذا دهشت لمياء عند دخولها ذلك القصر بعد أن رأت بساطة دار المعز فى القيروان . وكانت تحسب دار أبيها فى سجلماسة قبل سقوط دولته قد بلغت أرقى أحوال الحضارة ، فاذا هى لا تعد شيئا بالنسبة الى دور الاخشيديين وخصوصا هذه الدار ، لأن بنت الاخشيد كانت لفرط اعجابها بنفسها تقلد نساء الخلفاء العباسيين فى البذخ والترف .. ولاسيما زبيدة زوج الرشيد ، فقلدتها باصطناع تحف من الفضة والأبنوس والصندل وكلاليبها من الذهب ملبسة بالوشى والسمور

والديباج الأحمر والأصفر والأخضر والأزرق (١) ، رغم ما كانت عليه البلاد من الضيق ..

تلك كانت طريقة الحكام فى تلك الأيام ، ولا سيما فى أواخر الدولة .. انما يهم الحـاكم أن يجمع المـال لنفسـه ويتلـذذ بالشهوات ، وقد يبلغ من تمتعه بالملذات أن يموت من التخمة والرعايا حوله يموتون من الجوع ..

وكانت بنت الاخشيد فى حدود الكهولة تظهر لأول وهلة انها قوية الخلق وهى فى الحقيقة ضعيفة الرأى ، لكنها جسورة لا تبالى بما تفعل ولا تقدر العواقب ، وكانت مثالا لطبقة المترفين من أهل ذلك العصر ، لا يفوتها ضرب من ضروب الملذات . وكانت وجيهة نافذة الكلمة ، ليس بين رجال الدولة من لايخشى بأسها ولا سيما فى تلك السنة ، وقد مات كافور وصارت الأمور الى أحمد بن على حفيد أخيها وهو غلام .. فأصبح طبعا طوع ارادتها هو وكل رجال دولته الا جعفر بن الفرات : فقد أحب أن يستأثر بالنفوذ فأغضبها وأغضبـته .. فمال مع الأهلين الى التسليم لجوهر قائد جند المعز . وأما سائر الجند فكانوا يلتمسون رضاها ولا يبرمون أمرا الا برأيها ..

وكانت جميلة ، لا تزال الملامح التركية ظاهرة على محياها ، لأن أباها فرغانى . ويظهر أنها لم تتزوج رغبة فى استبقاء عصمتها فى يدها ، فانصرفت بكل مشاعرها الى التمتع بالحياة والتماس النفوذ والشهرة ، فجعلت قصرها مقصدا لرجال الدولة . وكانت

(١) المسعودى ٣٦٦ ــ الجزءالاول

فى تلك الأثناء مشغولة الخاطر لما بلغها من عزم المصريين على التسليم ومعهم ابن الفرات ، لكنها لم تكن تتوقع حدوث ذلك فعلا اذ لم تكن على بيّنة من حقيقة حال المواطنين ، ولا مقدار ما بلغوا اليه من الضنك . ولم يخطر لها انهم يجسرون على مخابرة الأعداء ، وكان ينبغى أن لايفوتها ذلك .. ولكن حكام ذلك العصر لم يكونوا يحسبون للأمة حسـابا ، وانما يهمهم ابتزاز أموالها

أصبحت بنت الاخشيد فى ذلك اليوم ، وهى تتوقع أن يأتى رجال الدولة يشكون اليها ما فعله ابن الفرات . وقبل نهوضها من الفراش أتتها المواشط والولائد يخدمنها فيما تحتاج اليه من الغسل أو ارتداء الثياب أو تسريح الشعر وتصفيفه .. قضَين فى ذلك ساعة وهن يتسابقن الىاسترضائها بالاطراء أو المجون . وبينما هى فى ذلك اذ أتتها جارية تقول : « ان صاحب الرقيق يستأذن فى مقابلة مولاتى »

قالت بنت الاخشيد : « دعيه ينتظر فى البهو الكبير ريثما أخرج .. وهل هو وحده ؟ »

قالت الجارية : « معه فتاة لعلها جارية »

قالت بنت الاخشيد : « جارية سوداء ؟ »

قالت الجارية : « كلا .. بل جارية بيضاء جميلة ، لم أشهـد مثلها قبل الآن .. »

فاهتمت بنت الأخشيد بذلك الخبر ، وأمرت المـاشطة أن تسرع فى معاونتها على ارتداء ملابسها ..

أما لمياء فكانت قد أقبلت مع ذلك النخاس على قصر بنت

الاخشيد ، وهو يمتاز بفخامة بنائه وبوقوف الحجاب ببابه .. فمرت اليه فى حديقة طرقها مرصوفة بالحصى الملونة على أشكال الطير والوحوش، فتقدمها النخاس وهى تتبعه الى داخل باب القصر ثم الى ردهة واسعة فرشت بالسجاد . وبعض السجاجيد عليها وشى جميل بأشكال الزهور أو بعض الحيوانات أو أبيات من الشعر. فاستقبلتها القهرمانة قيّمة القصر وعليها الأساور والدمالج ، وحول عنقها العقود حتى تكاد تنوء تحت ثقلها .. فقالت لمياء فى نفسها : « اذا كانت هذه القيّمة .. فكيف تكون السيدة ؟»

فدعتهما القهرمانة الى بهو الاستقبال ، فدخلا ولمياء تزداد شوقا لمشاهدة بنت الاخشيد .. وذهبت القيّمة لابلاغ الخبر

وبعد قليل أقبلت السيدة وهى تجر رداءها الوردى وراءها ، وعلى رأسها عصابة مرصعة قلدت بها العالية أخت الرشيد ، وصففت شعرها تصفيفا خاصا لا يجسر أحد من أهل الفسطاط على تقليده ، وشبكته باكليل من الذهب بصورة طائر .. وتمنطقت بمنطقة مزركشة لها عروة مرصعة على شكل الكروبيم قلدوا به بعض ما على الآثار المصرية من الرسوم . وأدركت لمياء قدومها من حركة الخدم فى الدهليز ومما تضوع من الطيب ، فوقفت ووقف النخاس وتقدم حتى أكب على يد الأميرة كأنه يقبّلها ، وفعلت لمياء مثل فعله فظهر التكلف فى حركاتها لأنها لم تتعود مثل ذلك ..

ولما رأتها بنت الاخشيد وقعت من نفسها موقعا جميلا ، وأعجبها ما فى عينيها من المعانى السحرية .. وقد زادها الضعف

سحرا . فتقدمت الى لمياء ووضعت يدها على كتفها كأنها تحاول ضمها .. فاستأنست لمياء بها ، ووقفت مطرقة ، فأشارت اليها أن تجلس ، وجلست على مقعد من الأبنوس فرشه مكسو بالحرير وقالت : « من أين لك هذه الفتاة ؟ »

قال النخاس : « هذه هـدية من عبدك يعقوب بن كلس ، رآها لا تليق بأحد سواك نظرا لما هى عليه من الأدب والذكاء . وقد كلفنى أن أنوب عنه فى تقديمها »

فلمـا سمعت اسـم يعقـوب ، بدا على ملامحهـا شىء من الانقباض .. لكنها أظهرت الامتنان وقالت : « انها هدية نفيسة لا أظن يعقوب أهدى مثلها فى حياته ، فالظاهر انه يلتمس منـا خدمة بعد أن أغضب الوزير جعفر بن الفرات .. ان أولئـك اليهود أمرهم عجيب ، قد قبلنا هذه الهدية مع الشكر .. بارك الله فيك » قالت ذلك ومدت يدها فأخرجت خاتما من احدى أصابعها ودفعته اليه فتناوله وقبّله ومضى . وظلت لمياء صامتة وقد أدهشها ما رأته من التباين العظيم بين حال الأمة المصرية وحال حكامها أوأهلهم.. وقارنت بين بنت الاخشيد بمصر وأم الأمراء فى القيروان، وترجح عندها قرب سقوط هذه الدولة..وبينما هى فى ذلك، اذ أتى الحاجب فوقف قرب الباب فعلمت بنت الإخشيد انه يريد مخاطبتها فى أمر، فأومأت اليه فتقدم فقالت : «ماوراءك؟ »

قال : « ان بعض القواد الاخشيدية يلتمسون المقابلة »

فأظهرت استنكافها وقالت : « دعهم ينتظرون » ونهضت وأشارت الى لمياء أن تتبعها وسألتها : « ما اسمك ؟ »

فبغتت وأوشكت أن تقول اسمها الحقيقى فبلعت ريقها وقالت : « سلامة يا سيدتى »

فقالت بنت الاخشيد : « اسمك جميل » وصفقت ونادت القهرمانة فأتت فقالت لها : « كيف ترين هذه الفتاة المغربية ؟ »

فنظرت اليها وهى تبتسم وقالت : « ما شاء الله انها جديرة بأن تكون فى قصرك »

قالت بنت الاخشيد : « فاليك هى .. اختارى لها غرفة خاصة ولتسترح الآن .. »

فأشارت مطيعة ، وانصرفت لمياء تتبعها ، حتى أدخلتها غرفة بها نافذة تطل على النيل ، فاستأنست بمجرى الماء .. لكنها لم تأت الى ذلك القصر وتركب ذلك المركب الخشن لتتمتع بالمناظر الطبيعية ، فأخذت تفكر فيما ينبغى أن تفعل .. وتذكرت ان الحاجب أنبأ بنت الاخشيد وهى فى حضرتها عن قدوم بعض القواد لمشاهدتها .. وهى فرصة ينبغى أن لا تفوتها والوقت ضيق لا يأذن بالتأجيل ، فأخذت تفكر فى حيلة تمكنها من حضور تلك الجلسة لعلها تستطلع شيئا

— ٦٤ —

الطعام

واذا بالقهرمانة قد دخلت وهى تتهادى فى مشيتها تيها ، وتشمخ بأنفها عجبا .. ولما دنت من لمياء وقفت لها تأدبا ، فقالت القهرمانة : « يظهر انك وقعت من نفس مولاتنا موقعا جميلا لم

توفق اليه غادة قبلك » قالت ذلك وضحكت فبانت أسنانها متفرقة لأن الزمان ذهب بنصفها .. وكانت تلك القهرمانة جميلة فى صباها ، ولكن حياة الرخاء أسمنتها .. وداهمتها الشيخوخة فجعلت جلدها طيات يتقطر العرق من بينها.. واذا مشت خطوتين أحست بالتعب .. لكنها مع ذلك كانت خفيفة الروح ، فاستأنست لمياء بها وسرَّها ما سمعته من اعجاب بنت الاخشيد ؛ لأن ذلك يحقق ما ترجو الاطلاع عليه أو الوصول اليه فى سبيل خدمة المعز . فأطرقت وقالت : « ليس فتًى ما يدعو الى اعجاب سيدتى الأميرة .. ولكنها ربما أشفقت على الضعف الظاهر فى وجهى »

فقطعت القهرمانة كلامها قائلة : « ان هذا الضعف يزيدك جمالا ولطفا .. والآن فان مولاتنا الأميرة قد كلفتنى بأن أصلح من شأنك وآخذك اليها لتتناولى الغداء معها »

فشغلها ذلك التلطف عن التفكير فى أبى حامد ورفيقه . واشتغلت القهرمانة بالاصلاح من شأنها ، فأتتها بثوب من الحرير الناعم الملون نسيج مصر ، وعليه صور تأخذ بالأبصار وحوله منطقة مذهبة . وأخذت الماشطة فى اصلاح شعرها وتضفيره على نسق خاص .. فضايقها ذلك وتوسلت الى القهرمانة أن تعفيها من هذا التصفيف فأجابتها : « هكذا تريد مولاتنا » فقالت لمياء : « اسأليها لعلها تعفينى لأن ذلك يضر برأسى »

فمضت ثم عادت وهى تقول : « وهذا دليل آخر على حب مولاتنا لك ، فانها سمحت بأن تكونى كما تشائين .. وأن تسرعى فى الذهاب اليها فان المائدة قد أعدت »

فسرّحت شعرها بيدها تسريحا بسيطا وضفرته ضفيرتين أرسلتهما الى الوراء ، الا خصلا صغيرة أرسلتها على الصدغين ، وأبت الاكتحال أو التزجج ، وبين يديها جارية سوداء تحمل لها المرآة فنظرت الى وجهها فرأت انها أجمل مما كانت تظن . ثم مشت فى اثر القهرمانة فى دهليز يؤدى الى قاعة واسعة فى صدرها دكة مرتفعة قد نصبت عليها المائدة ، ويشرف الجالس اليها على ضفاف النيل فيرى السفن رائحة غادية ، ووراءها جزيرة الروضة وفيها الأبنية الفخمة ، وفى جملتها المقياس .. ووراء ذلك شاطىء الجيزة الى الأهرام ..

والقاعة مفروشة بالبسط والسجاد مثل أكثر غرف تلك الدار، غير الأرائك والوسائد والمقاعد ، وكلها مذهبة أو مطعمة .. وقد أرخيت الستائر المزخرفة على الجدران التى تكسوها .. ومنها ستارة فى عرض القاعة مرفوعة بأمراس من الحرير ترخى عند الحاجة فتحجب مجلس الأميرة عن سائر الجلوس . كانت هذه القاعة قد فرشت لعقد المجالس الكبرى ، فاذا حضرت بنت الاخشيد المجلس أرخت الستارة المشار اليها ودار الحديث أو المفاوضة ولا يراها أحد من الحضور . وأحبت أن تتناول طعامها فيها فى ذلك اليوم لأنها تشرف على النيل .. فوضعوا لها بجانب المائدة مقعدا مكسوا بالخز المطرز باسمها ، فجلست هى عليه والتفّت بملاءة كالمطرف من القطيفة الحريرية ، وقد طرزت بالقصب ورصّعت بالأحجار الكريمة بأشكال بديعة تمثل شجرا وطيورا وحيوانات أخرى ، وهى من جملة ما قلدت به نساء

العباسيين فى ابان بذخهم .. ولعلها قلدت بها بساطا لأم الخليفة ، كانت عليه رسوم مطرزة ومرصعة تمثل صور جميع الحيوانات من جميع الأجناس ، وصورة كل طـائر من ذهب وأعينها من يواقيت وجواهر (١)

دخلت لمياء وبنت الاخشيد متكئة على ذلك المقعد ، والمطرف على جنبيها يأخذ لمعانه بالأبصار والمائدة بجانبها عليها الأطعمة . وقد وقف الخدم من الجوارى يحملن الأطباق فيها الحلوى أو الفاكهة . وهن فى أجمل يكون من الأثواب وتصفيف الشعور الا لمياء فانها ظلت على بساطتها

فتقدمت القهرمانة أولا وأنبأت السيدة بنت الاخشيد بقدومها ودخلت سلاّمة « لمياء » وعليها ذلك الثوب الباهر الذى زاد وجهها اشراقا وهيبة . ولم تتمالك بنت الاخشيد عند دخولها عن الاعجاب بها ، ووسّعت لها مجلسا على المقعد .. ودعتها الى الجلوس بجانبها فجلست ، فرحّبت بها ، وقالت : « ان هدية ابن كلس اليوم قد كفّرت عن سيئاته وسيئات شيعته» وضمتها وقبّلتها ولمياء مطرقة وقد زادها الحياء وقارا .. والحياء من أجمل ما تزدان به المرأة ، بل هو أجمل أثواب زينتها الحقيقية ..

ثم طلبت بنت الاخشيـد الى لميـاء أن تتناول الغداء معها . وأشارت الى خادم بيده طبق أن يضعه على المائدة بين يديها ، وفيه سكباج فتناولت قطعـة وناولت لميـاء قطعة تشجيعا لها فأطاعتها ، وتناولت مما أعدّ من الألوان .. ولم يكن بينها شيء

(١) تاريخ التمدن الاسلامى ــ الجزء الخامس

لم تعرفه الا لونا فى جام أنكرته ولم تستلذ طعمه . ولاحظت بنت الاخشيد ذلك فقالت : « يظهر أنك لم تستطيبى هذا اللون مع ان الدرهم منه يكلف مئات الدنانير ، انه مصنوع من أدمغة نوع من الطير لايوجـد فى غير مصر ، ونحن ننفق فى جمعه الأموال الطائلة لأن دماغه كثير الغذاء .. واللقمة منه تغنى عن عدة أطباق من أطعمة أخرى »

ثم أمرت بالحلوى ، فأتوا بعشرات من أنواعها بين معاجين ومطبوخات وفاكهة . وكانوا يقدمون فى أثنــاء الطعام باقات الأزهار الطيبة الرائحة ، غير مايرشونه فى أرض القاعة من ماء الزهر أو العطر ، وما يحرقونه فى المباخر المنصوبة بين الأبواب من الند أو العود ..

وكان فى جملة ما قدموه على المــائدة ســائل محمر اللون « خمر » لم تعرفه لمياء ولا مدت يدها اليه ، بل هى حالما وقع بصرها عليه اقشعر بدنها لأنها تذكرت الشراب الذى ذهب بحياة أبيها .. على انها كانت تنظر الى ذلك كله بدهشة بالغة .. وتقابل بين ما كانت تراه من تقشف المعز وأم الأمراء والأموال عندهم فى الخزائن وسلطانهم فى ابانه ، وبين ذلك الرخاء والبــلاد فى ضيق والناس يتضوّرون جوعا ..

وكانت بنت الاخشيد تأكل بِنَهَم ولذة ، وتعجب لتعفف لمياء وتحسبها تفعــل ذلك بسبب علة ، لأنها تعودت أن ترى غاية الانسان فى دنياه أن يتمتع بالملــذات على اختــلاف أشكالها وضروبها .. ولا تتصور أن أحدا يمتنع عن لذة الا اذا عجز عن

نيلها ، ذلك شأن المنغمسين فى الشهوات وهم يكثرون فى أواخر الدولة قرب سقوطها .. اذ تذهب ملذاتهم العقلية أو الأدبية بذهاب مجدهم ونفوذهم ، فلا يبقى لهم غير الملذات البدنية .. فينصرفون اليها ، فلا تزيدهم الا ضعفا وانحطاطا .. ان ملذات الرجال فى أوائل الدولة تتركز فى النصر أو الفوز ، أو التسابق فى الفتح ، أو الظفر بالمناصب وتقويمها وتوسيع دائرتها ، لا تهمهم الملذات البدنية الا قليلا . فاذا ذهب المجد وأخذ أصحابه فى الضعف ، لا تبقى سوى هذه الملذات ..

أمرت بنت الاخشيد برفع المائدة ، وقد امتلأت معدتها ، وانتفخت عروقها ، وأسرعت نبضات قلبها .. وظهر ذلك فى عينيها ، واستلقت على ذلك المقعد . وأحبت لمياء أن تنتقل الى المقعد الآخر فأمسكتها وأقعدتها بجانبها ، وأخذت تحادثها .. فبدأت بالسؤال عن بلدها فقالت : « من أين أنت يا سلامة ؟ »

فلم تعرف ماذا تجيب لأنها لا تريد أن تكذب ولا أن تقول من هى ، فأجابت جوابا وسطا فقالت : « انى من افريقية .. بلاد المغرب »

فوقع اسم افريقية وقعا شديدا على سمعها لأنه شغلها الشاغل منذ عدة أشهر ، فتصاعد الدم الى وجهها .. لكنها تجاهلت وابتسمت وقالت : « ان افريقية واسعة ..-فمن أى قسم منها ؟»

فقالت لمياء : « ان الجوارى ياسيدتى لايطلب منهن معرفة أنسابهن لأنهن ينتسبن الى مواليهن .. فأنا الآن فى دار السيدة بنت الاخشيد ، وأنا أنتسب اليها وكفى »

فاستحسنت جوابها الدال على الذكاء ، وأحبت أن تغيِّر الحديث .. واذا بالحاجب قد دخل وقال : « القواد الاخشيدية لايزالون فى انتظار الاذن لهم بالمقابلة ياسيدتى .. »

فتأففت وهزّت رأسها وقالت : « اقلقوا راحتى بمقابلاتهم .. ماذا أصنع لهم ؟.. هذا أميرهم أحمد فليقابلوه .. » قالت ذلك ونظرت الى لمياء ..

فرأت لمياء أن لا تضيع هذه الفرصة ، فابتسمت مجاراة لبنت الاخشيد ، وقالت : « صـدقت ياسيدتى ان هـذه المقابلات تزعجك لكنك تعلمين ان الرأس كثير الأوجاع ، ولولا ثقتهم بتعقلك وسداد رأيك لم يطلبوا مقابلتك .. فاذا جاز لى أن أشير عليك ، أرى أن تأذنى بدخولهم وتقومين بتشجيعهم وتوجيههم.. فان أميرهم صغير السن »

فقطعت بنت الاخشيد كلامها قائلة : « أحسنت يا سلاّمة ، لكننى لا أستطيع مجالستهم الآن بعد الطعام .. فأرى أن أؤجل الاجتماع الى المساء »

فقالت لمياء : « ذلك لك اذا شئت .. لكننى لا أظنهم يلحون فى طلب الاجتماع بك فى هذه الساعة الا وهم فى أشـد الحاجة اليه ، واذا استثقلت الانتقال الى قاعة أخرى فادعيهم الى هنا وانزلى هذا الستار بينك وبينهم وخاطبيهم بما تريدين »

فأعجبها هذا الرأى كثيرا لأنه يمكنها من التحرر فى أوضـاع الجلوس أو الاتكاء ، وقالت : « هذا الرأى صواب على شرط أن تبقى أنت معى »

ففرحت لمياء بتلك الدعوة وهى غاية مناها لكنها قالت :
« اذا لم يكن بأس من وجودى فانى باقية حسب أمرك »

قالت : « ان وجودك يؤنسنى .. ولا تستغربى ما ترينه من اعجابى بك منذ أن رأيتك لأول مرة ، فانى لم أجد هذه الأخلاق فى واحدة من الجوارى ، فأنت أميرة بأخلاقك » ثم التفتت الى الحاجب وقالت : « اذا شاء القواد فليتفضلوا الى هنا » وأمرت بعض الخدم أن يرخوا الستار ، فأصبحت القاعة قاعتين بينهما ذلك الستار وهو من الديباج المطرز وفيه ثقوب ترى منها من شاءت من الجلوس ولا يرونها

— ٦٥ —

الجلسة

ولبثت لمياء جالسة ، وهى تنظر من أحد الثقوب كى تعرف الداخلين ، وما لبثت أن سمعت وقع الأقدام وقلقلة السيوف ، واذا بثلاثة رجال عليهم الملابس الفاخرة والعمائم الصغيرة والدراعات المزركشة مما يلبسه كبار القواد .. وقد تقلد كل منهم سيفا يجر الى جانبه ، ولما دخلوا ألقوا التحية فأمرتهم بنت الاخشيد بالجلوس وهمست للمياء : « هؤلاء ثلاثة من قواد جندنا المخلصين ويعرفون بالاخشيدية نسبة الى والدى الاخشيد رحمه الله »

فأظهرت لمياء الاعجاب .. فقالت بنت الاخشيد بصوت عال :

« مرحبا بقوادنا الأجلاء .. عسى أن يكون مجيئكم لأمر ينطوى على الخير .. »

فأبطأوا فى الجواب هنيهة ، لاحظت لمياء فى خلالها ان كلا منهم يدعو الآخر للكلام .. ثم تصدى أكبرهم سنا وقال : « اننا جئنا لخير ان شاء الله ، ونأسف لأننا أزعجنا مولاتنا بمجيئنا .. ولكننا لم نر بدا من ذلك والعدو على الأبواب ، وهؤلاء الكافورية لايزالون ينازعوننا على هذه الدولة .. وكنا نحسب أن مبايعة مولانا الأمير أحمد توقفهم عند حدهم ، فيكفون عن تعدياتهم .. فاذا هم على ما كانوا عليه ، يفسدون الجند ويوغرون الصدور علينا ، والوزير جعفر لم يزدد الا استبدادا فى الدولة ، وقد استولى على الأموال فلم يترك بيضاء ولا صفراء .. وقد بلغنا انه كتب الى العدو فى أمر التسليم ، فهل ترضى مولاتنا بهذا العمل ؟ أم هو قد استخف بأميرنا لأنه صغير السن »

فقالت بنت الاخشيد : « أنا لا أرضى بذلك .. هذا لايكون أبدا ، نسلّم البلد الى العدو وعندنا الجند والقواد ؟ كيف يفعل الوزير ذلك ؟.. لابد من عزله »

فأجاب أحد القواد : « انما فعل ذلك بايعاز الكافورية لأنهم على رأيه ، وقدساءهم كما ساءه أن يعود الأمر الى نصابه ويتولى الملك أهله وأصحابه وقد خرج من أيديهم ، فأرادوا أن يخرج من يد أميرنا ولو صار الى عدونا » قال ذلك والحنق باد فى كلامه

ولم تكد بنت الاخشيد تتدبر كلامه حتى سمعت ضوضاء بباب القاعة ثم دخل بضعة رجال عرفت انهم من قواد الكافورية ،

وكأنهم كانوا بالباب وقد سمعوا الطعن فيهم وأرادوا الدخول فمنعهم الحجاب .. فدخلوا قهرا ، وتصدى واحد منهم للكلام ووجّهه الى الطاعن قائلا : « تقولون اننا أفسدنا الدولة وانها لكم وقد اختلسناها مدة .. اننا لم نختلسها ، ولولا أميرنا كافور — رحمه الله — لصارت هذه الدولة فى خبر كان . فهو الذى حفظها ونظمها وثبت دعائمها من أول أمرها منذ تولاها مولانا الاخشيد — رحمه الله — فقد كان له خير ناصح ومشير.. ولو ظل كافور حيا الى الآن لم يجسر العــدو على محاربتنا ، وها أنتم ولاة الأمر الآن فأخرجوا العدو من الدار »

فأجابه الاخشيــدى : « نعم اننا نخرجهم اذا تركتمونا ولم تمالئوهم وتطلبوا الصلح معهم .. دعونا نردهم على أعقابهم »

فصاح فيه قائل آخر : « ويحك تقول ذلك بجسارة بين يدى مولاتنا .. تقول اننا نمالىء الأعداء ! »

فأجاب : « نعم .. انكم تمالئونهم ، ألم يكن الوزير جعفر ســيدكم ونصــير أميركم .. وهو الآن يخابر الأعداء فى طلب التسليم ؟ ! »

فضحك ضحكة مصطنعة وقال : « انه يفعل ذلك برأينا .. ومع ذلك فقد أحسن صنعا ، ان دولتكم قد شاخت .. واذا أنكرتم ذلك فهلمّوا الى العدو وحاربوه وأخرجوه .. »

فحمى غضب الاخشيدية وصاحوا بصوت واحد : « اننا لا نقبل هذه الاهانة وخصوصا بين يدى مولاتنا ومولاتكم» وتقدم أحدهم ويده على قبضة حسامه وقال : « والله لولا حرمة هذا

المكان لضربت أعناقكم بهذا الحسام وألحقتكم بأميركم العبد الأسود الذى تفاخروننا به . صدق فيه المتنبى .. » اشارة الى هجوه اياه ..

فتصدى رجل من الكافورية واستل حسامه وقال : « ويحك تطعن فى الأموات .. انها وقاحة لم يكن لمولاتنا بنت الاخشيد أن تسكت عنها »

وعلت الضوضاء فصفقت بنت الاخشيد وصاحت : « ويحكم ما هذا ؟.. تتشاتمون فى حضرتى .. وأغرب من ذلك أن نسمع الطعن فى أسلافنا بآذاننا ، هذا أمر لا نرضاه . وليس هذا وقت الخصام والعدو بالباب .. وأنتم يا أصحاب كافور ، ان كافورا كان خادما أمينا ــ رحمه الله ــ فما بالكم تفاخروننا به ، أما امارته فقد كانت فلتة انتحلها لنفسه أو انتحلها له بعض أصحاب الأغراض وزعم ان الخلعة أتته من بغداد .. مالنا ولهذا الآن ؟.. انه خصام فى غير أوانه »

فوقف الكافورية جميعا ، وقال كبيرهم : « أما وقد سمعنا هذه الاهانة من فم مولاتنا ، فلم يبق لنا الا أن نخرج ونترك الأمر لأصحابه وولاة أمره » قالوا ذلك وانسحبوا فى عجلة والغضب باد فى كل حركة من حركاتهم

وكانت لمياء فى أثناء ذلك لا تزداد الا ثقة بنجاح جند المعز ، فقد رأت بعينيها وسمعت بأذنيها اختلال أمور الدولة وانقسام قوادها وتباغضهم مما لا سبيل الى اصلاحه

فلما خرج الكافورية التفتت بنت الاخشيد الى لمياء كأنها

تستشهدها على هذه الوقاحة وقالت : « أرأيت أجهل من هؤلاء ؟ ويلاه .. كيف نحارب الأعداء ؟ ! .. اننا لا نقوى على حربهم »

فاستبشرت لمياء بالفوز ، وقالت : « يؤلمنى ياسيـدتى أن تكونى قد نطقت بالصواب .. وعسى أن تكونى مخطئة »

وكأن بنت الاخشيد قد ندمت على ما صرّحت به ، فاستأنفت الكلام قائلة : « بل مخطئة .. لا ، لا أريد أن أتصور ذلك ولو فى الحلم .. يدخل البلاد عدو غريب يتحكم فى رقابنا ؟ ! » ورأت انها كان ينبغى أن تستعطف الكافورية باللين وانها أخطأت فيما قالته ، فأرادت أن تلقى التبعة على سواها ــ شأن ضعيف الرأى فى مثل هذه الحال ــ فالتفتت الى الاخشيدية وكانوا لايزالون واقفين يتحدثون عما أتاه الكافورية ، وقالت : « لم يكن ينبغى لكم أن تجافوهم بمثل هـذا الكلام ، وهم اخوانكم وعليهم المعول فى الحرب فأغضبتموهم »

فأجابها أحدهم : « وأنت يامولاتنا تلقين هذه التبعة علينا ؟.. وقد سمعت الاهانة التى لحقت بنا وبك وبسائر آل الاخشيد .. فليكن ماتشائين .. أو لعلنا أخطأنا بمبايعة الأمير أحمد مع صغر سنّه ، لكننا لم نفعل ذلك الا اعتمادا على نصرتك .. فاذا كنت ترين اننا غير كفء لشىء فلنذهب» قال ذلك وتحول وتبعه رفاقه

فأحست بنت الاخشيد عندذلك بضعف العزيمة وانها أصبحت منفردة لا نصير لها الا اذا تذللت واستعطفت ، فانقبضت نفسها وظهر الانقباض فى وجهها .. وسكتت هنيهة ولمياء تراقب حركاتها وتقرأ ما يجول فى خاطرها . فلما رأتها على تلك الحال قالت :

« ما بال سيدتي يبدو عليها الضيق ؟ .. أمن أجل كلمة تنقبض نفسك ! »

فتنهدت وقالت : « آه يا سلامة ليس من أجل كلمة ولكن هؤلاء لايقدّرون العواقب ، وقدخرجوا منهذه الجلسة خصوما يتوعد بعضهم بعضا ، وهم يدنا وساعدنا وجندنا .. فبمن نحارب عدونا ؟ لا نصالح ولا نستطيع أن نحارب .. ويلاه ما العمل ! » ودمعت عيناها .. فأكبّت لمياء عليها ، وضمّتها ، وقبّلتها ، وقد أشفقت عليها وقالت : « لابأس عليك ياسيدتي .. لا تخافي »

فاستأنست بذلك الحنان وقالت : « كيف لا أخاف ؟ واذا كان العدو قويا ــ كما يظنون ــ وقدّر له النصر ، فماذا يصيبني ؟»

قالت لمياء : « لا يصيبك شيء يامولاتي »

قالت بنت الاخشيد : « لا تلطّفي الأمر عليّ .. »

قالت لمياء : « انى ألطّفه ولا يجب مع ذلك أن تيأسي من النصر . ولكن هبي لا سمح الله ان العدو اغتنم هذا الضعف وتغلّب ، فأنت في أمان لأن هؤلاء المغاربة مع أنهم أعداؤكم فانهم أقرب الى الضن بكم من هؤلاء الجنود المتمردين »

فرأت في لهجتها شدة وعزيمة فقالت : «وكيف عرفت ذلك ؟»

قالت لمياء « أعرفه بالاختبــار لأني من بلاد المغرب كما تعلمين ، وكان ســيدي الأول له علاقة كبيرة بأهل القيروان ، وتعرّف الى المعز وقائده . وكثيرا ما سمعتهم يتحدثون وعرفت طباعهم .. انهم أقرب الى الخير من هؤلاء الجنود و . . . »

فقطعت كلامها قائلة : « هل تعرفين المعز وقائده ؟ »

قالت لمياء : « نعم ياسيدتى أعرفهما معرفة جيدة وهما يعرفاننى أيضا »

فضحكت من السرور بهذه البشارة ، وأحست بنفوذ تلك الفتاة وأحبت أن تقول شيئا فمنعها الحياء ، وحالت دونه الانفة.. فأدركت لمياء غرضها فبادرتها قائلة : « انظرى يامولاتى .. ان ما لقيته من لطفك ومحبتك يوجب علىّ أن أغار على مصلحتك فاذا أذنت لى أن أقول كلمة .. »

قالت بنت الاخشيد : « قولى .. »

قالت لمياء : « انكم الآن فى حرب مع المغاربة ، وسمعت الآن ان ابن الفرات يسعى فى الصلح.. فاذا وفق اليه فكونى على ثقة من أنك ستكونين معززة مكرمة ، فانى أعرف أم الأمراء زوج المعز وهى من ألطف خلق الله وتحبنى حبا جما .. واذا لم يفلح ابن الفرات فى الصلح واشتعلت نيران الحرب ، فان المصريين اذا فازوا .. فأنت صاحبة السيادة طبعا ، واذا غلبوا على أمرهم فأنا أفديك بروحى وأكون واسطة فى حفظ كرامتك وأموالك .. فاطمئنى .. »

ففرحت بنت الاخشيد بهذا الوعد ، ولكنها أحست بصغر النفس وندمت على تصريحها بما قالته ، وخشيت أن تستضعفها لمياء أو تحتقرها فقالت : « ولكن الفوز لنا باذن الله »

فقالت لمياء : « ان النصر من عند الله يؤتيه من يشاء .. لكنى قلت لك ما أستطيع أن أخدمك به والأمر لله »

فضمّتها بنت الاخشيد الى صدرها ، وقالت : « انى أشكرك ياعزيزتى على كل حال »

– ٦٦ –

جلسة أخرى

وكانت الشمس قدمالت الى الأصيل، فتحفزت بنت الاخشيد للنهوض ، فوقع بصرها على قارب يجرى فى النيـــل بسرعة ، فالتفتت لمياء وتفرست فيمن فيه.. فلم يطل تفرسها حتى رأت فيه جماعة فيهم أبوحامد وسالم ، فخفق قلبها وارتعدت فرائصها وعلتها البغتة وتوردت وجنتاها ، لكنها تجلدت وتجاهلت فقالت بنت الاخشيد : «هل ترين ذلك القارب؟ يظهر انه قادم الينا وقد تعبنا اليوم من المقابلات » قالت ذلك ونهضت حتى آطلت من الشرفة ولمياء معها ، فرأتا القارب قد وقف عند المسناة بقرب باب القصر فقالت : « انهما قادمان الينا بلا شك .. فهل أقابلهما ؟ »

قالت لمياء : « تسألينني ياسيدتى ؟ انى لا أرى بأسا من المقابلة من وراء هذا الستار .. لعل مع القادمين خبرا جديدا ، فاذا أعجبنا استفدنا منه والا أهملناه »

قالت بنت الاخشيد : « لله درك من حكيمة عاقلة .. يا ليتنى ظفرت بك من قبل »

وبعد هنيهة جاء الحاجب يستأذن لرجلين من أعيان المغرب . فأذنت بنت الاخشيد فى ادخالهما ، وأخذ قلب لمياء فى الخفقان حتى خشيت أن تخونها عواطفها.. فتشاغلت بالالتفات الى النيل لئلا يبدو ارتباكها . ثم دخل الرجلان فرأت من وراء الســتار انهما أبوحامد وسالم ، فجعلت تغالب عواطفها لترى ماذا يكون ،

وهى تتوقع أن ترى شيئا جديدا يتم لها به ما كشفته فى تلك الجلسة ، وكان قد أقلقها ما سمعته من القبض على الحسين

فلما دخلا ألقيا التحية كالعادة ، فأمرت لهما بنت الاخشيد بالجلوس ورحّبت بهما ، ولمياء تتفرس فيهما فرأت سالما على غير ما تعرفه من الوسامة فظنت ان السفر قد غيّره .. والواقع ان ما عرفته من خيانته وغدره قد قلّل كثيرا من هـذه الوسامة فى نظرها ، كما ان ضعف خلقه واندفاعه فى تيار الخـلافة والاثم ألقى ظلالا كثيفة كثيبة على ملامحه ..

فلم يكن غريبا ما ظهر لنا من تغيّر سحنته ، وقد مضت سنة وبعض السنة وهو ينقاد لأبى حامد ، ويتظاهر بما يريده له من المظاهر المختلفة .. أما أبو حامد فقد كان أقوى خلقا وأثبت عزيمة . يدلك على ذلك بقاؤه على المطالبة بدم أبى عبـد الله الشيعى دهرا لايرى لنفسه عنه متحولا ، رغم ما لقيه من الفشل بصوره المختلفة ، وآخر صورة له كانت فى أمر كافور .. وقد أوشك أن ينجح لو بقى كافور حيًّا ، ولم يصب جند مصر ما أصابه من الانقسام ، ومع علمه بانقسام الجند وضعفه ، فان عزمه ظل ثابتا ، ولم يرجع عما عزم عليه منذ أعوام ، وهو يسوق سالما معه فيطيعه ويؤيد أقواله

فلما جلسا بعد القاء التحية ، قالت بنت الاخشيد : « مرحبا بالضيوف من أين أتيتم ؟ ومتى كان قدومكم ؟ »

قال أبوحامد : « أتينا الى مصر منذ بضعة أشهر.. ونحن من أمراء المغرب فى سجلماسة.. أصابنا ما أصاب سائر أمراء المغرب

من ظلم العبيديين ، ففتحوا بلادنا واستبدوا بنا ، وطلبوا الينا التسليم فلم نقبل ، فأتينا الى مصر لنعيش فى ظل الاخشيديين حيث لايقع بصرنا على أحد من أعدائنا ، ولعلنا نستطيع خدمة هذه الدولة . وقد بلغنا أمس ان دعاة الخلافة فى المغرب زحفوا على مصر بقيادة المملوك الصقلى ، فصرنا تتوقع أن تجتمعوا لدفعهم لأن هذا الأمر يهمنا كثيرا ، وعدو عدوى صديقى.. لكننا سمعنا بما أصاب قلوب بعض القواد والوزراء من الخوف حتى تحدث بعضهم فى طلب الصلح.. فدهشنا لهذا الضعف وأحببنا أن نبرهن للجنود خطأهم فلم نر سبيلا أفضل من بنت الاخشيد، لأن الأمير حفيد أخيها وهو غلام فهى صاحبة الصوت الأقوى» وتنحنح أبوحامد ومسح شاربه بيده وأرسلها على لحيته وحك أنفه

فقالت بنت الاخشيد : « بارك الله فيك .. ولكن ما الذى جئتنا به من أسباب الاطمئنان ؟ »

قال أبوحامد : « ان ماجئتك به يامولاتى انما هو أن أسعى فى التوفيق بين القواد الاخشيدية والكافورية.. ولايتحقق ذلك الا اذا أثبت لهم انجنود المغاربة لايستطيعون أن يفتحوا هذه البلاد ، لأن انقسامهم انما وقع بسبب خوفهم من الفشل ، وهذا طبيعى فى كل زمان ومكان ــ لايختصم شريكان الا اذا خسرت تجارتهما ــ فاذا برهنت لهم على يدك أن أولئك الدعاة لايمكن أن يفتحوا مصر تشددوا واتحدوا وطردوا العدو عن بلادهم »

فأعجبت بنت الاخشيد بفصاحته وقوة حجتــه ونظرت الى لمياء فوجدتها مصغية بكليتها .. ولم تفطن الى ارتباكها ، فقالت

لأبى حامد : « وما هو دليلك ؟ »

قال أبوحامد : «دليلى ان قائد جند المغاربة رجل اسمه جوهر الصقلى ، ولهذا الرجل غلام اسمه الحسين هو عزيز عليه .. وقد علم الحسين هــذا بمال كنا قد خبأناه فى بعض الأماكن قرب سجلماسة لنستعين به على استرجاع ملكنا ، فاغتنم فرصة غيابنا وذهب بشرذمة من الجند ليستولى على ذلك المال .. لكن رجالنا هناك قبضوا عليه وأرسلوه الينا مغلولا ، فاذا شئت دفعناه اليك ليكون رهنا تهددون به أباه اذا توهم أنه قادر على فتح مصر»

وتذكرت بنت الاخشيد قول لمياء انها تعرف المعز وقائده وسائر رجال الدولة فى القيروان .. فلما سمعت ما قاله أبوحامد عن الحسين بن جوهر ، التفتت اليها فوجدتها لا تزال شاخصة تتطاول بعنقها لسماع بقية الحــديث فقالت لها همسا : « هل تعرفين الحسين بن جوهر ؟ »

قالت لمياء « نعم أعرفه .. وأحب أن تأمرى باحضــاره لئلا يكون هذا الرجل كاذبا »

قالت بنت الاخشيد : « وهل تعرفين هذين الرجلين ؟ »

قالت لميــاء : « نعم رأيتهما فى القيروان وسمعت عنهما ما يضعف الثقة بهما .. فاذا أمرت باحضار أسيرهما لنراه كان ذلك أدعى الى الاطمئنان على صحة ما يقولان »

فالتفتت بنت الاخشيد من وراء الستار وقالت : « أين هو ذلك الأسير ؟ »

قال أبوحامد : « هو عندنا .. واذا شاءت مولاتى أتيناها به»

قالت بنت الاخشيد : « افعل .. ولك الفضل »

فأشار أبو حامد الى سالم أن يمضى لاستقدامه ، فمضى وليثت لمياء على مثل الجمر تتماسك وتتجلد لئلا تغلبها عواطفها ، وهى تحب أن يكون كاذبا فى قوله فيكون الأسير المزعوم رجلا آخر ، لكنها ما لبثت أن سمعت ضوضاء قرب الباب وسالم يقول : « تقدم يا جبان لتراك مولاتنا بنت الاخشيد »

فتطاولت لمياء بعنقها حتى وضعت عينها على ثقب الستار ، واذا بالحسين نفسه داخلا والأغلال الحديدية فى عنقه ويديه ، ولكنه مشى بقدم ثابتة والتفت الى سالم وقال له : « متى رأيتنى أحاول الفرار حتى تدعونى جبانا ؟ »

فالتفتت بنت الاخشيد الى لمياء لتستطلع رأيها فى الرجل ، فرأتها ترتعد وقد احمرت عيناها وكادت تغلب على أمرها فقالت : « هل هذا هو الحسين كما يقولون ؟ »

فأشارت برأسها أن « نعم » ولم تفه بكلمة لئلا يختنق صوتها فينفضح أمرها ، فاستغربت بنت الاخشيد ما بدا من اضطرابها ، لكنها وجهت خطابها الى الحسين قائلة : « هل أنت الحسين بن جوهر قائد جند المعز ؟ »

فأجابها وهو رابط الجأش ثابت الجنان : « نعم أنا الحسين بن جوهر فاتح افريقية وقائد جند المعز.. وسيفتح مصر عن قريب»

فوخزه سالم بيده وقال : « اخرس يا نذل .. أبمثل هـذه الوقاحة تخاطب مولاتك ؟ »

فرفسه الحسين برجله وقال : « اخرس أنت .. انها مولاتك

أنت .. ولعلها لو عرفتك لتبرأت من هذه الولاية . أما مولاى فهو المعز لدين الله الفاطمى »

فتصدى أبو حامد للكلام ، وهو يضحك ضحك الاستخفاف وقال : « ألا تزال تسمى ذلك الدعى فاطميا وفاطمة بريئة من نسبه .. »

فقال الحسين : « انه فاطمى رغم خيانتك وغدرك »

فقالت بنت الاخشيد : « الذى أوقعك فى هـذا الأسر ، ما كان أغناك عنه »

قال الحسين : « وقعت فيه تفانيا فى خدمة مولاى المعز وقد فزت والحمد لله بما أردت .. فأخذت المال الذى خزنوه فى فج الأخيار وبعثت به الى القيروان ، وهو الآن مع والدى وقد صبوه قطعا كالأرحية حملوها معهم على الجمال .. »

قال أبو حامد : « لا تكذب .. »

قال الحسين : « انما الكاذب أنت .. انى قد فعلت ما طلب منى وأرسلت ذلك المال الى مولاى المعز ، وسيستعين به فى فتح مصر.. ولايغرنك ما أتاه رجالك من الخيانة فى القبض على ، فان ذلك لن يضيرنى .. فقد أديت واجبى ، واذا مت الساعة فلا أبالى .. فان الأعلام الفاطمية لا تلبث أن تخفق فوق الفسطاط ، واذا لم أوفق الى رؤيتها وأنا على قيد الحياة فان عظامى ستراها وتفرح بها .. »

فأعجبت بنت الاخشيد بتلك الجسارة التى لم يسبق أن شهدتها ، ولا سمعت بمثلها .. لما نشأت عليه من الخمول

والرخاء ، فالتفتت الى لمياء فرأتها مع عظم تأثرها قد غلب البشر على محياها فقالت لها همسا : « استغرب ما أسمعه »

قالت لمياء : « لا تستغربى ياسيدتى .. فان ذلك شأن أولئك القوم ، وهم لم يفتحوا افريقية الا بمثل هذا التفانى .. »

قالت بنت الاخشيد : « وبرغم ما سمعته من هذا الشاب ، فانى شعرت بعطف اليه.. ولم يعجبنى تطاول هذا السجلماسى»

فلم تتمالك عن الانتصار لحبيبها فقالت : « فكيف لو علمت الفرق بين الرجلين فى الأخلاق ؟ »

قالت بنت الاخشيد : « هل تعرفين شيئا عنهما ؟ »

قالت لمياء : « ان أهل القيروان يتحدثون بذلك .. أما الآن فاذا شئت فمرى أن يكون هذا الأسير فى دارك ، ولينصرف الرجلان ثم ترين ما يأتى به الغد »

قالت بنت الاخشيد : « أحسنت الرأى .. وقد أصبحت لا أطيق أن أرى الحسين مغلولا » وصفّقت فأتى أحد غلمانها فقالت : « خذ هذا الأسير الى غرفة يقيم فيها حتى ننظر فى أمره ، لكن احلل وثاقه اذ لا خوف من فراره »

فأمسكه الغلام بيده وخرج ، فوقع هـذا العمل من لمياء موقعا جميلا وكاد قلبها يطير من الفرح . ولاحظت بنت الاخشيد ذلك عليها ، فظنت أنها فعلته لشعور مثل شعورها فعذرتها .. والتفتت الى أبى حامد وقالت : « سننظر فيما عرضته علينا .. وسأقص ما سمعته على قوادنا فعسى أن ينفعنا ذلك » ففهم أبو حامد انها تطلب انصرافهما فنهض وخرج مع سالم ، وقد

أسقطا فى أيديهما ، وان لم يفهما ما جال فى خاطرها

– ٦٧ –

الرأى

ونهضت بنت الاخشيد للحال وهى تتثاءب وتقول : « ما أكثر شغل هذا اليوم وما أثقله ، فقد تعبت من المفاوضات .. أن هذا لايستطيعه الا كبار الرجال وقد أخطأنا بتولية هذه الامارة غلاما صغيرا »

فنهضت لمياء معها ، وقد غربت الشمس ، وأخذت الظلال تتكاثف وتتحول الى ظلام . وأصبحت تود الاختلاء بنفسها للتفكير فيما تراكم فى ذهنها من الحقائق الجديدة ، وما أصاب قلبها من الصدمات المتوالية .. فرأت بنت الاخشيد قد تحولت الى غرفتها ، وأشارت اليها أن تتبعها فأطاعت .. وقد أدهشتها تلك الغرفة بما فيها من الرياش الثمين ، وفى صدرها سرير من الأبنوس المطعّم بالعاج والذهب ، فوقه ناموسية من الحرير الشفاف «الملس» وكل ما فى الغرفة زاه زاهر على عكس ما فى قلب صاحبته المسكينة ، فانها غادرت تلك الجلسة وقد تراكمت عليها الهموم والمخاوف.. ولم تكن تشعر بشىء من ذلك قبلا . وأصبحت شديدة التعلق بلمياء ولاسيما بعد ماآنسته من تعقلها والخدمة النافعة التى عرضتها عليها ، فأحبت أن تستوثق منها ..

فجلست على سريرها ، وأمرت لمياء أن تجلس بجانبها .. فجلست وهى تفضل الخلوة لكنها أطاعتها ، ولاحظت ما هى

فيه من القلق فاشتركت معها فى احساسها وشعرت بأنها قد امتلكت قلبها .. ظلتا هنيهة صامتتين وبنت الاخشيد مطرقة ويمناها على كتف لمياء ، واليسرى على قلبها كأنها تتقى صدعا أصابه .. ثم تنهدت ونظرت الى ما حولها لتتحقق من خلو المكان من الناس ، ثم التفتت الى لمياء وضمتها الى صدرها وقبّلتها فى عنقها وأطالت تقبيلها ، فشعرت بشىء ساخن يلمس عنقها .. فأجفلت وعلمت أن بنت الاخشيد تبكى وهى تحبس أنفاسها لئلا تلاحظ لمياء ضعفها ، فتلطفت لمياء ورفعت رأسها وضمتها وهى تقول : « ما بالك ياسيدتى ؟ خففى عنك .. انى لا أرى باعثا على ذلك . ومن كان فيما أنت فيه من الوجاهة والنفوذ لابد أن يتعرض لمثل هذه المشاكل »

فرفعت رأسها وتنهدت ثانية ، وقالت : « لا تعجبى من اظهار ضعفى أمامك فى أول يوم عرفتك فيه .. فانى أشعر كأنى أعرفك منذ أعوام .. وقد اطلعت على حالنا الليلة فأشيرى علىّ ، أشيرى ياحبيبتى .. »

فسرّت لمياء من ثقة تلك المرأة بها .. وأحسّت فعلا بالعطف عليها ، واستغربت تحولها بهذه السرعة عما كانت عليه من الزهو والتيه حين قابلتها فى ذلك الصباح .. وشاركتها البكاء ولم يكن أسهل عليها من ارسال الدمع فان مصائبها تتوالى واحساسها حى ، فقالت : « هوّنى عليك يامولاتى .. فانى لا أرى باعثا على هذه الشكوى ، ولقد أوضحت لك ما أستطيع أن أخدمك به .. وقد فُتح لنا باب جديد بوجود الحسين بن جوهر أسيرا

فى قصرك وتحت رعايتك ، ولا ينفعك أن تثقليه بالقيود والأغلال فان ذلك لايؤذيه .. ولا أقول لك أطلقيه فان فى ذلك خيانة لبلدك ، ولكننى أقول لك لاطفيه واحسنى وفادته .. فاذا قدّر النصر لجند مصر كان الحسين هذا من جملة أسرى الحرب . واذا فاز القيروانيون وانهزم المصريون ، عرف الحسين فضلك وسعى فى المحافظة على سلامتك وصيانة كرامتك »

فدهشت بنت الاخشيد لهذا الرأى الذى لا يقبل التعديل فقالت : « بورك فيك .. ولعلك علمت انى غضبت لهذا الشاب من تلقاء نفسى ، وساءنى ما أتاه ذلك السجلماسى من الفظاظة فى معاملته .. وشعرت بما علمته منك بعد ذلك من التباين فى أخلاقهما ، فأنا ميالة الى محاسنة الحسين وسأفعل »

فأطرقت لمياء لحظة ثم قالت : « وعندى رأى أظنك توافقيننى عليه .. اعنى انه اذا صارت حالنا الى الخطر ، استكتبناه خطابا الى أبيه فى الوصاية بك وبمن فى دارك »

فأظهرت امتنانها .. ونهضت لمياء تظهر رغبتها فى الانصراف فأحست بنت الاخشيد انها أتعبتها فى ذلك اليوم ، فنهضت وودعتها بقبلة وقالت : « اذهبى الى فراشك ياعزيزتى واستريحى فقد أتعبتك فى هذا اليوم »

فودعتها وانصرفت الى غرفتها وقد امتلأ صدرها آملا بالفوز ، وأصبح همها أن تنقل ما شاهدته من فساد أحوال الدولة والجند الى يعقوب حتى ينقله الى معسكر جوهر بالاسكندرية ، فلبثت تترقب الفرص ..

أما الحسين فانه كان قد ذهب الى فج الأخيار مع فرقة من الفرسان ، وتمكن من اخراج الأموال وارسالها الى القيروان ، ثم غافله حراس ذلك المخبأ واستفردوا به فعقروا فرسه .. وبعد معركة جاهد فيها جهاد الأبطال تكاثروا عليه حتى سقط ، فشدوا وثاقه ووضعوا الأغلال فى يديه ورجليه وعنقه ، وبعثوا به الى أبي حامد بمصر ولم يخبروه انه تمكن من أخذ المال قبل القبض عليه .. أو لعلهم أخبروه وتجاهل ، ثم وصل الحسين بأغلاله .. ومصر فى تلك الحال ، فرأى أبوحامد أن يتخذه طعمة لمساعيهم فحمله الى بنت الاخشيد كما رأيت .. لكنه أحس قبل خروجه من حضرتها انه لم ينجح فى ذلك التدبير ، ولكنه تجاهل أمام سالم.. وأوهمه أنهما سيظفران بما يريدان عن قريب ، وان الجند القيرواني سيعود منهزما . وكان يحسب أن التوفيق بين الجنود أسهل مما رآه على أثر ذلك النزاع فى مجلس بنت الاخشيد

أما الحسين فشعر انه سيق الى ذلك القصر لحسن حظه .. واستبشر بحل أغلاله .. فبات تلك الليلة مرتاحا ، وفى صباح اليوم التالى أتوه بثياب نظيفة ، وفرشوا له احدى الغرف ، وخصصوا له خادما للقيام بما يحتاج اليه من طعام وشراب ، كل ذلك باسم السيدة بنت الاخشيد .. فلم يكن ينقصه شىء غير الخروج من ذلك القصر ، فقد كان ذلك محظورا عليه .. فكان يقضى أوقاته مفكرا فيما مرّ به ، ولم تبرح صورة لمياء من ذهنه . ولم يكن يعرف الى أين ذهبت ، وكلما تصور معاملة سالم وأبى حامد له يغضب ويتوعد . وكان وهو فى أثناء الطريق قد

علم بحملة أبيه على مصر ونزوله الاسكندرية ، وسمع وهو فى قصر بنت الاخشيد أن بعض المصريين خابروه بشأن الصلح والتسليم وودّ لو انه مطلق ليشترك فى المعارك . وبقدر ما كان من نقمته على أبى حامد وسالم ــ بل وبأكثر منه ــ كان امتنانه من بنت الاخشيد لاكرامها اياه بغير سبب يعرفه

وبعد أيام جاء رسول يدعوه الى مقابلة بنت الاخشيد فى قاعتها ، فلبس ثيابه وصعد .. فأدخله الحاجب الى تلك القاعة ، ونادى السيدة من وراء الستار قائلا : «هذا ياسيدتى الحسين بن جوهر فى حضرتك.. وها أنا خارج وقد تركته وحده كما أمرت»

فتقدم الحسين وألقى التحية فردت السلام وقالت : « كيف ترى نفسك ياحسين ؟ »

قال الحسين : « أرانى مقيدا .. ! »

قالت بنت الاخشيد : «ألم تحل قيودك ؟ »

قال الحسين : « بلى وهذا فضل لا أنساه لك ، وقد فعلت ما هو جدير بالكرام ، ولكننى لا أزال أرانى مقيدا .. انى كالحبيس فى هذا القصر »

قالت بنت الاخشيد : « لا ألومك لضجرك من هذا الحبس ، ولكن لوكنت فى مكاننا هل كنت تفعل غير ذلك ؟ ان أباك حامل علينا بخيله ورجاله وقد وقع ابنه فى أيدينا ، وبلغنا انك من خير القواد ، فهل نطلقك لتكون عونا لعدونا علينا ؟ ألا يكفى اننا حللنا قيودك وأطلقنا لك الحرية وقمنا بما تحتاج اليه من أسباب الراحة؟»

فأعجب بتلك الحجة الدامغة وقال : « لا أنكر فضلك يامولاتى

والحق يقال اننى لا أنسى هذا الجميل .. والدنيا دول .. »

فقالت بنت الاخشيد : « عسى أن تنتهى هذه الحرب بالصلح ، ونجتمع على مودة .. وقد بعثت اليك الآن لأطمئن على راحتك ، فاذا كنت ترى تقصيرا فيما تحتاج اليه فأخبرنا »

قال الحسين : « كلا .. انى لا أرى تقصيرا قط .. »

قالت بنت الاخشيد : « تقدم قليلا لأقول لك كلمة »

فتقدم حتى دنا من الستارة فقالت له : « سأرسل اليك بعد قليل جارية من عندى اسمها سلامة ، تطلب منك أمرا فاقضه لها .. وقد لا أحتاج الى ارسالها ، فاذهب بسلام »

فتراجع حتى فتح الباب فلقيه الحراس فرافقوه الى سجنه باحترام واكرام ، وقد شغل باله ما اقترحته عليه .. وكان ذلك بتدبير من لمياء لزيادة اطمئنانه ، حتى اذا احتاجوا الى كتاب توصية لا يكون ثمة مانع من الاجابة فى الحال ..

— ٦٨ —

الحرب

قضت لمياء أياما وهى تعلم بقرب الحبيب وقدرتها على الوصول اليه ، لكنها لم ترض أن تلقاه لأنها عاهدت نفسها على الصبر حتى تنتهى الحرب .. وهى تخشى من جهة أخرى اذا عرف الحسين بوجودها هناك أن يحدث ما يعرقل مساعيها ، فتجلدت وهى تبحث طبعا عن راحته وسلامته .. وبرغم شجاعتها ورغبتها فى أن يشترك الحسين فى الحرب ، فقد كانت فى قرارة نفسها تميل الى

أن يتفادى خطر الحرب .. وكانت على ثقة من قدرة جند المعز على الفتح بدون الحسين ، فلماذا تعرضه للسهام ؟ وقد يجيئه سهم يصيب منه مقتلا وهى حريصة على حياته . وفى ذلك من التعقل والحكمة والتسلط على العواطف ما هو جدير بلمياء

لكن الفرصة لم تبطىء ، فقد أفاقت ذات يوم على أصوات المنادين فى أسواق الفسطاط .. وكانوا لايفعلون ذلك الا لأمر هام يريدون نشره سريعا مما يعلن عنه فى الصحف أو يدوّن فى المنشورات الرسمية فى هذه الأيام .. فكانت حكومة ذلك العصر تذيعه عن طريق المنادين .. فسمعت لمياء صوت المنادى وله لحن خاص ينادى به ، وعبارات خاصة ينادى بها ، تدل على فحوى ما بعده .. كما يقرأ الكتاب من عنوانه

سمعته يقول : « يا أهل الفسطاط قد جاءنا عدو من افريقية يتعدى على بلادنا بلا ذنب اقترفناه سوى طمعه فى الاستيلاء علينا . وبلغ مولانا الأمير ان بعض الخونة المارقين أغرى جماعة من الأعيان على التسليم ، وكتبوا بذلك كتابا بعثوا به الى الاسكندرية . فاعلموا أن هذه الخديعة انما الغرض منها الايقاع بالدولة . واعلموا ان الأمير أعزه الله وسائر رجال الدولة والقواد الاخشيدية والكافورية والأتراك وغيرهم لايقبلون الصلح أو التسليم ، وانما يتحاكمون الى السيف .. ولذلك وجب الاعلان حتى يكون الناس على بيّنة فلا يخدعون بقول ولا يصغون لوشاية . وهذه جنودنا المظفرة قد خرجوا بمضاربهم الى شاطىء الجيزة لملاقاة العدو .. اذ جاءت الأنباء انهم يتقدمون الى

هناك ، فيا أهل الفسطاط عليكم أن تأخذوا بأيدى الجند وتقدموا ما فى طاقتكم من المعاونات المالية .. تقدمونها الى من يأتيكم من عند الوزير أو الأمير ، ولا تضنوا بالمال فانه أقل ما يبذل فى سبيل الدفاع عن الدولة والملة .. والنصر من عند الله يؤتيه من يشاء وهو على كل شىء قدير .. »

فأطلت لمياء من نافذة عالية تشرف على الشارع ، فرأت ذلك المنادى يسير وراء الجماهير من الرجال والأولاد ، وقد علت الضوضاء وساد الاضطراب . فقالت فى نفسها : « لابد أن يكون لذلك اللعين أبى حامد دخل فى جمع قلوب الجند على الدفاع ، ولكن سعيه سوف يذهب عبثا .. فالقلوب متنافرة والنيات فاسدة والضغائن متبادلة »

وبينما هى فى ذلك اذ أتتها القهرمانة تدعوها الى بنت الاخشيد فأسرعت فرأتها جالسة فى شرفة من ذلك القصر ، تطل على النيل وما وراءه الى الجيزة فابتدرتها لمياء قائلة : « يظهر ان ذلك السجلماسى قد أفلح فى جمع قلوب الجند . انظرى كيف يعبرون النيل فى القوارب الى الجيزة .. وهذا الجسر بين الفسطاط والروضة يكاد ينكسر من تزاحم الأقدام عليه ، ولا بد أن يكون الجسر الآخر بين الروضة والجيزة كذلك أيضا . وهذه الجسور مصنوعة من السفن متجاورة جنبا لجنب .. وفوقها ألواح من الخشب وطبقة من الرمال والحصى يتوهم غير العارف انها ضعيفة وهى متينة .. هل ترين معسكر الأعداء ؟ .. انى لا أراه »

وكانت لمياء فى أثناء ذلك تبحث ببصرها عن ذلك المعسكر ، ولم

تكد تفرغ من كلامهـا حتى ظفـرت بمكانه ، فصـاحت : « انظرى ياسيدتى الى ذلك الغبار المخيم الى اليمين والأعلام تخفق من خلاله ، وقد نصبت الخيام والفساطيط .. هل ترينها ؟»

فقالت وقد امتقع لونها : « نعم قد رأيت ويظهر انهم جنـد كثير .. ما العمل الآن ؟ .. ماذا ترين ؟ .. هل تظنين ان جندنا سوف ينتصر ؟ »

قالت لمياء : « أما سمعت قول المنادى ان النصر من عند الله يؤتيه من يشاء ؟ »

قالت بنت الاخشيد : « وما العمل الآن ؟ »

فقالت لمياء : « أما نحن هنا فلا خوف علينا كما قلت لك قبلا .. »

قالت بنت الاخشيد : « هل أخذت الكتاب من الحسين ؟ »

قالت لمياء : « هذا وقته .. هل تأذنين لى بتدبير ذلك ؟ »

قالت بنت الاخشيد : « افعلى .. ولكن من يوصله الى القائد جوهر ؟ »

قالت لمياء : « أنا أوصله .. اطمئنى ، وانما أحتاج الى ثوب أتنكر به فى زىّ الرجال .. فمرى لى بذلك وبفرس أركبه »

قالت بنت الاخشيد : « وهل تستطيعين ركوب الخيل ؟ »

قالت لمياء : « نعم .. وقد تعودت على ذلك منذ صباى »

فأمرت لها بما طلبته ، فلبست ثوب أحد الجنود وتلثمت ونزلت الى الحسين .. وقلبها يخفق من هول ذلك اللقاء ، لكنها صممت على التكتم ..

وكان الحسين قد سمع المناداة كما سمعهـا غيره ، وأصبح كالأسد الهائج حينما يرى الفريسة وهو مقيّد . وقد جلس على سريره منفردا .. واذا بذلك الجندى قد دخل عليه ، فقـال : « من أنت ؟ وماذا تريد ؟ »

فخفضت لمياء صوتها ، واجتهدت فى تغييره ، وقالت : « أنا سلاّمة الجارية ، أتيت لأطلب اليك ما وعدت به مولاتى بنت الاخشيد .. »

فقال الحسين : « وما ذلك ؟ »

قالت لميـاء : « أن تكتب خطابا الى والدك تقول فيه اذا قدّر له النصر ودخل الفسطاط ظافرا أن يأمر رجاله بحماية هذا القصر جزاء ما لقيته من رعاية أصحابه .. هل تفعل ؟ »

قال الحسين : « نعم .. ان لصاحبته فضلا علىّ لا أنساه .. »

قال ذلك وتناول قرطاسا وكتب بخطه رسالة فى هذا المعنى ودفعها الى لمياء .. فتناولتها وأسرعت فى الذهاب خوفا من أن تغلب على أمرها ويتسلط قلبها على عقلها . وركبت جوادها وخرجت تخترق الصفوف تطلب منزل مسلم بن عبيد الله .. وهى تراقب ما تراه من أحوال الناس فى أثناء تلك الغوغاء . فرأت تلك الحماسـة مقصورة على الجند ، وانهم قد اتخذوا ذلك النداء ذريعة لابتزاز الأموال . والمصريون لا يريدون حربا لأنهم ملّوا استبداد هذه الدولة ومالوا الى استبدالها بدولة أخرى ، قـد تكون أكثر استبدادا منها .. لكنهم يحبون الجديد . فرأت بعض الجنـود يسوقون جماعة من أعيان التجار ويضربونهم ويهينونهم لأنهم لم

يؤدوا الاعانة والنـاس يصيحون ويستغيثون ويشكون فراغ جيوبهم . ثم أجفلت لسماعها صوتا كصوت سالم ، فالتفتت فرأته ومعه عمه فى جماعة من القواد سـائرين على أفراسـهم نحو الروضة ، وهم يحرضون الناس على الطاعة . وسمعت سالما يقول لبعض الأغنياء من الأهلين ، رآه يستغيث من تطاول الجند عليه فى طلب المال : « اخرجوا الأموال فان هذا الجنـد يدافع عن أرواحكم وأموالكم .. ألا تسعفونهم بالمال على الأقل ؟ » فعلمت ان لهذين الرجلين دخلا فى جمع كلمة الجند ونقض الصلح ..

وبعد قليل وصلت الى بيت الشريف مسلم ، فرأت بابه مزدحما بالناس بين راكب وواقف ، وأكثرهم من الأهلين جاءوا يتظلمون أو يحتمون به ، وسمعت نقمتهم على الجند وغضبهم لنقض الصلح فاخترقت الصفوف حتى وصلت الى الباب ، فوسّعوا لها رغم ارادتهم ، وهم يحسبونها جنديا جاء لمصادرة أو اغتصاب ، حتى دخلت من البـاب وطلبت أن ترى الشريف ، فقيل لها انه فى شاغل .. فقالت : « قد جئت فى رسالة عاجلة »

— ٦٩ —

الرسالة

فوسعوا لها حتى دخلت عليه بعد أن ترجّلت وسلمت الجواد الى أحد خدمه .. وكان مسلم مختليا فى غرفته مع بعض الأعيان والتجار ، وقد علت أصواتهم من النقمة على نقض الصلح . فلما قيل لهم : جاء أحد الجنـود ، سكتوا .. فدخلت لميـاء

بلثامها ، وأشارت الى مسلم انها تريد مقابلته على حدة . فدخل معها الى غرفة فأوصدت الباب وراءها ثم أزاحت اللثام ، فدهش لرؤيتها وقال : « ما وراءك ؟ .. من أين أتيت ؟ .. »

فقصت عليه حكايتها .. وأخبرته عن وجود الحسين فى القصر بمأمن ، وانها احتالت فى المجىء اليه بحجة تلك الرسالة ، وانما غرضها أن تبلغ القائد جوهر عن حال الدولة من الاختلال والضعف حتى لايخدع بهذا الصياح.. فأعجب الشريف بحميتها وبسالتها ، وقال : « لله درك من فتاة مخلصة باسلة ، هل تريدين الذهاب الى القائد بنفسك ؟ »

قالت لمياء : « نعم .. لأنى أستطيع بذلك أن أزيده بيانا وتوضيحا .. »

قال مسلم : « تفعلين حسنا وسيفرح بلقائك لأنك تنقلين اليه خبر الحسين ، وانه على قيد الحياة .. وقد سبق أن سمع بوقوعه فى الأسر ولا يدرى أين هو .. »

قالت لمياء : « أين المعلم يعقوب ؟ »

قال مسلم : « ألم تسمعى بما أصابه ؟ »

قالت لمياء : « كلا .. ماذا جرى له ؟ »

قال مسلم : « ان الوزير بن الفرات قبض عليه بسبب أربعة آلاف وخمسمائة دينار عرف بوجودها عنده ، وأراد قتله فالتجأ الى مدة ثم فر الى معسكر القائد جوهر (١) وقد حملته ما استطعت من الأخبار والملاحظات . ولكن رسالتك أعظم أهمية عنده لأنك استقيت الخبر من مصادره .. اركبى ، وسأرسل

---

(١) ابن خلكان ١١٠ ــ الجزء الاول

معك بعض رجالى .. ليس خوفا عليك ، ولكن لأنك لا تعرفين الطريق .. فيدلونك عليها »

فقبلت ذلك منه وخرجت فامتطت فرسها ، وركب معها بضعة من رجال الشريف ، وساروا يطلبون معسكر القائد جوهر من الخلف .. فقطعوا جسرا على النيل قبيل الغروب . وكان رفاقها قد عرفوا فسطاط جوهر ، فساروا توا لايعترضهم معترض

وكان جوهر جالسا فى فسطاطه ، وقد أوقدت الشموع واجتمع قواده حوله ، وهم جلوس ، وجوهر مطرق يفكر فى مصير ابنه الحسين . وكان قد سمع من الذين حملوا اليه الأموال من فج الأخيار أنه تخلف عنهم .. ولعله قتل أو وقع أسيرا . وبينما هم فى ذلك ، اذ دخل الحاجب وقال : « ان بالباب رسولا من الفسطاط يشترط أن يلقى القائد فى خلوة »

فأشار الى الحضور بالانصراف وأمر بادخال الرسول ، فدخلت لمياء بثوبها ولثامها ، وأزاحت اللثام وأكبّت على يده تقبّلها فلم يتمالك عن النداء : « لمياء .. لمياء .. »

فأشارت بأصبعها على شفتها أن يكتم أمرها ، فضمّها الى صدره كأنها ابنته وهو يحبها كما يحب الحسين . لكنه تذكر الحسين ، فانقبضت نفسه ، وكادت الدموع تترقرق فى عينيه ، فقالت : « جئتك ياسيدى ببشرى مزدوجة »

قال جوهر : « وما هى .. ؟ قولى .. »

قالت لمياء : « الأولى ان سيدى الحسين فى أمان ، ولو عرفنى عندما أعطانى رسالته هذه اليك لكلفنى أن أبلغكم التحية ..

ولكننى اضطررت للتنكر .. والثانية ان عدوكم الذى يحاربكم وتسمعون صياحه ونداءه .. أشبه بالقصبة المرضوضة أو الطبل ، صوته قوى وقلبه فارغ »

قال جوهر : « بارك الله فيك يا لمياء .. جئت ببشارتين سارتين ، أهمهما بقاء الحسين على قيد الحياة .. بعد أن يئست من وجوده .. ولكن أين هو؟.. وكيف عرفت ذلك ؟.. أخبرينى»

فجلست وقصت عليه ما رأته وقاسته ، منذ برحت القيروان الى أن أخذت تلك الرسالة من الحسين ودفعتها اليه فقرأها وقال : « سأفعل ذلك حبا وكرامة .. وأين ذلك الخائن وعمه ؟»

فتنهدت وقالت : « رأيتهما مع الجند يحرضانهم على الحرب وسينالان الجزاء .. كيف فارقت مولانا المعز وأم الأمراء ؟ »

فهز رأسه مبديا اعجابه بها ، وقال : « ان مولانا المعز أعزه الله وأتم نصره من معجزات الزمان .. »

قالت لمياء : « ومن أكبر أسباب سعادته انك قائده »

قال جوهر : «كلا يالمياء .. فلو انى سفكت دمى عند قدميه ، فاننى لا أكافئه على صنيعه.. انت تعلمين منزلتى عنده ، ولكننى لو أخبرتك مافعله يوم خروجى من القيروان بهذه الحملة لرأيت عجبا.. انه أمر بافراغ الذهب فى هيئة الأرحية وأن تحمل معى ظاهرة . وأمر أولاده واخوته الأمراء وولى العهد وسائر أهل الدولة أن يمشوا فى خدمتى وأنا راكب . وكتب الى سائر عماله يأمرهم اذا أنا قدمت أن يترجلوا مشاة .. فكنت حيثما سرت فى طريقى من القيروان ، كل من مررت به فعل ذلك .. فلما أتيت

برقة ، عَظُم على صاحبها أن يفعل ذلك .. فافتدى ترجّله ومشيه فى ركابى بخمسين ألف دينار ذهبا،فأبيت الا أن يفعل ماأمر به أمير المؤمنين ففعل(١) أمثل هذا الخليفة يكثر فيه أن يُفتدى بالروح؟»

قالت لمياء : «صدقت والله.. انه نابغة الخلفاء . وهل أنسى أنا ما أكرمنى به حتى كان ينادينى بابنته. وهل مثل هذا الخليفة يكون نصيبه من الحرب غير النصر ؟ وهل تصلح الدولة ان لم يكن رجالها قلبا واحدا فى طاعة أميرهم ؟ أين ذلك من جنود مصر ودولتهم ؟ .. فقد سمعتهم يختصمون على أمور تافهة ، ورأيتهم يضربون الناس لابتزاز المال منهم .. وهذا أمير المؤمنين قد بعث المال معك بشكل الأرحية . لاشك ان الله أذن بانقضاء دولة الاخشيديين .. هل ترى أن أعود الى الفسطاط ؟ .. وما هى العلامة التى تجعلها على دار بنت الاخشيد حتى لا يقربها أحد بسوء ؟ »

فضحك وقال : « كأنك واثقة من دخولنا ظافرين ؟ »

قالت لمياء : « لاشك عندى فى ذلك »

فربت على كتفها بيده وقال : « بارك الله فيك .. ضعوا على باب القصر علما أخضر ، وسأوصى الجند أن يجتنبوا ذلك الباب»

قالت لمياء : « أتأذن بانصرافى ؟ »

قال جوهر : « تبيتين الليلة هنا ونرى ماذا يكون فى الغد ، ولا باعث الى العجلة فى الذهاب »

فأطاعت .. أما أهل الفسطاط فقد رأيت ماكان من اضطرابهم ،

(١) المقريزى ٣٧٨ ـ الجزء الاول

وما سامهم الجند من الذل والاهانة والسلب ، حتى أصبحوا يفضلون الفاطميين عليهم .. وأما بنت الاخشيد فانها مكثت بعد ذهاب لمياء ، وقد تولتها الدهشة لما شاهدته من مروءة هذه الفتاة وبسالتها . ولبثت تنتظر رجوعها ، وقضت أكثر أوقاتها فى الشرفة المطلة على الجيزة لترقب حركات الجندين ، وقلما كانت ترى أحدا منهما لبعدهما عن مجال البصر ، لكنها كانت تتلهى بذلك .. ووجهت عنايتها خصوصا للحسين وأمرت باكرامه ورعايته

— ٧٠ —

العلم

وكان الحسين بعد ذهاب لمياء ، قد أحس بشيء ذكره بحبيبته .. فلم تعد تذهب صورتها من ذهنه ، ولم يكن يدرى السبب الذى بعث على ذلك .. ولكن الواقع أن صوتها وهى تخاطبه لم يخل من غنة تعود قلبه أن يطرب لها منذ اجتماعه بها .. فطرب لها الآن وهو لا يعلم ان التى تحدثه هى خطيبته .. وكثيرا ما يحدث ذلك والناس لا ينتبهون له . فقد يخطر لك أمر يتردد فى ذهنك وأنت لا ترى باعثا على تذكره ، وانما تذكرته لأنك رأيت أو سمعت شيئا تعودت أن تراه أو تسمعه مصاحبا لذلك الأمر

قضى الحسين ليلته ، وهو يفكر فى لمياء وأين هى .. وتذكر قولها يوم وداعه انها ستلاقيه فى الفسطاط ، وتصور تحمسها وثقتها بالظفر من ذلك الحين .. فاختلج قلبه ، وأحس بشوق الى رؤيتها أو معرفة أخبارها .. ولم يكن قد نسيها من قبل ، لكنه

تذكرها على الخصوص فى ذلك اليوم .

مضت أيام ولم ترجع لمياء بالجواب من جوهر ، فقلقت بنت الاخشيد وهى فى كل يوم يترجح عنـدها النصر للفاطميـين ، فأصبحت تخشى على حياتها .. وانما طمأنها أن الحسين بن جوهر أسير عندها تحتمى به عند الحاجة .. وحين اشتد قلقها بعثت اليه ، فجاءها فسألته عما يراه من أمر تلك الحرب

فقال الحسين : « لا ريب عندى فى فوز جندنا يا سيدتى » .

فقالت بنت الاخشيد : « عجبا .. كيف تؤكد ذلك ؟ »

قال الحسين : « لأننا متحدون قلبـا وقالبـا فى خدمة أمير المؤمنين ، نساء ورجالا ، ليس فينا الا من يفدى أمير المؤمنين بروحه .. فهل أنتم كذلك ؟ »

فقالت وقد غلبت على عواطفها : « لا يابنى .. لسنا كذلك لسوء الحظ .. » وغصّت بريقها ..

قال الحسين : « أما نحن فان أحدنا لا همّ له الا التفانى فى نصرة الخليفة .. أضرب لك مثلا على ذلك ، فتاة خطبتها فى القيروان .. وجاء ذكر الحملة على مصر ، فأبت أن يتم الزواج الا فى الفسطاط بعد فتحها .. وقد هجرت بيتها وسافرت فى خدمة مصلحة الدولة تمهيدا لهذا النصر ، ولا يعلم أحد الآن أين هى .. ولا أنسى قولها ساعة الوداع : « سنلتقى فى الفسطاط فى قصر مولاى المعز لدين الله على ضفاف النيل» ذلك هو مدى ايمانها بالنصر ، والجند لم يتحرك من القيروان . وأعترف لك ياسيدتى أنى أومن بصحة قولها ، وأن ذلك لابد من إتمامه »

فاستغربت بنت الاخشيد قوله وقالت : « لله درها من فتاة نادرة المثال .. أين هي الآن ؟ وما شعورك نحوها ؟ »

قال الحسين : « انني على مثل الجمر .. ولكنني واثق اننا سنلتقي هنا .. »

قالت بنت الاخشيد : « يظهر ان نساء بلادكم أقوى من نساء بلادنا وأشد حماسة ، فاني عرفت جارية مغربية أهداها اليّ يعقوب بن كلس بالأمس لم تر عيني أعقل منها ولا أطيب من قلبها ، وهي مع ذلك شجاعة باسلة لا تبالي بالتعرض للأخطار ، وقد قالت انها تعرفك وتعرف أباك والخليفة ، وتعرف أيضا الأميرين السجلماسيين اللذين حملاك الينا أسيرا »

قال الحسين : « وما اسمها ؟ »

قالت بنت الاخشيد : « سلاءمة .. »

قال الحسين : « هل هي التي أتتني متنكرة في ثوب جندي ، وأخذت الكتاب الى والدي ؟ »

قالت بنت الاخشيد : « نعم هي بعينها لله درها .. اني لم أعهد مثل هذه الحماسة والبسالة في النساء حتى قلت لها مرة : ليست هذه الأخلاق من أخلاق الجواري »

فرأى الحسين تشابها بين أخلاق لمياء وما سمعه عن سلاءمة وتذكر خروج لمياء من القيروان لخدمة المعز .. فأطرق وهو يقول في نفسه : « هل يمكن أن تكون سلاءمة هي لمياء متنكرة .. »

واستبطأت بنت الاخشيد جوابه ورأت اطراقه ، فتصورت انها جددت ذكرى خطيبته وهو بعيد عنها ، فلم ترد أن تشغله

عن تأملاته فحولت بصرها نحو النافذة المطلة على النيل والجيزة وراءه ، فرأت الروضة تعج عجيجا بالنـاس وفيهم الفرسـان بالرماح والسيوف والمشاة بالحراب فى غير زى المصريين ، وقد تطايرت السهام وأبرقت السيوف فصاحت : « ويلاه هذه هى الحرب .. قد دخل العدو بلدنا »

فالتفت الحسين الى الروضة ، وأجال نظره فى تلك الجهات فقال : « قضى الأمر يامولاتى .. هذا جندنا يقطع الجسر، وهذه أعلامنا ، ولايلبث أن يدخل الجند الفسطاط ظافرا .. لكن كونى مطمئنة ، انى أفديك بدمى .. ها أنا نازل لأقف بالباب وأمنع رجالنا من دخوله ، طمئنى أهل القصر جميعا» قال ذلك وأسرع نحو الباب الخارجى الكبير، وكان مغلقا وقد أوصدوه .. فرأى جنديا مغربيا يتسلقه ، وخدم القصر يستغيثون به ويتوسلون اليه أن لايفعل لأنهم لايحاربون ، وهو لايبالى.. فصاح فيه الحسين : « انزل يا رجل .. ان الذى يخاطبك هو الحسين بن جوهر »

فلم يكترث الجندى لقوله ، وظل يتسلق حتى وصل الى عتبة الباب العليا ، فأخرج من جيبه علما أخضر نصبه فوقها وتحول الى الداخل ، وأشار الى أهل القصر أن يتركوا الباب مقفلا . فنظر الحسين فى وجهه فرآه ملثما فقال له : « من أنت يا رجل ؟ لماذا لم تجبنى ؟ .. »

فأومأ اليه بوضع السبابة على شفتيه : « أن اسكت الآن » ودخل مسرعا فتذكر الحسين الجارية سلامة كيف تركته متنكرة بثوب جنـدى مصرى ، وما خامره من الشك فى أمرها عنـد

سماع خبرها من بنت الاخشيد .. فأصبح شـديد الميـل الى تحقيق ذلك ، فلحق بها .. ولم ينتبه له أحد من آهل القصر لما كانوا فيه من الحذر والخوف ، بسبب ماقام من الضوضاء فى المدينة بين عويل وصياح.. وقد زاد من رعبهم دخول ذلك الجندى المغربى ولكنهم ما أن رأوه ينصب الراية الخضراء حتى اطمأنوا قليلا .. ولكن الذين رأوه داخلا يعدو ، ولم يروا الراية ذعروا ..

أما الحسين فانه ظل مسرعا حتى دخل القاعة ، وطلب الى الحاجب أن يدعو له السيدة بنت الاخشيد .. فناداها فأتت ، ولم تنزل الستارة بينها وبينه وانما اكتفت بالنقاب ، فلما وقع نظره عليها استغرب ما عليها من الأثواب الثمينة والحلى ، وهو يسمع بما عليه أهل مصر من الضنك .. أما هى ، فحالما رأته صاحت : « ماذا جرى ؟ .. »

قال : « كل شىء فى أمان . وهذا عَلَم والدى قد نصب فوق الباب وهو علامة الأمان ، فلا يجسر أحد أن يمس هـذه الدار بسوء .. كونى مطمئنة »

قالت بنت الاخشيد : « ومن أقامه هناك ؟ »

قال الحسين : « جندى مغربى .. أظنه نفس الجندى الذى حمل رسالتى الى والدى ، وقد أسرعت لأراه .. »

قالت بنت الاخشيد : « أتظن أن سـلامة رجعت ؟.. أين هى ؟.. » وصـفقت فأتت القهرمانة وهى تلهث من الخوف ، فضحكت بنت الاخشيد من منظرها ، وقالت لها : « ما بالك يا خالة ؟ .. لماذا تلهثين ؟ .. »

قالت : « ان الأعداء دخلوا .. الفسطاط .. و .. و .. دخل رجل منهم هذه الدار .. »

قالت بنت الاخشيد : « لا تخافى ان هذا الجندى جاءنا بعلم الأمان من قائد جند المغاربة . كونى مطمئنة ، لابأس علينا .. وهذا الحسين ابن ذلك القائد .. أين سلامة الجارية ؟ »

قالت القهرمانة : « لم أعد أراها منذ أيام »

قالت بنت الاخشيد : « ابحثى عنها فى غرفتها الآن وادعيها الينا حالا .. »

وجلست وأشارت الى الحسين أن يجلس ، فجلس وعينـاه شائعتان نحو الباب ينتظر وصول تلك الجارية ، ولاحظت بنت الاخشيد قلقه فقالت : « مالى أراك قلقا كأنك تنتظر سلامة بكتاب من والدك ؟ »

قال الحسين : « كلا .. فان هـذا العلم يكفى جوابا .. ولكننى أتوقع أن تكون سلامة هذه غير ما تتوهمينها »

قالت بنت الاخشيد : « وكيف ذلك ؟ »

قال الحسين : « تمهلى ريثما نرى ».

واذا بالقهرمانة عادت وهى تقول : « لم أجد سلامة هناك ولكننى رأيت جنديا فخفت ورجعت »

فنهض الحسين وقال : « أين هو ذلك الجندى ؟ أوصلينى اليه .. »

- ٧١ -

النصر

فمشت القهرمانة وبنت الاخشيد والحسين حتى وصلوا الى الغرفة ، فوجدوا ذلك الجندى واقفا الى النافذة يراقب حركات المحاربين لا ينتبه الى أحد فى الدار ، فمشى الحسين بخفة حتى وقف وراءه بحيث يرى ما يراه . فرأى المغـاربة قد تكاثروا والاخشيدية يفرون من أمامهم الى المدينة ، وقد تراكم القتلى منهم على الجسر ، وتجاوزهم بعض المغاربة على خيولهم ، وظهر الفوز واضحا لهم فصاح الجندى : « الحمد لله قد كتب النصر لنا » والتفت فوجد الحسين وراءه فبغت ، ووقف لا يبـدى حراكا .. فصاح فيه الحسين قائلا : « من أنت ؟ »

فلم يجب وانما أشار الى ثوبه أنه جندى فقال : « أنا الحسين ابن جوهر .. فانزع هذا اللثام عن وجهك »

فأطرق ولم يجب .. فقالت بنت الاخشيد : « هذه سلاءمة حبيبتنا .. اكشفى عن وجهك للحسين يابنية ، انه حامى ديارنا »

فلم تجب .. فتقدمت بنت الاخشيد ورفعت اللثام بيـدها ، فأرادت لمياء تحويل وجهها حتى لايراها الحسين ، فرآها وعرفها وصاح : « لمياء .. » وأمسك بيدها وأدارها نحوه ليتحقق من ظنه وهى تحول وجهها عنه حياء ، فدهشت بنت الاخشيـد لمـا رأته وتذكرت ما قاله عن خطيئتـه فعلمت انها هى نفسـها ، فتقدمت وأمسكت بيدها الأخرى ، وقالت : « أنت لمياء خطيئة

هذا البطل وتزعمين انك جارية ؟ تكلمي .. »

فالتفتت الى الحسين لفتة تعودها منها .. أثرت فى قلبه تأثير السهم ، وقال : « تكلمي .. ما بالك ؟ »

فقالت وعيناها تلمعان : « قد تعاهدنا أن نلتقى هنا بعد فتح مصر .. فهل فتحت ؟ »

قال الحسين : « أوشكت أن تفتح .. »

قالت لمياء : « اصبر لا تفرح قبل تمام النصر.. انت هنا منذ أيام وأنا أعلم ذلك ، ولم أشأ أن أطلعك على نبأ وجودى لئلا نشتغل بالقلوب عن السيوف ، ولا أزال على ذلك حتى الآن . ان خدمة المعز مقدمة على كل شيء ، فاذا فرغنا منها وفتحنا البلد واستقر لنا الأمر ، فانى أمتك أترامى عند قدميك..» قالت ذلك وغصت بريقها ، وأبرقت عيناها وظهر الهيام فيهما . واسترخت عزائمها .. والحسين ينظر اليها باعجاب وخجل .. وقال : « أبيت يا لمياء الا أن تكونى السابقة الى الفضل فى خدمة أميرالمؤمنين.. انى متفان فى خدمته ، ولكننى دهشت لرؤيتك هنا ، وأنا أعهد مقرك ــ منذ افترقنا ــ بالقيروان .. الحمد لله على هذا اللقاء »

فنظرت اليه نظرة عتاب ، وقالت : « وذانك الرجلان اللذان ساقاك الينا فى القيود والأغلال .. انى لا أعد النصر قد تم وهذان الرجلان على قيد الحياة .. وأنا فى شـــوق الى سماع ما جرى لك فى أثناء هذا الغياب ، وأنت مشتاق الى حديثى .. فاذا تم النصر كما نريده نتحدث كثيرا »

فلما تذكر أبا حامد وسالما هاج الدم فى عروقه فقال : « أين هما ؟ .. »

قالت لمياء : « سأخبرك عن ذلك بعد قليل »

والتفتت بنت الاخشيد الى لمياء وقالت لها : « سنتركك هنا تبدلين ثيابك »

قالت لمياء : « كلا ياسيدتى لا أريد أن أغير شيئا قبل الفراغ من هذا العمل . وهل ترين منظرا أجمل مما أرى هنا .. ليس فى الدنيا ألذ من النصر فى ساحة الحرب .. لا صبر لى عن هذا المنظر هيا بنا الى المعركة » قالت ذلك وأسرعت فتبعها الحسين وهو يقول : « المعركة .. لست أشد منى غيرة على الدولة ولكنك شغلتنى .. » ونزلا فركب كل منهما فرسه وتسلحا وبنت الاخشيد ترى وتعجب . فلما خرجا قالت فى نفسها : « ان قوما أنصارهم مثل هذين ، أجدر بهم أن يفتحوا العالم »

ولم يسيرا الا قليلا حتى رأيا رجلا من أتباع الشريف مسلم حاملا عَلَـما أبيض يؤمّن الناس ، فنادته لمياء فوقف فقالت : « من أرسلك بهذا العَلَـم ؟ .. وكيف الحال ؟ »

قال : « لما غلب الاخشيدية وقتل منهم خلق كثير ارتدوا الى مصر وأخذوا من دورهم ما قدروا عليه وانهزموا ، فخرج حريمهم مشاة الى الشريف أبى جعفر وكلفنه أن يكاتب القائد جوهر باعادة الأمان . فكتب اليه يهنئه بالفتح ويسأله اعادة الأمان وهذا جوابه معى يؤمنهم ، وهذا العَلَـم الأبيض شاهد على ذلك . فاطمأن الناس وخرج الأشراف والعلماء ووجهاء البلد فى موكب

حافل يتقدمه الوزير ابن الفرات وجماعة الأعيان الى الجيزة لملاقاة القائد عند دخوله الفسطاط ، ولا يلبثون أن يعودوا به .. ألا تسمع المنادى ينادى بذلك ؟ .. »

فالتفتت لمياء الى الحسين ، وقالت : « قد تمَّ النصر والحمد لله .. فلا حاجة الى الخروج بل ننتظر وصول الموكب »

***

ونحو العصر (١٧ شعبان سنة ٣٥٨ هـ) أقبل الموكب حتى دخلوا الفسطاط وعليهم السلاح والعدة ، فدخل جوهر وطبوله وبنوده بين يديه وعليه ثوب ديباج مثقل وتحته فرس أصفر (١) فرافقوا الموكب حتى شق البلد ونزل فى مكان أناخ فيه جوهر جماله وبنيت فيه القاهرة بعد ذلك . فالتفت الحسين الى لمياء يستشيرها فيما ينبغى أن يفعلا فقالت : « هلم بنا الى مقر ذينك اللعينين فى الفندق .. أظنهما هناك »

فتبعها وساقا الجوادين ، وقد أوشكت الشمس أن تغرب ، حتى بلغا الفندق .. فلما رآهما صاحبه رحَّب بهما خوفا منهما ، وان كان المنادون قد نادوا بالأمان ، ثم وقع نظره على لمياء فعرفها ورآها بملابس جند المغاربة فاستأنس بها وتقدم اليها وهو يقول : « هذا صديقنا الصقلبى »

فضحكت له وقالت : « اننا فى حاجة الى تلك الغرفة الآن »

قال : « قد دخلها الرجلان فى هذه الساعة »

---

(١) ابن خلكان ١٢٠ — الجزء الاول

- ٧٢ -

قتلهما الفشل !

فالتفتت الى الحسين وقالت : « قد تم سعدنا » وساقا الجوادين الى داخل الفندق حتى صارا فى وسطه ، وترجّلا وأسرعا الى الغرفة فطرقا بابها .. فسمعا لغطا ولم يفتح الباب ، فاستل كل منهما خنجره ، وصاح الحسين : « افتح »

فأجابهما أبو حامد من الداخل : « لن أفتح لكما .. ليس خوفا على حياتى ، ولكننى لا أريد أن أموت بيد أحدكما .. ولا ينبغى أن أبقى حيًّا بعد هذا الفشل . وأخاف أن يجبن هذا الغلام فيستعطف ويتذلل وأنا أعرف ضعفه وجبنه .. فأنا الآن قابض على عنقه وها أنا أطعنه فى قلبه .. قد طعنته فمات ، وهذه طعنة فى قلبى ، وهذا الباب قد فتحته لكما .. فاستلما جثتين بلا روح .. »

ثم سمعا وقوع الجثة وفتح الباب ، فوجدا الرجلين يتخبطان فى دمهما ، فغطت لمياء عينيها حتى لا ترى ذلك المنظر الرهيب ، ولا تريد أن ترى سالما حبيبها الأول فى تلك الحالة رغم ما رأت منه أو سمعت عنه . وتحولت الى فرسها وهى تقول للحسين : « هلم بنا الى المعسكر لنرى قائدنا العزيز .. فقد قضِى الأمر وتمّ النصر »

فتبعها وهو يقول : « كنت أود أن أقتلهما بيدى .. »

قالت لمياء : « قتلهما الفشل ! .. »

وبينما هما خارجان اعترضهما صاحب الفندق وهو يبكى ويقول : « قتلتما الرجلين .. وذهبتما ، الآن يقبضون علىّ ويتهمونني بقتلهما .. بالله لا تذهبا »

فتقدمت لمياء اليه ، وقالت : « قتلا بأمر القائد جوهر .. وهذا هو الحسين بن جوهر القائد .. لا تخف »

فأكبّ على ركاب الحسين يقبّله ويقول : « اعذرني ياسيدي والله ان هذا الصقلبى رجل طيب .. مع السلامة ياسيدى .. »

***

وانصرفا حتى بلغا المعسكر ، وقد أظلم الليل .. ولكن الأنوار كانت تسطع فى تلك الأنحاء وقد أقبل المصريون زرافات ووحدانا على جوهر يهنئونه بالنصر ، وعرفا فسطاطه من كبره وكثرة من حوله من الحجاب ، فما زالا حتى وقفا بالباب واستأذنا فى الدخول . فلما قيل لجوهر ان الحسين يستأذن عليك نهض له وضمه الى صدره وقبّله ، فقبّل الحسين يده .. ثم تقدمت لمياء بثوب الجند فقبّلت يد القائد فدعاها الى الجلوس هى من جانب والحسين من الجانب الآخر . وكان فى جملة الحاضرين هناك أبو جعفر مسلم بن عبيدالله الشريف فعرّفه بهما ، فهنأهما بالنصر ورحّب بهما ، واذا بصوت خرج من جوانب الخيمة يقول : « ويعقوب ؟ » فعلمت لمياء انه صوت يعقوب بن كلس فالتفتت الى جوهر وقالت : « لا أستطيع أن أصف لك الفضل الذى أولاني اياه الشريف أبوجعفر والمعلم يعقوب ، فانتا مدينون لهما بكثير من أسباب هذا النصر وبحياتى أيضا .. ولولاهما لكنت

الآن فى عالم الأموات» .. فقال الحسين : «فانتضل اذن على أنا»

وبعد قليل انصرف المهنئون ، وبقى جوهر ومسلم ويعقوب والحسين ولمياء .. وكان اجتماعهم ممتعا على أثر ما عانوه من التعب حتى كتب لهم النصر ، فقصّ كل منهم ما عاناه فى أثناء الغياب والتفت جوهر الى لمياء وقال : « قد صحت نبوءتك يابنية فالتقينا فى الفسطاط بعد فتحها .. ألم يحن موعد العقد عليك؟ »

فقالت لمياء : « الحمد لله على ذلك ؛ لكن العقد اشترطت فيه أن يكون فى قصر مولاى المعز لدين الله على ضفاف النيل .. »

قال جوهر : « ألم تكن الفسطاط كلها قصرا له ؟ »

قالت لمياء : « بلى .. لكننى أريد قصره الخاص »

فضحك جوهر وقال : « انك تريدين أن يؤجل الزواج حتى يحضره المعز بنفسه فانك أهل لذلك .. وفى الغد نبدأ ببناء القصور لمولانا ، وبعد قليل يأتى الى مدينته ويعقد لكما .. »

***

وأخذ جوهر فى اليوم التالى فى بناء القاهرة ، ثم بنى القصور وبعث الى المعز بأخبار الفتح ، فانتقل المعز الى مدينته وأقام بها وتوارثها أعقابه بعده على ما هو مدون فى كتب التاريخ . وكان أول عمل قام به انه عقد للحسين على لمياء فى احتفال لم يسمع بمثله

طبع
بمطابع دار الهلال

العـــدد القــــادم

من روايـــات تاريــخ الإســـــلام

صلاح الدين الايوبى

لجـــرجى زيــــدان

ترقبــه أول ديسمبر ٨٤